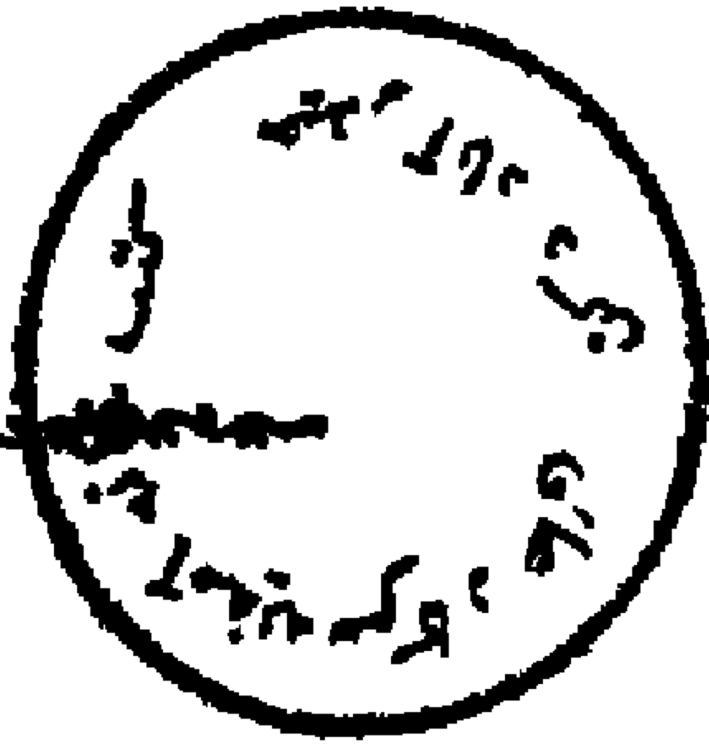
ديوان النابغة
ذبیانی

ديوان الفكاهة

رواية

الضفيرة الشقراء



تعريب يوسف بشاره

[illegible] الروم الارثوذكس في بيروت

١٨٩٠

رواية

الضفيرة الشقراء

الفصل الاول

القفة

ان غاب بولونيا كان عام ١٨٤٧ أجمة متباينة الاوضاع كثيرة الرمال يجعلها الصيف مثارًا للنقع والشتاء مناقع للاوحال ينتابها بعض الشعب الباريسي ابتغاء التنزه في سفح الاستحكامات حتى اذا استهل شهر شباط وكان الفجر لا يخلوان يعارض ثم الساري في قفر بورغاليو رجالاً اتخذوا عرضة موعدًا للبراز

ولما كان يوم الاربعاء من غرة صوم ذلك العام تكثب الناس عند الساعة الثامنة قبيل النزل القائم على احدى زوايا محلة دنيلي في جوار الغاب فانبثت اعرابات في جوانبه على اختلاف طرزها مثنى وثلاث ورباع فوق بساط من ثلج قد احاط بالبناء احاطة الخلخال بساق الجارية . وكان النور ينبعث فجر

ذاك اليوم الماطر من نوافذ طبقة النزل العليا مؤذنًا بانقضاء ليلة طرب راع انس المتلهين فؤادها وستر بياض امانيهم سوادها . وإذ كان الساقة قد قاموا عند جيادهم سهرًا عليها تحت العارض المطال ألمهم البرد فراحوا يعالجونه بالجري في تلك البقعة جيئة وذهابًا وهم يتخطون على مواليهم فمرّ بهم طرّاد من الرجالة عظيم الشان ذو لحية سوداء عليه حلة خضراء وعلى كتفه طراز من ذهب وقد عقدت على صدره بنود حمراء فسأل احد الساقة وكان طويل القامة فقال له

—أيخطر لسيدك الفيكونت مثل هذه الخواطر مرارًا

فاجابه السائق بكل سكينة – انني ما اطلعت قط على خواطر سيدي ومقاصده

فاعترض سائق آخر وقال – ان الزمان والمكان لا يساعدان على مناولة الطعام في البرية فضلاً عن الكلفة التي يتكلفها الانسان فيها

فعارضه زميله قائلاً – لا عجب يا اخي في هذا الامر وقد اراه الوفا فانني اذ كنت قائمًا في خدمة السير ارتور بولاك في لندن كنا نذهب مرارًا للمبيت في «ريشموند او في هامبتون كور»

فاجابه الطراد قائلاً – اصبت وقد سمعت امس البارون ينطق بما قدمت

وبينا هم يتسالون اطل صاحب النزل من الباب فقاطعهم الحديث بندائه – هلمّ يا طوبيا الى هنا انهم يدعونك

فعهد السائق المطلوب بحراسة جياده الى زميله وصعد الدرج الى الطبقة العليا يلبي الامر فلما مثل بين الجمهور استقبلوه بالضجيج واللغط يامره البعض بما ينهيه عنه البعض الآخر لان المتلهين كانت قد اذهلتهم الخمرة فانتهت بهم الى العربدة . فمنهم من امره ان يقطر جياده ومنهم من اشار اليه ان ينظرها واحدًا واحدًا ومنهم من طالبه بركائب . وكان السائق واقفًا صامتًا لا يشغله

من اوامرهم شاغل ولا يؤثر في سكينتهِ مؤثر الى ان قال لهُ سيدهُ بصوت جهوري

— سر يا طوبيا واكثر لنا خيلاً ثم عد الينا عاجلاً

فاحنى السائق راسهُ احترامًا ووقارًا وانقلب ينفذ امر مولاه

فاعجب الحاضرين حسن ادبه فقال احدهم وقد زرّ شرجه بشارات السمو والسناء

— ما اقوى سارتيلي على احراز مثل هولاء الخدم فمن اي مدن الانكليز اوضح

فاجاب سيد طوبيا — انني جئت بهِ من نورماندیا

فقال صاحب الجلاء — ما صحَّ عندي الخبر

فاجابهُ سارتيلي — ان والدتهُ كانت انكليزية واما هو فدع الان قصتهُ وآلهُ بما نعمل في ذا الصباح

فصدق ثلاثة من النساء اللاتي كنَّ في الجملة حديث الفيكونت وضحكوا استحسانًا لبيان إيجازه

ثم استطرد الخطيب كلامهُ فقال — سيداتي اننا نجتاز الغابة على الجياد قصد الافطار في «التانتوار» عند سانكلو

فصوّب الجمهور رأيهُ الّا واحدٌ اذهلهُ عن سماع الحديث مرأى جارتهِ ذات الشفاه القانية والحدق البراقة فقال معترضًا

— خلتكم اخواني قد اشتفيتم فاكتفيتم بما نلتموه من الحظ في هذه الليلة فما لنا والنظر في التنزه بعيدًا

فامتعضت احدى السيدات من كلامهِ فردتهُ عليهِ قائلة — انك تخاف يا فرزوا ان تهدر ارث عمتك

فاجابها الشاب بذلة وخضوع — وهل مالي يوازن مال دي مانسبنياك قدرًا

ففطن صاحب الجلاء لتغيب مانسينياك عند ذكر اسمهِ فسأل قائلاً

— عجبًا ما الذي اقعد صاحبنا هذه الليلة عن الانتظام في سلكنا

فاجاب سيد طوبيا قائلاً — انهُ انصرف عني لينضم الى سيدة حسنة الجملة عليهـا حلة الرقص وقد وعدني بالموافاة غير انني صرت في ريب من انجاز وعده

فقالت الشقراء — ارى سارتيلي في ريبٍ من كل امر ولا اعلم بالسبب الذي يحملهُ على انكار مجيء مانسينياك

— لا اقول الاَّ الحقيقة وحسبهُ تلك السيدة سببًا مانعًا وحاجزًا حصينًا يحول دون اجتماعهِ

— فمن تكون تلك الحسناء

— هي تلك السيدة الجميلة التي تمرُّ كل يوم على العربة بالشانزليزة

فضج الجمهور ضجة تدل على ريبهم في ما ابداه سارتيلي

فاستطرد حديثهُ قائلاً — وقد رأيتها تعقص فرعها الاصهب تحت قبعتها كانهُ اسلاك من ذهب فوق صحيفة من لجين

فقال فرزوا — عجبًا انَّى اتصل بها مانسينياك وقد عرفت يقينًا ان لها قرينًا قرين قلبهِ الغيرة والحسد

— صدقت يا اخي ولكن فاتك ان تصف ما تبرقع بهِ وجههُ من اثار الخبث والكراهية فما رأيتهُ مرة الاَّ وخلتهُ ذئبًا خاطفًا يوحش منهُ الانسان فلا عجب اذًا في تقرب مانسينياك منها وتودده اليها وعنده من الدهاء حبائل واوصال تجتذبها اليهِ وتقبل بها عليهِ

فاخذت احدى السيدات باطراف الحديث وقالت — لا غروَ اذا تمكن مانسينياك بدهائهِ من حب تلك الفاتنة وقد وفر لديهِ العجب كل سبب واظنها باتمران في امرٍ جلل

فاجاب سارتيلي متضاحكًا — بل اخال مانسينياك يعمل بالدرهم الزيف

فابدت جارة فرزوا كلام سارتيلي بقولها – ان من طال تغيبهُ وتوفر تصدق فيهِ كل الظنون والتهم ولا بدَّ ان تكون شقيقتهُ حنة على حقيقة من امر تغيبهِ عن منزلهِ مرارًا

فلما سمع سارتيلي اسم حنة تبدل وجههُ بالغضب واهتز قلقًا يريد ان يدفع سهام التنديد التي وقعت في نفسهِ لكن اقبال طوبيا على النادي عدلت بهِ عن قصده

فوقف السائق بهم وقال – سادتي لقد وفيت بالمرام وارصدتْ الاهبة للسفر . فهب الجميع من مكانهم يتهياون للركوب وقد مال باعناقهم النعاس لطول السهاد فقام سارتيلي يشدد عزمهم وينبههم الى ملاقاة الحظ وانتهاز فرصة الانس فامر الساقة ان تنتظرهم عند بورتاليو وركب بهن معهُ آخذين في طريق سانكلو

فسار الركب يجتاز الغاب القفر فوق بساط الثلج فتحدجه الشمس باشعتها من خلال الاغصان وتحدوه الاطيار على الاكمام باطيب الالحان وما زالوا يطوون الارض الى ان انتهوا بعد ساعة من مسيرهم الى مجاز سانكلو فاقترح عليهم سارتيلي الجد في السير بغية ان يدركوا الغابة وفق آن الافطار

وبينا هم على الطريق تبين لهم عن بعد رجلٌ مسن ذو لحية بيضاء حسن البزة انفشعت لهم هيئتهُ في التفاتة حانت منهُ اليهم وكان ماسكًا بيده مقطفًا قد اتخذ جانب الطريق سبيلاً فظن بهِ سارتيلي سوءًا فكاشف جاره البارون صاحب الجلاء بامره وهذا بلغ السيدات الخبر فغار سارتيلي بجواده الى ان ادركهُ فانتزع المقطف من يده واستمر مجدًّا الى سانكلو اما الكهل فلم يبرح مكانهُ متحيرًا مدهوشًا دون ان ينبس بكلمة فتعجب رفقاء الخاطف من هذا الامر واذهلهم وقوف الرجل في مكانهِ مبهوتًا ولم يكن الاَّ برهة حتى انزاح عن الطريق وانسلَّ كالظل في دغلة مجاورة متواريًا عن عيانهم

فقال البارون مخاطبًا رفقاه – عجبت من سكوت هذا الرجل عند خطف زاده

فاجابتهُ كورالي الشقراء — لا عجب في ذلك فانهُ حسبنا لصوصًا اقبلنا عليهِ فقنع بما اصبنا منهُ وامعن في الفرار

فقال فرزوا — ان سارتيلي ينتظرنا عند منعطف الطريق قبيل الساحة

ان فرزوا صدق في ما رآهُ فان سارتيلي كان قد انتهى الى الساحة التي عينها فوقف واشار الى اقرانهِ ان يلحقوا بهِ اليها . فاذعن الركب الى الاشارة فوافوهُ هاتفين هتاف من فاز بغنيمة باردة

فقال سارتيلي موجهًا خطابهُ الى السيدات — لنكشف الستار عن هذا المقطف فنرى ما اعد صاحبنا من الزاد لقرينتهِ

فاخذ سارتيلي ينشر ما انطوى في تلك القفة من المناديل الناعمة وهو يقول اخاف ان يخفق املنا ويخيب رجاؤنا في ما توقعناه منها فانني حتى الآن لم اعثر على شيء من الزاد . وكانت عيون الجميع محدقة بالقفة الى ان انتهى سارتيلي من انتزاع آخر منديل فيها فاذا بهم قد صاحوا جميعًا صيحة المزعوج عند حدوث خطب جسيم اذ انكشف لهم الغطاء عن راس بشرٍ قد جذم حديثًا . فزج سارتيلي المقطف في الارض كراهةً واشمئزازًا وقال لمن معهُ — اخواني ان هذا الرجل لا شك انهُ القاتل فلا بد من ادراك اثرهِ

فقالت لهُ كورالي — انهُ انزاح عنا عند تلك الدغلة حيث اشير اليك عنها وهي على مسافة خمسين خطوة من هنا

فقال سارتيلي — انني اعلم منهُ بمداخل الغاب ومجاهله فلا يستطيع ان يفرَّ منهُ ومن الراي ان نجدَّ كلنا في الوقوف على جلية امرهِ فعلى كلٍ اذًا ان ياخذ وجهةً فاذهب ايها البارون وقف عن يسار الطريق وانت يا فرزوا البث هنا مع السيدات حاجزًا يحبط املهُ بالرجوع على اعقابهِ من جهة سانكلو وعليَّ انا ان ادخل الغاب لمطاردة هذا الوحش الضاري فابطش بهِ دون رحمة

فلبى البارون الامر وبذل المهاز في شاكلة جوادهِ يريد النقطة التي

اشير اليهِ بالوقوف عندها · اما السيدات فابين الوقوف حيث انتهين وقلن لا بد ان نسير الى سانكلو فنطلع الشرط على الحال ونسالم النجدة لكن فرزوا قام وحده عند زاوية الطريق وراح سارتيلي يتسلل في كل خمرٍ

وما لبث فرزوا برهة ازاء تلك اللقطة المجمسة الاّ وداخلتهُ الهواجس وارتبك في وقوفهِ فخاف ان ينوبهُ من قيامهِ بهذه الخطة شرٌ جسيم . فقال في نفسهِ · ما كان اغناني عن التهور فيما لامنفعة لي بهِ ولا ارب وقد اري الاخطار محدقة بي من كل جانب فاذا عرض لي احدٌ في طريقي لا شك انهُ يعزو هذه الفعلة ليدي فاكون قد جنيت على نفسي ظلمًا وزورًا · لاسيما ان الله قد رزقني من فضلهِ مالاً وافرًا خلفهُ لي والدي لاعيش بهِ عيشة رغد وهناء وليس لاقتحم بهِ المخاطر واناصب البلاء . فيالسوء عاقبة هذا السفر وذاك العشاء

ان فرزوا لا يلام اذا اوجس خيفة من غوائل وقوفهِ عند الراس المجذوم فان الشيخ الجاني كان قد تربع في مكان يسهل عليهِ منهُ الخروج اذا امعنوا في مطاردتهِ فيسترجع المسلوب وكان الفتى يرتعد فرقًا من الامر وهو على متن الجواد ويخفق صدره هلعًا لكل حركة كان يسمعهـا من داخل الدغلة فتقدم بجواده الى وسط الطريق وهناك تبين صوت سارتيلي ينادي البارون ويحضهُ على المجيء اليهِ ليقفا في موضع يتعذر على الجاني الفرار منهُ . اما فرزوا فكان شاخصًا في جهة سانكلو منتظرًا وفود المدد عليهِ وبينا هو على هذه الحال ابصر الشيخ وقد استوى على هضبة كالاسد المذعور يلتفت يمنة وشمالاً ليرى لهُ مناصًا من ايدي القناصين . فلما تبينهُ فرزوا انزاح قليلاً عن الطريق ليحجب عن مرآهُ المهيب فتربص الجاني في مكانهِ برهة الى ان اصابت عيناه القفة والى جانبها الفتى ولم تصب الراس الذي كان كرَّ حتى سفح الهضبة فاختفى بين الحشيش النابت وكانت الاصوات تزداد وضوحًا وبيانًا في الغاب الى ان صاح سارتيلي برفيقه قائلاً

— تقدم ايها البارون من جهة اليسار فقد رايت الشيخ الناد وانت

يا فرزوا البث مكانك وكن على حذر

فلما طرق اذن الجاني صوت مطارده وثب بعزيمة الاسود الى سفح الهضبة وكرّ كالكرة المدفوعة من اعالي الجبال فقبض على المقطف وانسلّ في دغلة كثيفة لجهة الطريق المحاذية فلم يتيسر لفرزوا مطاردته والاستيلاء عليهِ فكان سارتيلي والبارون اثناء هذه الكرة التي اعقبها فرق بعيدة قد انتهيا الى الموضع الذي زايله الشيخ فصاحا بالخفير—الى ابن كان مفره

فاومى اليهما فرزوا ايماء الخائف الوجل مشيرًا الى المحل الذي ولج فيهِ فاحتدم سارتيلي اذ ذاك غيظًا على فرزوا فاوسعهُ سبًا وتحقيرًا لضعف عزيمتهِ وسقوط همتهِ ثم ترجل ورفيقهُ فربطا جيادهما بالشجرة وجلسا الى ناحية ليستريحا من جهد ما عانياه في طرادهما . ولما كان سارتيلي يود الوقوف على اثر هذا الجاني لم يقنع بما فعل فنهض من مربضهِ يريد لحاقهُ فاستوقفهُ ايذان فرزوا باقبال النجدة من جهة سانكلو . فحوّل سارتيلي النظر الى مطلعها فرأى عن بعد رجالاً تجد في السير جدَّ الابطال في حومة القتال فالتفت عندئذٍ الى البارون وقال لهُ

— فلنتقاعد الآن عن مواصلة الكد في ادراك اثر الشيخ ولنعهد بهذه المهمة الى الشرط فلا ريب انهم يأتون بالفائدة التي قصر جهدنا عنها لا سيما ان الرجل لم يزل متربصًا في مكان قريب

فاجابهُ البارون — اصبت يا اخي وقد رأيت رايك في هذا الشان لكنني ارغب في الاطلاع على اسرار هذه الحادثة الغريبة فما قولك فيها

فاخذ سارتيلي منديلاً اسود كان يستر الراس وقال — ان في ذلك موضع السر . ولكن مالي لا ارى المقطف

فاجابهُ فرزوا بكل سكينة وذلة — انهُ قد استرجعهُ وهو فار

فقال البارون — لله دره من شيخ تمخضت في قلبهِ بسالة الشباب . واني لاعجب من اقدامهِ على استرجاعها من ايدينا بين الخطر والحذر

وقبل ان ينتهيا من حديثهما الى النتيجة المطلوبة سمعا وقع اقدام الشرط المنظمة عن كثب فاسرع فرزوا اليهم رغبة ان يستر ذلتهُ لدى اقرانهِ فاطلق لسانهُ واخذ يسرد القصة لرئيس الشرط

فاجابهُ الزعيم — أنا على بينة مما اجملت وفصلت فاطلعنا على الراس

وإذ كان فرزوا يخشى ان يفر الشيخ الى بعيد اضرب عن الجواب على كلام الزعيم والح عليهِ ان يتبع الوجهة التي فرَّ اليها قبل ضياع الزمان

فاعترضهُ الرئيس قائلاً — لا تخف يا فتى فان الرجل رهن ايدينا وليس لهُ ان ينقل قدمهُ دون اذننا فقد دخل موضعاً تحيط بهِ المياه من كل جانب فتمنعهُ من الانهزام

ولما كان قد وقفت الكتيبة امام فرزوا خف سارتيلي والبارون اليهما فاشار الفيكونت الى الراس الملقى حيث ذكرناه قبلاً فتقدم احد الشرط منهُ ورفع عنهُ الستار الاسود فخفق فؤاد سارتيلي وانقبض صدره اذ تبين لهُ من مرأى الراس هذه المرة غير ما وضح لهُ من قبل فكأنهُ قد ابصر فيهِ شيئاً يتصل بسيرتهِ

فشرع الثقاف ينشر اللفائف بكل سكينة شان المجرب المحنك في البحث والاستقراء عن الحوادث المجعة الى ان تجرد الراس من ستائره فلاح للناظر وجه امرأة قد علتهُ الكمدة فشخصت فيهِ العينان كانهما تبصران وتقلصت الشفتان كانهما تلفظان واسترسل فرعهُ الاصهب كالحرير الناعم فلما تاملهُ سارتيلي لم يتمالك ان صاح مدهوشاً

— ما هذا الفرع الاَّ فرع تلك الحسناء الغريبة التي تمر على عربتها بالشانزليزة

أن عجب الفيكونت نبه خاطر الشرطي الى التهمة ولا غروَّ فان اعين الشرط حين البحث عن الجانين تلتمس من كل راكب وماش بل من حركة كل انسان سبباً يوصلهم الى غاية ابحاثهم . فامعن النظر سارتيلي وقبل ان

يحكم عليهِ ابتدهةً بهذا البيان

ان كل باريس جمعاء تعرف القتيل واسمها مدام دي نوريف تنزل مع زوجها في منزل جميل قائم على زاوية جادة الانفاليد ومحلة فارن . ويؤيد كلامي اقراني

فسالهُ رئيس الشرط بعد ان اخرج من جيبهِ رقعةً بيضاء ليعلق عليها ما تلقاه من الخبر — من هم اقرانك

— البارون بولار ملاّك وشارل فرزوا من جناف . وانا ادعى ادمون سارتيلي

فقال لهُ الزعيم — اني ساطالبكم بشرح الحال مفصلاً اما الآن فمن اللازم ان نبادر لالقاء القبض على الشقي

فقال لهُ فرزوا — انهُ لا ريب في وسط هذه الدغلة التي اشير لك عنها — لا اسهل اذن من الوصول اليهِ هلموا بنا ثم نظر الى عسكره فاقام منهم عند مخرج الغاب وبث بعضهم من حولهِ سداً في وجه الناد

ان الاجمة التي غاط فيها الجاني كانت على مسافة ستين خطوةً من حد الطريق يليها مغيض لا مناص لهُ منهُ فغدا اذ ذاك وقوعهُ رهن الوقت فاحدق بعض الشرط بالاجمة والبعض الآخر تشتتوا داخلها على طريقة انظم من طريقة الفيكونت ولم يكن برهة من الزمان الاّ وخرج الشرط منها صفر اليدين لا يملكون الاّ المقطف الذي عثروا عليهِ عند بئر مطوية وسط الدغلة . اما الشيخ فلم يقفوا لهُ على اثر

فساء الزعيم حبوط مسعى رجالهِ فلم يقنع بما اجروه فراح في مقدمتهم يجدد البحث ولكن عبثاً لان الشيخ كان قد زايل المكان بسرعة الظل ولولا انهُ قد ترك بعده ذاك الاثر لما حسبوه موجوداً . فاضطر الزعيم ان يقف عند الغاية التي انتهى اليها من ابحاثهِ ووعد الشهود بالاهتداء اليهِ ثم نظر الى جنده فقال لهم — لا شك ان هذا المجرم قد فرَّ قبل قدومنا فهاتوا المقطف لابصر بهِ فنشر

المناديل واحدًا واحدًا وبينا هو ينتزعها عثر على اثر حديث لم ينظره الفيكونت من قبل ألا وهو محفظة من جلد كانت مخبوءة طي اللفائف . فاسفر وجه الزعيم وانشرح صدره فقال

— ها انني ارى في هذه المحفظة طوابع اتمكن بها من الاطلاع على حال الجاني وقد اراه غبيًا لذهوله عنها

وبينا كان يتفحصها كان سارتيلي ينظر اليها عن بعدٍ وهو في قلق شديد كانهُ عارف بها وبصاحبها . فاحبّ ان يقبض عليها ويتامل فيها عن كثب فصدهُ من نفسهِ زاجر قوي كفّ يده عن لمس ما مدت اليهِ يد القاتل وابعده عن مواقع التهم في مسئلة توفرت فيها المخاطر لمن يتعرض اليها

ان الشيخ منذ دخل الاجمة لم يخطر ببالهِ الفرار منها لانهُ كان لهُ في التربص غاية يتحرى الحصول عليها . ولولا ذلك لما اضطر ان يخاطر بنفسهِ في مواقع التهلكة وكفى بالاوراق التي فقدت منهُ سببًا قويًا يقعد بهِ عن القيام

اما سارتيلي فانهُ تاسف جدًا لوقوع تلك الاوراق من يده في كف رئيس الشرط وآخذ نفسهُ بهذا الذهول فناجاها بهذا الكلام

— ما الذي غشى على بصري عند البحث في المقطف فاغمض جفني عن المحفظة التي اودعت سر القاتل . ترى ما عساه ان يكون سره . هل هو بعل تلك الحسناء الغريبة ذات الفرع الذهبي التي تعرفت بها قبل الليلة الراقصة

ان الفيكونت والبارون لم يتبينا جبين الشيخ الفاني لانهُ فرّ من امامها قبل ان يدركاه اما فرزوا فرآه عند انهزامهِ المرة الثانية ولكن لما كان قد اتى من جناف حديثًا فانهُ معرفة الرجل الذي جرى ذكره في الحفلة التي انتظم عقدها في بورتماليو.

وعقيب ان اجهد سارتيلي الفكرة في استنباط سر الحادث المفجع دون ان يسفر لهُ وجه الحقيقة عن غوامضهِ نبذ الامر ظهريًا وقال — ما لي واطالة الفكرة في هذه المعضلة فللشرط ان يتصرفوا في حلها . وربما يكون قد اخطأت

مرامي ظني في المرقص فاحسب ان يكون مانسيناك بعيداً من شر هذه الدعجاء فلا بد ان امرّ بمنزله فاتلقى منهُ الخبر اليقين فتجلو عن فوادي الاشجان وتذهب عنهُ الكروب والاحزان

وبينا كان الفيكونت يشغل نفسه بنجواه قام الزعيم يريد الرجوع الى سانكلو فقال

— انني لا ارى حاجة للانصراف الى باريس من اجل تبليغ الخبر للحال ولكن اطالبكم ايها الاخوان بالشهادة متى آن اوان الاستنطاق

فاجابهُ البارون — أنا لديك بما نقترحه علينا اظهاراً للحق ودحضاً للباطل اما الآن فاسمح لي ايها الزعيم انا سالك رأيك في هذه المسالة وما انكشف عنها

— لا يتيسر لي ان آتيك الحكم عاجلاً في امرٍ حسبتهُ خطراً . وكثيراً ما عثرنا على مظاهر مهيبة كان جوهرها صغيراً

— ولكن هذا الراس وذاك المقطف . . . .

— لا يفيدنا مظهره شيئاً بل ربما كان ذلك في يد طبيب جراح رغب بتشريحهِ للاطلاع على اسرار الفن وغوامضهِ فاهالهُ الطرّاد والحاق

فصدق البارون وفرزوا حديثهُ واستحسنا رأيهُ في المسئلة

فاستطرد الزعيم كلامهُ بقولهِ — اخطأت يا سارتيلي في انكار الحقيقة اعتماداً على الحجة الواهنة والدليل الساقط فان الشعر الاشقر قريب الشبه لا خلفة فيهِ

فسكت الفيكونت اضطراراً يود لو يتجلى الامر لغرض في النفس وكان يتمنى لو يتم لهُ ان يتامل الراس مرة اخرى قبل ان يلفهُ الشرط وبينا هو يحدث نفسهُ بهذه الرغبة ويمنيها سمع وقع اقدام جواد يغير فالتفت اليهِ واندهش لما رأى سائقهُ طوبيا قد علا متن جواد عربتهِ يسرع كالبرق في سيره على طريق سانكلو

فقال سارتيلي — لا بد لمجيء طوبيا من سبب غريب فنهض من مكانهِ وقام على قارعة الطريق مشيرًا اليهِ ان يقف فوقف السائق على قيد باع من سيدهِ . فسألهُ سارتيلي باللغة الانكليزية

— ما الامر وما عندك

— ان خادم المركيز دي مانسيناك جاءني بكتاب اليك وحضني على انفاذهِ عجلاً دون مهل

فاخذ سارتيلي الكتاب فتأملهُ وقال في نفسهِ — يا للغرابة ان هذا الخط لخط حنة فما الباعث اليهِ . ففضهُ للحال وقرأ بلهجة المرتجف هذه الكلمات

« لابد لي من الاجتماع بك اليوم فعجل بالقدوم اليّ . هلمّ يا اخي ولا تبطئ »

فعنيب ان قرأ الفيكونت الكتاب الموجز اكمد لونهُ وانقبض صدره فاوعز الى طوبيا ان يترجل ويلحق باقرانهِ الى سانكلو حيث يكتري جوادًا آخر لقطر العربة فترجل السائق حائرًا مما تبدى لهُ في ذاك المشهد ولبى امر مولاه بالحرف الواحد . اما الفيكونت فدنا من زعيم الشرط واقرانهِ فودعهم واعتذر اليهم عن انفصالهِ عنهم لاشغال مهمة تدعوهُ الى السفر عاجلاً . فقبل الزعيم عذره ولكنهُ طلب اليهِ قبل سفرهِ ان يفيده فائدة يحسن الوقوف عليها فقال لهُ

— هل لك ايها الفيكونت معرفة بهذه الشارة المطبوعة على هذه الاوراق

فتقدمهُ البارون ونظر في الورقة فقال — رسم بندير من ذهب يعلوهِ تاج مركيز

فما اتمّ هذا البيان حتى ارتد سارتيلي الى الوراء مرعوبًا فقال

— كلاّ انني لا اعرف هذا الجلاء

ثم ركب الجواد واغار لابلوي على شيء وهو يقول — ان هذه الشارة هي شارة دي مانسيناك . . والكتاب من حنة ويلاه ماذا جرى . . .

لا بد ان يكون قد حدث امرٌ جالل يستنجدني فيهِ . فاخاف ان اوافيه متاخرًا

الفصل الثاني

قصر مانسينياك

ما ركدت ثائرة ثورة شباط في فرنسا حتى بعثت المناسف في اصول الآثار فانتسفت قصر مانسينياك منذ خمس عشرة عامًا . وكانت تلك القصور العظيمة لاخر عهد لويس فيليب على نجوة تكتنف السان فلقبت على عهد الاصلاح بالتروكادرو اسم اسبانيولي جعلهُ الفرنسيس تذكار تبريزهم على الاسبانيول في حرب ١٨٢٣ ولما كان لهذا الموضع شان عظيم من لدن الامبراطور الاول رأى ان يقيم فيهِ قصرًا لابنهِ « ملك رومة » لكن حادثة ١٨١٤ قطعت بهِ عن تحقيق امانيهِ ولم تفعل في جد القائد المركيز دي مانسينياك الآخذ ببنائهِ منذ عام ١٨١١

كان هذا القائد ابن رجلٍ عريقٍ النسب هجر بلاده الى كوبلنتز فنضى فيها نحبهُ يتقرب من نابوليون الاول بوفائهِ وامانتهِ ويتزلف اليهِ بهمتهِ وشهامتهِ ومازال بهِ الى ان استرجع منهُ ثروة آبائهِ . فاقام في « اوسترليتز » ملازمًا في الخيالة الى ان شبت نيران الوغى في « واكرام » فرُقي الى مقام القائد

ولما تزوج نابوليون من ماري لويز احب ان يكافئ ادمار دي مانسينياك عما قدم بين يديهِ من الادلة عن صدق خدمتهِ فعقد لهُ على كريمة احد سراة

النمسا واوفرهم ثروة كان قد جاء في جملة من قدم فرنسا مع الامبراطورة فبعثت هذه النعمة الكبرى في نفس القائد مزيد الهمة في اخلاص الخدمة نحو مولاه فعمد الى ان يقيم قصرًا مشيدًا في الارض التي خصت بسلالة سيده لكن الدهر أبي الّا ان يغمض من شان دولة نابوليون قبل اكمال البناء فلم يقم فيه القائد الّا عام ١٨١٧ . وعلى رغم ما ناله من الخذلان على عهد الخلف لم ينفك مانسينياك عن سيرتهِ الاولى متوخيًا رضى اولياء امره صابرًا على نكبتهِ وزوال نعمتهِ الى ان اسعده الجد اخيرًا فتشيع لآل بوربون عام ١٨٣٠ فرُقي الى منصب الشيوخ في فرنسا وانتظم في سلك سراة باريس واعيانهم الى ان حضرتهُ الوفاة على اثر ثورة تموز وكان لهُ ابن اسمهُ روجه في الثامنة عشرة من عمره وطفلة في المهد جاءت علة لوفاة امها . فقبض روجه على ثروة ابيهِ الطائلة وسار في الناس سيرة لم تعهد من قبل في فتى من عمره فكان ذا عزم ورشاد وحكمة وسداد وبالجملة فتىً استكمل صفات الشيوخ وكان يعزو الناس ذكاء هذا الفرس الى اسباب خفية وعبر مجعجعة كانت تتراءى لروجه في قصر ابيهِ فيعتبرها ويتثقف بها

ان القائد كان يزاول الجلوس في البلاط ويكثر انتياب المنازه والملاهي ويقفل باب قصره دون الزائرين الّا مرتين في السنة كان يحتفل فيها عنده سراة القوم الباريسي فترأس امرأتهُ الحفلة فيانس الناس منها كلفًا في لطفها وايناسها وهذا ما وقف عنده اهل باريس من امرها . وكان لموتها اثر اوقع في النفس من اثر حياتها . فحمل الادباء منهم هذه السيرة على غيرة وقعت في نفس امرأة القائد على زوجها وما زالت تشتد وطأتها الى ان بلغت بها حد الموت . فاخذ التجار النازلين في جيرة القائد يتقولون عنهُ امورًا مجعجعة وقصصًا منكرة جعلت القصر مهيلاً . فتناقل الكل هذا الحديث واستمرّ جاريًا بينهم لم يتحول على زمان نزول روجه وشقيقته فيه . على ان نظام سيرة الوالدين كان واضحًا بيّنًا لا يشتبه على من آلفها وبصر في امرها فقام روجه لدى

شقيقته مقام الوالد الى ان بلغت اشدها وكانت تعني في تعليمها وتهذيبها على الطريقة المألوفة عند الكرام احدى السيدات الانكليزيات فهذه المدبرة كانت قد دخلت القصر قبل وفاة المركيزة بعام واحد فقامت عندها نديمة كذبت بحسن آدابها وسمتها ما ارجفت بهِ الناس عنها وما رموها بهِ من سوء الخلال وفساد السليقة . فاحبت حنة حبًا شديدًا وكلفت بهـا كلفًا صادقًا اكيدًا وكانت تلك النديمة قد بلغت لذاك الوقت عمرًا ينفي عنها التهم والاوهام ويدرأ عنها شباة السنة الخاص والعام . ولم تكن وحدها غرضًا لتلك السهام بل ربما تجاوزت الى صدر غيرها من سكان القصر

كان روجه دي مانسينياك فتى عارفًا ذكيًا عاش بين قومهِ عيشة اقرانهِ في اللهو والزهو ثم انقطع شيئًا فشيئًا في قصره وانفرد بصحبة صديق له يدعى ادمون دي سارتيلي . فقام هذا الشاب على مودتهِ حينًا من الزمن لم يتيسر له فيهِ انكشاف الستار عن خفايا قرينهِ فقرن ظنهُ بظن الآخرين وصبر على الشك توصلاً لليقين . وما زال تغيب روجه عن اقرانهِ باعثًا على الاراجيف الى ان قرّر بعض القوم ان في القصر اسرارًا تمسك بروجه عن مزاولتنا والفتنا وامتد زعمهم الى ان اسنده فريق منهم بقولهِ . ان في سفح التروكادرو دياميس يأوي اليها خفية سكان قصر دي مانسينياك وهناك يعمدون الى اعمال غامضة منكرة

اما سارتيلي فلم يجارهم في هذا الزعم وحمل تغيب صديقهِ على الغرام والهوى فقال في نفسهِ ربما كان روجه مولعًا بحب امرأة كريمة الحسب يقضي عليهِ التقرب منها هجر خلانهِ والانقطاع عنهم لكنما الامر الذي ادهشني واستغلق عليَّ ادراكه وفرة مال روجه ويساره

لا يغرب عن ذهن القارىء اللبيب ان روجه ورث عن ابيهِ مالاً جزيلاً اسعده على ان يعرض عرض الكرام ويقوم بينهم في اسنى مقام لا يعارضهُ فيهِ معارض ولا ينازعهُ منازع غير ان سارتيلي كان يجهل ذلك ولا يعلم من ثروة

صديقهِ الاَّ ما ظهر لهُ منها في ذلك البناء اي قصر دي مانسيناك ليس غير ويتعجب من توسعهِ في النفقة الجسيمة على حين لا تجارة لهُ ولا هو ممن اكبَّ على موائد المقامرة . ولما كان هذا التعجب شديدًا حملهُ على الاستقصاء في سجلات الحكومة علهُ يرى لهُ اسمًا في جملة الدين وجب على الحكومة ان تاتيهم اتاوة فلم ينجح فاقلع اخيرًا عن البحث وقنع بحب روجه ومصادقتهِ صداقة استوثقت منهُ قديمًا فزادها الزمان تحكيمًا اذ غدا صديقهُ شقيق فتاة هي من الحسن بمكان ومن الجمال ما عدَّ وصفهُ فوق الامكان .

كانت حنة تنمو وتترعرع الى ان ناهزت الثامنة عشرة وليس لها من دون سارتيلي اليف ولا لاخيها من دونهِ صديق او حليف فوقع حبها في فوادهِ احسن موقع فعلق بها ولم يجد في مباينة العمرين مانعًا يمنع . فتظاهرا بالحب مظاهرة رضي عنها روجه كل الرضى وقال في نفسهِ ليكن لصديقي واختي ما قضى فوقف المتحابان عند حد الحب المتبادل بين الاخوان صابرين على دواعيهِ الى ان يقضي الزمان فيتم القران

ولما كان مساء اليوم الذي شهدنا فيهِ حادثة الغاب جلس روجه وسارتيلي الى جانب حنة واخذوا يتجاذبون سواء احاديث الحب والولاء ويقلبون الفكرة في احوال الاستقبال فعظم سرور روجه في تلك المناظرة وانشرح صدره فوعد صديقهُ ان يوافيهِ في الغد بغية ان يكاشفهُ في امرٍ ذي بال . فهجس ادمون في نفسهِ هاجس القران فقال — لا بد ان يكون قد خطر لصديقي ان يحدثني غدًا بمعدات الفرح وضروريات العقد . ثم قام فودع اصحاب المنزل بريد الانصراف وهو جازع يود لو انطوت تلك الليلة من عمره فراحت فدا ساعة اللقا . ورغبة في تقصير المدة قصد احد المنتديات التي آلف انتيابها فتناول الطعام ثم انصرف الى المرقص ومنهُ الى التنزه في بورنماليو حيث اجتمعنا بهِ في بدء الرواية

فلما اخذ الفيكونت كتاب حنة الذي جاءه بهِ طوبيا انقبض صدره

ولرتبك فكره لا سيا بعدما لقيهُ من الغم والكرب لدى مشهد الراس المجذوم فراح يتيهُ بخاطره في بيداء الاوهام وهو ينهب الارض بجواده الى « باسي » تارة يمثل الراس مخضبًا بالدم والى جانبهِ زعيم الشرط يقلب النظر في تلك المحفظة التي جمعت جلاء عرفهُ وتارة اخرى يتخيل لهُ ان كل ما رآه كان حلمًا كاذبًا . وما زال يبذل المهاز في شاكلة الجواد الى ان لاحت لهُ عن بعد ذروة القصر تحدق بها الاشجار الباسقة فاغفل كل ما جال في خاطره من اثار الماضي واخذ يعمل الفكرة في استجلاء السبب الذي من اجلهِ دعتهُ حنة اليها عجلاً . وكان كلما امعن الفكرة في الامر تجسم الوهم في عينهِ وحدثتهُ نفسهُ ان خطرًا عظيمًا ضرب اطنابهُ حول سعادتها فغار سارتيلي لا يهتدي الى شيء من فرط حزنهِ وغمهِ . فما كاد يبلغ سور حديقـة القصر الَّا وفتح الرتاج وطلع عليهِ منهُ غلام تقدم فمسك عنان الجواد ولا غروَ انهم كانوا بانتظاره . فترل سارتيلي عن الجواد وبادههُ بهذا السوال

— اما عاد المركيز الى القصر

— انهُ عاد يا سيدي منذ ثلاث ساعات ثم انصرف ولا ادري الى اين

فسري عن سارتيلي شيئًا عند سماع هذا الجواب البديهي وبعد ان سكن روعهُ استانف السوال وهو مطمئن البال

— ايتيسر لي ان اجتمع بالسيدة حنة

— انها تدعوك الى انتظارها في خزانة الكتب

فتخطى سارتيلي للحال الرحبة ولما كان عارفًا بانحاء القصر صعد السلم حذاء غرفة المركيز بريد الخزانة القائمة في الجهة الجنوبية من القصر . وكانت على شكل رواق فسيح الارجاء مضاء بنوافذ يكاسرها من الجهة الواحدة مقصورة المركيز فيصل بينهما باب صغير ومن الجهة الاخرى تنتهي عند جدار غير نافذ

فلما وقف سارتيلي ببابها تذكر انس تلك الليالي التي احياها فيها بالقرب

من حبيبتهِ حنة حيث كان يجالسها فينظم بجوهر سمرها عقود المسرة والطرب . وكانت تلك الخزانة اجمل محل في القصر يؤثر روجه الجلوس فيها ظل نهاره فما اجال سارتيلي نظره في ارجائها وجال في انحائها الاَّ ولاح لهُ كأن ما لديهِ من كتب ورسوم ألسنة تحدث عن شان صديقهِ من برهة وجيزة ثم دنا من الطاولة وتاملها فالفى عليها رقعة بيضاء وقلمًا نديًا ما رآه احدٌ الاَّ وحكم استنادًا الى تلك الادلة ان المركيز لم يزايل المكان قبل بضع دقائق

فارتاح بال سارتيلي وطابت نفسهُ فناجاها وهو يخطر في المجال قائلاً

— الحمد لله الذي فرج همي بما بسط لديَّ من الادلة الواضحة التي تنفي كل الخطر عن هذا المكان العزيز وما زال يخطر في الرواق ساكنًا مطمئنًا الى ان عثرت رجلهُ بشيءٍ ناعم فبصر فيهِ فاذا هي ضفيرة شقراء زادتها اشعة الشمس تالقًا بعينيهِ فقبض عليها سارتيلي مذعورًا وقبل ان يسكن هلعهُ سمع وقع اقدام حنة في الرواق فنبذها عنهُ وقام ينتظر لقياها فدخلت عليه و بسطت كفها للسلام ثم سالتهُ بصوت خفيّ من الغم

— اما ابصرت روجه

— كلاَّ وقد ظننتهُ في القصر

فما سمعت حنة هذا الجواب حتى اقعدها الياس والحزن الشديد على متكإٍ كان في جانب الرواق فتقدم اليها سارتيلي يريد ان يسليها و يفرج همها فصدتهُ الفتاة برفقٍ واشارت اليهِ ان يجلس الى جانبها . فاطاع سارتيلي وسالها وقد نفذ سيف الحزن في لبهِ

— ما جرى يا حنة وما الامر يا عزيزتي

فامسكت الفتاة عن الجواب السريع لشدة ما كان بنفسها من الاسى بحضرة الحبيب واستخرطت في البكاء والنحيب

فهتف سارتيلي — اواه حنة ماذا ألمَّ بكِ وما نابكِ يا بنت الكرام بالله اكشفي غمي بحديثك والاَّ قضيت والسلام

— اسفاه لقد خانتني الايام ونفذت السهام

— واي السهام

— سهام المنية

— عجباه اتهذين يا حنة وصدر من اصابت

— والهفتي واحر قلبي من جورها لقد اصابت صدر روجه اخي وشقيق روحي .

فخفق فواد سارنيلي حزنًا وصاح — ويلاه ما هذا الخبر ثم امسك عن الكلام برهة تمثل لديهِ فيها مشهد الصباح المفجع وقال في نفسهِ ان تلك المحفظة التي رأيتها في كف الزعيم ان هي الاَّ محفظة روجه وقد انتزعها منهُ القاتل

وكانت حنة امامهُ تتقلب على المتكأ من اليأس والكآبة وهو لا يستطيع ان يعزيها او يسليها ثم تمتم بذاتهِ قائلاً — عجباه متى فاجأَتهُ المنية وقد رأيتهُ ليلاً

فقاطعتهُ الفتاة ملهوفة وقالت — متى كان هذا اللقاء

— انني لقيتهُ في المرقص عند الساعة الثانية وما اخالني كاذبًا

— انهُ كان لم يزل في القصر عند الثالثة

— اذن لم يقتل في القصر . . . كلاَّ ان الجريمة ارتكبت خارجًا

— قد عرفت بساعة ذهابهِ فبعثت بطلبهِ اليك

— ما تقولين يا حنة أأنا بعثت بطلبهِ هل ذهب عقلي ام ذهلت عما كان

فرفعت اذ ذاك حنة انظارها اليهِ والدمع ينبع من اجفانها فاجابتهُ

— نعم هكذا كان

— من كان الرسول

— غلامك طوبيا

فشق على ادمون مرأى خطيبتهِ في حال الذهول وخاف ان ينالها مس فخفف صوتهُ وتلطف بالكلام فقال

— اعلمي يا حبيبتي ان حبي لك غدا حقيقة لا يشوبها ريب ولا يلابسها الوهم وقد ثبت لديك ان محبتي لروجه هي محبة اخوية ولا غروَّ فان والدك كان كفلني عام ١٨٣٠ عندما اصيب والدي في الذود عن «اللوفر» فادناني منهُ وجعل مجلسي عنده مجلس روجه فتوجب عليَّ من ثمَّ ان آتي اليوم بما تفرضهُ عليَّ الانسانية من حقوق الوفاء بمعرفة الجميل نحو مثل هذه العائلة الكريمة . فانا لديهِ في كل مهمة بل كنت فداء في كل خطر يبادههُ او يفاجئهُ وقد آليت على نفسي ان آخذ بثاره من خصمهِ اذا حق نعيهُ ولكن عليَّ ان استجلي حقيقة امره تمامًا قبل الشروع بالعمل

فاشجى هذا الحديث الخلوصي فؤاد حنة فرفعت راسها الى حبيبها ونشفت دموعها ليتيسر لها النظر اليهِ نظرة تشير الى صبابتها ومعرفة جميلها ثم زحزحت ببنانها فرعها المسترسل على وجنتيها وامسكت برهة عن الكلام امساك المفكر في وجه الجواب ثم قالت

— لقد فطنت الآن لما كان من امرنا فقد جالسني روجه طويلاً واسمعني من لامارتين ابياتًا اصبتني حتى الدمع لكنهُ كان مسرورًا سرورًا لم اشهده فيهِ من قبل وكان يمازحني ويلهيني فما لبث على هذه الحال حتى رأيت وجههُ تبدل بالكآبة فاظلم واخذ من السرور طريقًا الى الكلام عن والدتهِ وعنك ولم ازل اذكر من حديثهِ ما قالهُ اخيرًا . . . ان قد دنا اجل القران

فصبغت خديهـــا وردة الخجل من هذا الكلام فامسكت عنهُ برهة ثم استانفت الحديث فقالت

— وكان من عزمهِ ان يستدعي الموكيل لينظر في معدات العرس وقال لي مرارًا « يا شقيقتي ربما اتغيب عنكِ فتحول المسافة دون اجراء مرغوبك وقضاء مطلوبك فلا احب ان تنفصلي عني دون ان اجهزك بما هو لائق بك وان انحلك بمال يقوم بنفقتك »

ثم استطردت كلامها فقالت — اني انبئك يا حبيبي بهذا البيان مقدمة ما

كان بيننا قبل حدوث ما حدث في هذا الليل
وكان ادمون يصغي الى حديثها كل الاصغاء فسألها
— متى فصل عنكِ روجه
— عند نصف الليل وقد كان نبأني بتأخير عودتهِ فرغب اليَّ ان انقدمهُ الى الخزانة عند العاشرة وانتبهت الآن لحديثهِ معي عند انفصالهِ فقال «لا انكر يا شقيقتي ما اسومكِ من الضجر والملل في مزاولة مطالعة الروايات الحكمية ولكن من كان في عمركِ ليس له من دونها سلوى في عزلتهِ فعليكِ بها دون سأمة » ولما انتهى من هذا الكلام مال اليَّ فعانقني ملهوفاً واذا بجبيني قد ترطب من الدمع الذي اذرفهُ خفية عني
— هل عاد بعد ذلك
— اخشى ان تحمقني يا ادمون اذا اسهبت في الشرح لديك
فبسط سارتيلي اليها يداً يريد مسالمتها فقبضت عليها حنة وقالت بصوت المتخشع
— لا خفى انني امرأة اسلم بحديث القلب ودلائلهِ فمنذ ساعة هجرني روجه وقع في نفسي الحزن وطبق صدري الغم فهام فكري في بيداء الهواجس وتخيل لي ان خطراً عظيماً يتهددني فحدثتني نفسي ان تلك الليلة كانت آخر عهدي معهُ فحاولت مطاردة الهموم فأبت الاَّ اكتنافي وما قصدت الاَّ تلافي بتلف روجه . فاستعذت بالرقاد من شرّ ما دهاني فما اغناني فبتُّ سواد ليلي على بساط الاشجان يستفزني الخاطر الى فيافي المخاطر . وما زالت بي الى ان القتني على السرير عياء فنهضت مذعورة وقمت الى النافذة المطلة الى غرفة روجه فالفيت نوراً ساطعاً يتلألأ في الخزانة فسري اذ ذاك عني وهتفت لقد بعد الشر مني فها ان اخي قد عاد والعود احمد فحداني الشوق لرؤياه الى ان اذهب اليهِ فاقص عليهِ قصة بلائي وعنائي فاطالبهُ بتعنيفي وبينا انا في ذلك الموقف تبين لي صوتهُ وكأني بهِ يقويني ويذكرني ببسالة آبائي ومضاء عزيمتهم

فقلت ما ضرّني لو قصدت المدبرة جورجينا فنبهتها واطلعتها على سري واوقفتها على جلية امري فزجرني الزمان واوقفني عن ازعاجها فعمدت حينئذٍ الى شمعتي فجعلتها على كتفي وتقدمت فاسمعتني الساعة وانا في ظاهر الغرفة ايذانها بالثالثة فسرت و بيدي المصباح اتخطى الرواق بسرعة الظبي التفت يمينًا وشمالا جاعلة نوافذ الخزانة نصب عيني الى ان وقفت عند غرفة روجه فانطفأ المصباح وشملتني ظلمة مدلهمة

فارتاع ادمون من هول الموقف فلم يتمالك نفسهُ عن السؤال ملهوفًا

— بالله يا خنة ما رأيتِ حينئذٍ!

— ما رأيت اثرًا يا اخي ولكن آه دعني اتنفس الصعداء من هلعي عند ذكر تلك الساعة ومخاوفها فامسكت حنة برهة عن الكلام ثم اتمت حديثها وقالت

— انني سمعت ضجة غير مالوفة صعدت اليّ من يسار القصر فجمدت الدم في عروقي وذهبت بروعي. وما مثلها الاَّ مثل ضجة عربة تكرّ بعيدًا اعقبها ظلام في الخزانة فخيم عليّ الليل الدامس واوحشت المقام حتى كدت اهي من الخوف الذي عراني فما زلت على هذه الحال من القلق والارتباك الى ان قدح لي زناد الفكرة فاقدمت اقدام الجبان اذا خلا له المكان فبلغت غرفتي حيث جلست انفض من الوجل انتفاض العصفور الى ان زال عني شيئًا فقمت الى النافذة اراعي النجوم الزاهرة من حول القمر الزاهي في تلك الدلماء واجيل النظر في اشجار الروضة الغناء و بينا انا على هذه الحال لاح لي رجل قد انحدر من سلم القصر لجهة اليسار فانساب انسياب الافعوان عند سفح السور الى ان بلغ الباب الصغير ففتحهُ متواريًا عن عياني فتيسر لي اثناء ذلك معرفتهُ واظنهُ طوبيا

فصاح سارتيلي وقد استفزه العجب من ذلك — لا يمكنني تصديق مارأيت والبرهان واضح لديّ في اشتغال طوبيا عن المجيء الى هنا في تلك الساعة فانهُ

كان معي عند الواحدة في الملهى ولما كانت الخامسة قام على رعاية الجياد في طريق لبالتيه بينا كنت اتنزه في غاب بولونيا

فهزت حنة راسها هزّ المتعجب من موبقات تلك الليلة وغرابة حوادثها ثم قالت

— لما اصبح الصباح بعثت من برود الاخبار عن روجه فلم يكن في القصر فطالبت البواب بها فاجاب انهٔ شعر بعودتهِ من باب الحديقة عند الساعة الثانية ليلاً ويظن انهٔ خرج منهٔ بين الثالثة والرابعة لانهٔ سمع حركة الباب الصغير في تلك الساعة فساورتني الهموم وعاودني الاضطراب لا سيما عندما جاء الوكيل يطلب مكاشفتهُ في الساعة العاشرة فعندئذٍ ثبت لديَّ وقوع الخطر فعمدت للحال الى مراسلتك علك تفيدني امرًا يريح بالي ويذهب ببلبالي

وبينا كان ادمون يصيخ سمعًا الى حديث حنة انجابت عن افكاره غيوم الاكدار وانجلي لهُ وجه الامر فاطمان بالهُ وقال لها

— لقد اخطأَ يا عزيزتي ظنكِ وتاه فكركِ اذ لم ارَ سببًا للقلق والاضطراب على انكِ تعلمين بعوائد روجه واسباب تغيبهِ الطويل فكم من مرة يحتجب عنكِ شهورًا ثم يطلع عليكِ صحيحًا معافىً

— لم يعتزل عني دون ان يعلمني بمدة اعتزالهِ ومكان احتجابهِ

— لا اجد غرابة في عودتهِ وانصرافهِ من باب الحديقة وقد سمعت روجه يبسط السبب في ذلك دفعًا للوهم والحذر وعذره واضح انهُ لا يريد ان يزعج الخدم في ذهابهِ وايابهِ متاخرًا

فاعترضتهُ حنة بصوت ضعيف كاد ادمون يتبينهُ لولا انهُ اماما فقالت — انني لم آتِ حتى الآن على القصة بوجهها

— فلمَ تكتمين الامر يا حنة اما حق لديكِ حبي اما كشفت لك قلبي

— فاسمع اذًا مقالي وافقه مرادي . قضى الله على والدي وانا ابنة لم

الجاوز الرابعة في ليلة اشبهت بالبارحة بغزارة امطارها وشدة ظلمتها فاحدق بهِ الحشم وغادروني وحدي انقلب على سريري وبينا كنت على تلك الحال مرَّ بي رسم غريب الشكل ما مجمتهُ عيني من قبل فكان امرأة مترديه بكساء احمر قد استرسلت فرعها الطويل على كتفيها فخطت الغرفة كالسهم ولم يكن الاَّ برهة حتى طرق اذني نحيب . . . فكان روجه يبكي فقد والده

وكان ادمون شاخصاً الى خطيبتهِ مزعوجاً من حديثها المبهم فخاف ان يكون قد خولط في عقلها

فاستطردت حنة كلامها فقالت بصوت منهدج — وفي هذه الليلة ايضاً رأيت تلك المرأة بعينها فاشتد قلقي وزاد ارتباكي اذ تاكدت وقوع مصاب في دارنا

فاهتز الفيكونت من كلام حنة وسرى اليهِ الخوف ولا غرو فان الرعب الناشيء عن اسباب غير عادية عدَّ من العلل الوبائية فضلاً عن ذلك ان هذه الخيالات وتلك الرسوم غدا بعضها جانباً تستذري بهِ الحقيقة بل دليلاً صادقاً على ما جرى في الغاب فقال سارتيلي في نفسهِ ترى هل ما رأيت في الغاب اثراً من عين تلك المرأة المتردية باللباس الاحمر التي خطرت في الليل الماضي في دار دي مانسينياك . فحوَّل اذ ذاك ادمون انظاره الى الجهة التي انتبذ فيها الضفيرة فلم يلفها لان الضباب كان قد غشي الافق فحجب النور عن سماء الخزانة وتمثل وقتئذٍ في اطراف المحل الذي قام فيهِ ذاك الراس المخضب بالدم كانهُ يحدجهُ بانظاره

وبينا هو في ذهولٍ تام صاحت حنة — انني رأيتها وقد مرَّت بجانبي تميس ببردها الاحمر وتميل امامي كما يميل الخيال ثم توارت عني في الحجاب

— هل تحققتِ ملامحها

— كلاَّ فان مصباحي كان قد انطفأ انما ضو القمر اسعدني على ان ارى كبدة وجهها واسترسال فرعها

فرأى بذلك ادمون لمحًا باصرًا وحق لديهِ ان حادثًا مجمعًا حدث تلك الليلة في القصر حتى ما بنفسهِ مجال للريب والظنون فقال

—اسمعي يا حبيبتي حنة . ما كنت لاصدق بالرويا او ارتاح الى الاحلام والصوَر ولكن اري في ما سمعت وما خال لديّ سرًّا مكنونًا لا بد من افتضاحه متى عاد روجه فهل تستكينين اليّ وتثقين بي

— انت تعلم يا قرة العين ان ليس لي من دونك في هذه الدنيا نصير

— اذن اجيبيني كما تجيبين اخاكِ

— لا اكتمك شيئًا

— هلاَّ أحيت تلك المرأة في خاطرك ذكرًا غير ما كان ليلة وفاة والدك

— بلى انهـا اذكرتني بقامتها ودلالها امرأة اخرى كنت التقي بها مرارًا ولكن لا اعلم اذا كانت تلك اللقيا في يقظة ام في منام

— هلاَّ رأيتها في الملهى ربما كنتِ تصادفينهـا في الشانزليزه او في المرقص

— انت تعلم يا اخي بعزلتي وانقطاعي عن كل هذه المعاهد ولم ادخل زماني الملهى الاَّ مرة واحدة

— ربما كان ذلك وانتِ على العربة او في الغاب

فاجابته حنة مترددة في جوابها — كلاَّ كلاَّ لم ارها بعينها بل فطنت الان الى اخرى كنت التقي بها مع روجه في اوقات التنزه فيحييها تحية الكرام وكانت من الحسن والجمال في اعلى مقام وقد زارني طيفها هذه الليلة بعد تلك الرويا في المنام

— هلاَّ صدفتها مرارًا بعد تلك الايام

— كلاَّ ولو رأيتها اليوم لعرفتها

— اما خطرت لكِ في هذه الايام على عربة يجرها اربعة من جياد الخيل

— اني عدلت منذ الخريف الماضي عن الذهاب الى التنزه وحدي لان روجه اثر ركب الخيل على ركوب العربة وان صبيتي ميس جورجينا تابى التنزه في زمان البرد

فامسك ادمون عن الكلام برهة لانهُ اوغل في الظلمة بعد اذ كان قد وضح لهُ نورٌ ساطع في غضون هذه المسئلة ثم قال

— احقيق لديكِ ان التي رايتها هذه الليلة هي تلك التي تراءت لكِ ليلة وفاة ابيكِ

— ان ما قلت حقيقة لا يعتورها لبس وارتياب

— اما ذكرتكِ تلك التي كنتِ تصادفينها على العربة المراة الاولى

— كلاَّ فاني لم اقابل بينهما ابدًا وجلُّ ما اذكره قديمًا ان الصبية اكثرت عني وحظرت عليَّ ذكر هذه القصة يوم كاشفتها بها

— يا للغرابة ان في الامر عجبًا

— لئن كنت تعجب يا اخي من ذلك فلأن روجه قد مات . اسفاه قد انهاض جناحي ولذ للدهر اجتياحي

فرثا ادمون لبلواها واوى لشكواها فاخذ يواسيها و يسليها بقوله

— خلِّ عنكِ يا حنة الاسى واسعديني على الجد في سبيل الوصول الى روجه

— ما الحيلة

— دعيني اعمل بما يقتضي دون بلوغ المراد واجيبيني عما اقترحهُ عليكِ

— هل درى الخدم بما كان البارحة

— انهم علموا باحتجابه ودروا بسعيي وراءه واخلاله بموافاة الوكيل في الموعد الذي ضربهُ لهُ

— لا بد لي من مقابلة الوكيل وعليكِ ان تبعدي منكِ كل قلق واضطراب ولكن اعلميني هل اطلعت ميس جورجينا على امركِ

— نعم ولكنها استخفت بمقالي وقد اخبرتك انها ممن لا يرتاح الى الرويا ولا تستكين الى حديث القلوب

ففكر سارتيلي شان من يهتم في حل معضلة بادهتهُ وكانت حنة تنظر اليهِ علها تلتمس من عينيهِ اثرًا يوقفها على وجه الحقيقة من الامر الذي التبس عليها ثم قال ادمون مناجيًا نفسهُ

— انني لا اقطع بمجيء طوبيا ليلة امس كلاَّ انهُ لم ياتِ القصر

فحاولت حنة الجواب لما وفد عليها الغلام واعلن لها رغبة الوكيل بمكاشفتها بامرٍ ذي بال

فنهض ادمون وحنة من مكانهما نهضة من هزهُ العجب عند استقبال خبر عظيم وتوقع كلاهما من هذه الزيارة وضوح المسئلة الغامضة التي اشغلت بالهما وزادت بلبالهما . فقالت حنة للغلام

— عليَّ بالوكيل وانت يا اخي ادمون البث مكانك لنعلم بما يكون من امر الرجل

فدخل الوكيل على الخزانة وكان شابًا وسيما حسن الهيبة تلوح على محياه سيما الذكاء والاستقامة يلتمس الناظر اليهِ اثر الدهاء من عينيهِ فتقدم «كالمت» الى الفتاة بكل سكينة ووقار فحياها تحية الكرام وجلس مجلسهُ في المقام . لكنَّ من تامل ذلك الرجل تامل المدقق الخبير توهم فيهِ الكآبة والغم وعرف ان وراءه خبرًا مزعجًا يحاول نشره فما استقر بهِ المقام حتى افتتح هذا الخطاب مع الفتاة

— اسالك ايتها السيدة عذرًا عن الحاجي في مقابلتك وقد شفع بي الامر الخطير الذي قدمت اليكِ من اجلهِ . كان المركيز قد ضرب لي موعدًا في هذا الصباح فوافيتهُ ولم يتسنَّ لي مرآه فعجبت من هذا الاخلال الغير المالوف وقمت اسعى وراءه فخفق مسعاي ولما كان يترتب على تلك المقابلة حل مسئلة خطيرة جئت اليك استعلم حالهُ و . . . فوقف الوكيل عند هذا الكلام ناظرًا

الى ادمون

فقالت حنة — يا خطيبي ...

فقاطعها سارتيلي وقال موجهًا الحديث الى الوكيل — انني من اعز اصدقاء المركيز دي مانسينباك واوثقهم حبًا اليهِ

فقال الوكيل — لا خفى ايها الفيكونت ان المركيز كان قد ضرب لي موعدًا هذا الصباح فوافيتهُ الساعة فلم القهُ واستبطانهُ على غير ما كنت اعهد منهُ لا سيا في يوم اشد ما كانت حاجتي اليهِ فيهِ وقد لزمهُ الوفاء بلغ جسيم كان قد استدانهُ من احد اصدقائي فصرت من جراء احتجابهِ في حيرة عظيمة لا ادري الوجه الذي اوجه اليهِ سبب تغيبه

فاجابهُ سارتيلي — انني لاعجب من دعواك على روجه وامعانك في مطالبتهِ بدين لا عهد لي بهِ فيتعذر عليَّ تصديقهُ فضلاً عن ذلك ان صديقي لم تمسهُ الحاجة اصلاً الى استدانة هذا المبلغ الجسيم وهب ان ما تدعيهِ حقيقة لا ريب فيها فما كان اولى بك ان تجتنب انزعاج شقيقتهِ في ما ليست بشيء منهُ . فقل لي ما مبلغ الدين المطلوب واعلم انني عتيد الى اداء كل ما يطالب بهِ صديقي الحميم

— ان القيمة التي تقرر دفعها اليوم في ١٢ شباط عام ١٨٤٧ قدرها خمسمائة الف فرنك

فتعجب سارتيلي من جسامة هذا المبلغ وارتاب في صحة دعوى الوكيل بدليل ان هذه القيمة قلَّ من يقوى على ادائها في تلك الايام دفعة واحدة واسند اعتقاده الى بعد روجه صديقهِ من المواقع التي تدعوهُ الى استدانتها فقال في نفسهِ . ولئن كنت لا اعلم بسيرة صديقي بوجوهها كلها فلا اجهل غناه عنها اذ لم يكن روجه ممن آلف معاهد المقامرة او تنزَّع في الغواية الى حد الاسراف . فلبث الفيكونت برهة في ذهول تام من جراء هذا الامر الغريب . وكان وجه «كاملت» في تلك الحال يسفر عن ضمير امرء حب

مصلحة روجه وشقيقته التي انزعجت جدًا من اخباره ويبدي لمن يحدق به انهُ عارف باسباب تغيب روجه المقصود ولما كان سارتيلي ممن لا تخفى عليهم خافية الوكيل تاثر منهُ ضنًا بشرف صديقهِ وشقيق خطيبتهِ فقال

— هل اعلمت روجه بيوم وقوع اجل الوفاء بدين لا اصدقهُ

— فاتني ايها الفيكونت ان اخبرك بما كان امس من امري مع سيدي روجه . انهُ استدعاني الى القصر رغبة بفض المسئلة فاوعز اليَّ ان آتيهُ صباح اليوم بالوصول معجلاً فامتثلت الامر فجئت اليهِ وقد وعدت صديقي ان استوفر حقهُ دون ان اعلمهُ بسر غيبتهِ

— لا بد ان يكون روجه قد اعلمك بمصدر المال الذي يستورده للوفاء ولا غروَ فانت وكيلهُ ومطلع على كل احوالهِ

— لا انكر يا سيدي انني كنت منذ القديم صراف آل دي مانسبنياك ووكيلهم اما الآن وقد باع سيدي روجه عقاره فاستبدلهُ بما وفى قيمتهُ قراطيس مالية فبطلت ولا بقي عنده على مالهِ . ولم يبق الاَّ القصر وما يحدق بهِ من البساتين عقارًا كتب في الوصية ارثًا للسيدة حنة

فارتبك سارتيلي في امرهِ من هذا الجواب الواضح وتخيل ان صديقهُ روجه على شفير جرف هار فاكتئب جدًا واطرق مفكرًا كانهُ ينقب في استجلاء الغامض

اما حنة لم يكن يشغلها شاغل من حال اندثار ثروة اخيها لانها لم تفقه معنى الحديث الذي دار بين الفيكونت والوكيل، بل كان قد استغرق ذهنها ما تراءى لها بالامس فكانت لا تني تكرر هذه الالفاظ — مات روجه

فشق على سارتيلي مرأى خطيبتهِ في غم شديد وحزن ما عليهِ من مزيد لا سيما انها اصبحت من جراء تغيب اخيها يتيمة لا نصير لها ولا رفيق فآلى على نفسهِ بحكم الالفة والمحبة الموثقة العرى بينهما ان يقوم لديها مقام الساعد والعضد فاستانف الخطاب مع الوكيل فقال لهُ برفقٍ

-- انت تعلم يا صاح ان حنة ليست بشيء من مال اخيها فمن الواجب اذن ان نقصر عن الكلام بحضرتها في هذا الشان لان المفاوضة بهذا الموضوع ما يزيدها قلقًا وحزنًا

فاوجب الوكيل ذلك راضخًا للاشارة . ثم اسنطرد سارتبلي حديثهُ فقال

— وما اظنك تنكر عليَّ القيام عنها في حل هذه المسئلة . ثم نظر الى حنة نظر السائل فقال

— ألا تقبلين بذلك

فنهضت الفتاة واستلمت كف الفيكونت فودعت الوكيل وانصرفت دون ان تبس بكلمة لانها كانت معتقدة كل الاعتقاد بخلوص ادمون وتفانيهِ في حب مصلحتها

فلما خلا لسارتبلي المقام قال — قد انفسح لي الآن مجال الحديث معك فاعلم ايها الوكيل ان مالي وافر وانا عتيد لوفاء ما لزم روجه وفاوه

— لله درك من كريم وصديق حميم انك بفعلك هذا تفر عرض اخيك وتذود عن حوضهِ

— ان صاحب هذا الاسم شقيق خطيبتي فما افعلهُ كان حقًا باردًا عليَّ فارجوك الآن ان تفيدني عن وجه التسوية في المسئلة

فعلت وجه الوكيل سيماء الغم من هذا الحديث فتمتم وجمجم فاضرب سارتبلي عن ذلك واستانف الكلام قبل ان يتلقى الجواب

— ألا يمكنك ان تفيدني عن الاسباب التي دعت روجه الى استدانة هذا المبلغ الجسيم

— انني اجهل ما ينوبهُ تمامًا وجلُّ ما اعرفهُ من امر المركيز انهُ قد استدان منذ خمسة اعوام مبلغًا يوازن مبلغ اليوم فاداهُ في حينهِ للدائن عينهِ

— اما كشف لك روجه عن مصدر ثروتهِ وموردها

— كلاَّ وكان يابى تعرضي بهذا المعنى فما لنا وللاسهاب كنت قد سالتني

وجه التسوية في شان الدين فعلى مَ عوَّلت

— نعم ولا التحول لانهُ كما لا يخفاك انني لا احرز المبلغ كلهُ حالاً

— فما الفائدة يا مولاي من كرمك وسخائك

— فما تعني بما قدمت

— ان الدائن الحَّ عليَّ بقبض المبلغ معجلاً دون تاجيل ولا ضمانة حتى اذا تعذر مطلوبه رفع الامر الى الحكومة

— لا اسلم بذلك وهل يجرى في استيفاء مبلغ جسيم مجرى المطالبة بقيمة سفتجة عادية

— ان في هذا الالحاح سرًّا ارتج عليَّ معناه فاخاف ان يكون وراء هذه اللجاجة اثرًا . . . آه . . . للانتقام

ففكر الفيكونت برهة ثم قال — ربما كان ما رأيت ولكن من الدائن

— رجل موسر غريب ياوي الى باريس لماماً وقد عاد اليها اخيرًا منذ شهر

— ما اسمهُ

— دي نوريف النازل في القصر المشيد على طريق دي فارين

فاستفز سارتيلي العجب عند ذكر الخبر فطار الى آخر الخزانة وهو يقول — صحيح الحق وبان ووضح لي ما اريد من البرهان . ثم انخفض قليلاً فالتقط شيئًا من الارض خفية عن الوكيل وانحدر عجلاً الى الرحبة فركب الجواد الذي كان ثم في انتظاره وغار في منحدر التروكادرو الى ان بلغ السهل فبذل المهماز في شاكلة الجواد وسار ما البرق ثم باسرع منهُ اذا لاح حتى ادهش السابلة وحيرهم في اغارته على الدحض عرضة للخطر وما زال يجد الى ان بلغ ساحة الكونكورد فتخطاها سريعًا الى رصيف التويلري وهناك اعيا الجواد السير حتى كبا بصاحبه فانهضهُ ادمون ولم ينثنِ عن سيره الى البونوف . فثنى عنان الجواد متوقلاً في نجوة المجاز ولما صار الى رحبة «الدوفين» انعطف

على الطريق الذي ينتهي بهِ قبيل دار الشرط فترجل الفيكونت دون ان يبالي بحال جواده الساقط من الانضاء ولما اراد ان يتعدى عتبة باب الدار اوقفهُ الحاجب قائلاً لهُ

— رويدك قل لي الى اين المسير

فاجابهُ سارتيلي — اريد مشافهة الزعيم

— لا يسوغ لك مشافهة الزعيم دون اذن فابن الكتاب بطلب ذلك

— انني جئت اليهِ في امرٍ ذي بال فلئن تمنعني من الدخول عليهِ كنت المسئول بالغوائل

فاضطر الحاجب عند هذا الكلام ان يجيب طلب سارتيلي فدعا احد الغلمان واشار اليهِ ان يصحبهُ الى مقام الزعيم ولما كان الفيكونت يتخطى الرواق رأى ان يعمل الفكرة في وجه الشكوى التي قدم من اجلها وكان قد التقط الضفيرة التي انتبذها عنهُ عند دخول حنة فجاء بها على يده شاهداً يؤيد جريمة دي نوريف وجنايتهُ على زوجتهِ وروجه لكنهُ تردد برهة في صحة ما رأى فخاف ان يوقع بروجه عرضاً لان حدوث الجناية في دار دي مانسينياك واختفاء صاحبها لمن القرائن الواضحة في تخطئتهِ . فحار في امرهِ وارتبك ومع ذلك كان لا بد لهُ من بيان غرض الزيارة والانتقام لشقيق حنة وما زال يفكر اثناء سيره في الامر الى ان اهتدى الى هذا الوجه فعول عليهِ فقال ابدأ ببيان تغيب المركيز فاثبت ان الراس المجذوم هو راس امرأة دي نوريف ثم انطرّق الى ذكر الدبن الجسيم الذي افتعلهُ زوجها عند روجه واضرب صفحاً عن كل ما يوهم بحدوث الجناية في قصر دي مانسينياك

فلما بلغ مقام الزعيم دخل الغلام عليهِ فدفع اليهِ رقعة الفيكونت فاعتذر الزعيم عن قبول الزيارة وحوّل الامر الى رئيس الضابطة . فلم يبالِ سارتيلي بهذا الاباء وكان جلّ ما برومهُ ان يبث الشكوى لدى من لهُ حق سماعها فانحدر من الدرج يريد مقام رئيس الضابطة فتقدمهُ الغلام اليهِ ليعلن لهُ اسمهُ وشهرتهُ

فاجاب الرئيس الطلب فدخل سارنيلي عليهِ فعرفهُ للحال وهو الرئيس الذي كان اتى ليلاً من سانكلو الى محل الحادثة وكان لم يزل يسطر امامهُ تفصيل ما وقع لهُ . وعندما مثل الفيكونت بحضرة الزعيم رفع الحافظة اليهِ وقال

— انك قدمت لوفق الامر وقد كنت عزمت على ان ابعث بطلبك وطلب البارون بولار والموسيو فرزولي تقريرًا للشهادة التي اوجبتها عليكم وما اظنها كافية لاتهام الجاني النادّ وقد يتعذر علينا الاهتداء اليهِ

— اني ارفع عليك اسمهُ

— تفضل عليَّ بهِ

— ان ذاك الراس هو راس امرأة جنى عليها زوجها دي نور يغ النازل في محلة « فارين » عدد ١٢٣

فلما سمع الرئيس ذكر هذا الاسم بلهجة بينة اخذتهُ الدهشة فقال

— أهو ذلك الميسور الغريب

— هو بعينهِ وكل من ينتاب الشانزليزه يعرف المرأة

فقال لهُ الرئيس — لا بد ان يكون لهذه الدعوى اوراق فاطن الجرس فوافاه الكاتب فدفع اليهِ رقعة وانصرف ثم استانف حديثهُ مع الفيكونت فقال لهُ

— ارجوك الآن ان تكشف لي عن الوجه الذي بنيت عليهِ شكواك

— ان هذا الرجل قد جنى ايضًا على صديقي المركيز روجه دي مانسبنياك الذي تغيب في هذا الليل غيرة منهُ على زوجتهِ لانهُ كان كلفًا بها

فحدق بهِ الرئيس وتاملهُ جيدًا استجلاء لحقيقة الخبر وبينا هو يفكر في الامر عاد اليهِ الكاتب وبيده رقعة مكتوبة بخط دقيق . فصرف الرئيس النظر اليهِ وقال بصوت ضعيف

— ان البينات واضحة وهذه قرينة لا مراء فيها فان اسم دي مانسبنياك قد علق عليها عام ١٨٢٤

واعقب هذا البيان سكون ثم استانف الرئيس السوال فقال

— أأنت عتيد الى اشهار ما قررتهُ هنا بحضرة المحكمة

— نعم

— فعليهِ اذهب يا جوترا وعد بعربة لي وللفيكونت ثم انزل انت وثلاثة من الثقاف في عربة اخرى تتبعنا على الاثر واجعل ان يكون رفقاؤك من ذوي العزم والباس فليتجهزوا بما امكن من وسائل الدفاع عند مسيس الحاجة

ثم وجه الخطاب الى رئيس الشرط القائم في سانكلو فقال لهُ — وانت يا اخي البث هنا الى ان اعود فاطالبك ببعض ما احتاج اليهِ من التفاصيل في هذا الشان . وعقيب ان فرغ من الكلام مع رجالهِ التفت الى سارتيلي فقال لهُ

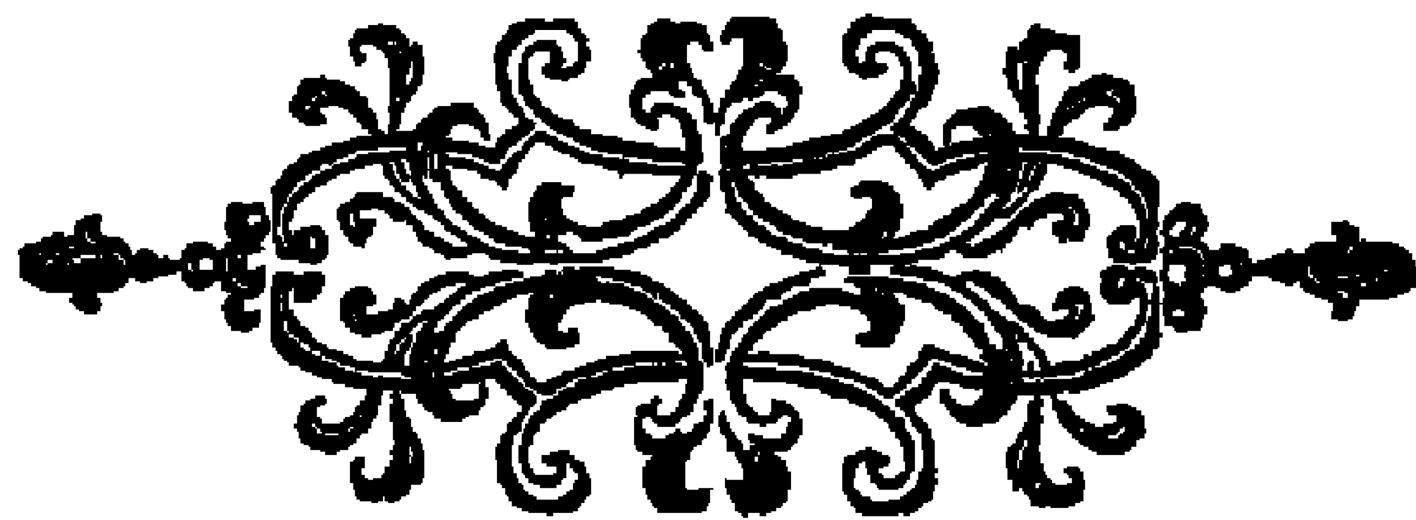
— هلمَّ بنا يا صاح

فاعترضهُ سارتيلي قائلاً — ما الفائدة من ذهابي معك

— لا بد لي من السير بهدايتك الى ادراك اثر الجاني الغريب

— الى اين المسير الآن

— الى دار كريستيان فالدمار دي نوريف الاسوجي قصد القاء القبض عليهِ بدعوى انهُ جاسوس دخل البلاد ليخم الاخبار السياسية وقد جاءتهُ شكواك باغتيال زوجتهِ شرًّا على شرّ



الفصل الثالث

أهذه هي

بينا هما على الطريق استغرقت سارتيلي الافكار وتنازعتهُ الخواطر في اشتباه وجوه الحادثة التي دفعتهُ من المرقص الى دار الثقاف

كان الرجل ذا اخلاق متباينة واهواء متضاربة تارة يرى الهوى فيتحاشاه وطورًا يمر بهِ فيغشاه وقسرًا عما سام نفسهُ من التهور في سيرتهِ الماضية كانت عواطف قلبهِ لم تزل في منعة لاتعبث بها ايدي الابتذال فبلغ منهُ حب حنة حد التلف وبعث في قلبهِ هواها عاطفة نقية تلهمت بها مهجته شيئًا فشيئًا

لما كان هذا الفيكونت المتلهي يجلس مرارًا الى روجه في قصره فينفص عليهِ نوادره ونكاته ارتاه حسن شقيقة صديقه فتيمهُ واصباه جمالها فتهيمهُ . فعدل عن سيرتهِ القديمة وجعل الاقتران بالفتاة قبلته . فراح يتحرى الفرص ليكشف لها عن غرامهِ وسهده ويبثها ما لقيهُ من هيامهِ ووجده . وما زال يرقب ويسعى الى ان اتاه الزمان تلك الليلة بالفرج من عنده فلاح لهُ وميض الامل يفتر عن ثغور الاماني فقام يجد في خلاص شقيق حنة حتى اذا قصر عنهُ راح للاخذ بثاره ولكن في سبيل اشتبهت عليهِ فيهِ طرق الهداية . لانهُ عندما اقبل على دار الشرطة ولقي فيها ما لقي من الرسوم التي يتكلفها الشاكي قبل القاء القبض على غريمه ضعفت عزيمته وقلت حيلته لا سيما عقيب ان تاكد وهن الحجة التي حمل بها عليهِ . فقال في نفسهِ . لقد ضللت السبيل في ما اتيت

واخطأت الغرض بما رمت . ان روجه لم يطلعني ابدً على حسابهِ ومعاملاته المالية فربما كان قد استدان هذا المبلغ الجسيم من دي نوريف فيكون قد اوقعني في غوائل امره ولا بد ان يكون انحجابه الخفي ناشئاً عن نزاع اهلي افضى الى الاجحاف بشرف شقيقته والغض من سمعتها

ولما كانت العربة تتقدم في جريها على الرصيف كان سارتيلي يزداد ارتباكاً اما رفيقهُ فكان ساكن البال مطمئن الفؤاد لا يزعجهُ من لامر مزعج وكان المارّون اذا نظروا اليهِ لم يخطر لهم استجلاء الغرض من مسيره وكان ينظر الرئيس حيناً بعد حين خزراً الى رفيقهِ حتى ادرك اضطراب نفسه وايقن للحال انهُ قد فاز بما كان يتمناه من الوقوف على اسباب الحادثة وما لبث ان بادره بهذا السوال فاقلقهُ

— هل لك معرفة قديمة بدي نوريف

فما سمع سارتيلي هذا السوال حتى اشتبكت الخواطر في ذهنهِ فاضطرتهُ الى الجواب بما يكشف لسائلهِ عن الاضطراب الذي كان يتقسمهُ فقال

— ان معرفتي بهِ كمعرفة سائر الناس الذين ينتابون الغاب والملاهي ولا علاقة محكمة بيننا

— هل يعرفك ايضاً

— انني لا استطيع ان اقطع بصحة ذلك

وهنا سارتيلي ندم على تعرضهِ للسوال فلم يخفَ عن ناظر سائلهِ انزعاجه فامعن في البحث بكل سكينة فقال

— انت تعلم ايها الفيكونت ان غرضي من البحث والتنقيب ادراك الحقيقة والوقوف على اثر الجاني فالرجاء ان تفيدني صراحة عن كل ما اقترحه عليك واطالبك بهِ فان الرسم الذي اختطتهُ لنفسي يختلف باختلاف تقريرك فقل لي اذن ولا تماري بمعرفتك بالرجل

فاحنى رأسهُ سارتيلي واجماً . فاستانف الرئيس خطابهُ قائلاً

— لا يغرب عن ذهنك ايها الفيكونت ان الحاجي في استجلاء الغامض من هذه المسئلة تدعوني اليهِ اسباب شتى اهمها الوصول الى الغرض من شكواك فان لديَّ اوراقًا عن دي نوريف بحاكي حديثك عنهُ بعض ما جاء فيها فاحب ان اثبت كلامك امامي للمقارنة فضلاً عن ذلك انني اتحرى في مفاوضتي معهُ استنباط اسراره والاهتداء الى ما يتعذر على الشهود هدايتي اليهِ

فصوَّب الفيكونت رأيهُ وقال — هاتِ ايها الرئيس ما تامر بهِ

— انني ادخل دار دي نوريف باسمك فاذا استقبلنا رجل آخر عليك ان تنبهني اليهِ والاَّ كان لي وحدي المفاوضة معهُ

فتعجب سارتيلي من هذا التحذير فشعر بهِ الرئيس فقال لهُ

— اراك في ارتباك من الامر فلا تجزع وسوف تعلم غرضي منهُ والفائدة

فكانت العربة قد بلغت وقتئذٍ عند زاوية ساحة الانفاليد فطوتها واطل ثم الرئيس من نافذة العربة ليتحقق سير رفاقهِ ثم استوى في مكانهِ وقال

— ان لديَّ رجالاً حاذقين مجربين في المهمات ولا سيما «جوترا» فان هذا الثقاف قعد مقعد السائق قصد ان يتبين سيرنا فيجري على الاثر حسب الامر

— هل من عزمك ان تدخلا معًا القصر

فتبسم الرئيس وقال — كلاَّ لان بغيتي ان ابادههُ بنفسي

— خلتك تريد القاء القبض عليهِ

— كلاَّ يقتضي علينا باديء بدء ان نستنطقهُ دون ان نكشف لهُ عن الغرض من الزيارة . وفي السؤال الوقوف على حقيقة الحال . حتى اذا تبين لي وجه الاثم امرت الشرط ان تحدق بالقصر فتسد دونهُ وجوه الخلاص والفرار

فامسك سارتيلي عن الكلام برهة خاض بافكارهِ فيها ظلمات المستقبل والعربة تطوي طريق الانفاليد القفرطي السجل الى ان تبدَّت لهُ عن يساره

اسوار حديقــة قصر دي نوريف تمتد الى زاوية محلة « فارن » فلما دنت الساعة اهتز سارتيلي وقلق اما رفيقهُ فكان يبعث انظاره في اطراف القصر وارجائهِ علهُ يلتمس اثرًا نافعًا . واذا بقطارٍ من العربات يجري امامها وسط الطريق وكان بجانبها عن اليسار رجل خلق الثياب يهرول في مشيتهِ وما كان ليبالي بهِ المارون لحقارة قدره اما الرئيس فانبعهُ النظر على الاثر لم يلوِ عنهُ حتى شعر سارتيلي باهتمامهِ وعنايته فصوب انظاره ايضًا اليهِ وما كادت تصيبهُ حتى اصابهُ منها هزة شديدة فقال اخالني قد عرفت زي هذا الرجل وتوسمت هيئتهُ ولكن لا اتذكر المكان الذي يتسنى لي فيهِ معرفتهُ . فطفق ينبه الحافظة ويتروى في الامر الى ان اخذ الرجل في طريق فارن وعطف عند زاويةِ السور . و بالرغم من سرعة سيرهِ لاح للفيكونت صفحة خدّه فتنبه . فصاح هذا هو

فسالهُ الرئيس — من الرجل

— صاحب القفة حليف دي نوريف وزميلهُ فاخالهُ يجد للدخول عنده فنهيا بنا للقبض عليهِ

— دعهُ يدخل القصر على هواه وهناك نبادهما معًا فنقف منهما على التفاصيل الوافية بمقصدنا

فاضطر سارتيلي الى تصديق رأي الرئيس والرضوخ الى اشارتهِ لكنهُ ما لبث يستهم نفسهُ للاسراع اليهِ وقد حدثتهُ بانجذابه شانهُ من قبل . ولما عطف على زاويةِ طريق محلة الاعيان لم يتمالك نفسهُ الفيكونت عن اظهار الحدّة والغيظ من خفوق مسعاه لان الطريق ينبسط مدى بصره قفرًا لا حيَّ فيهِ فقال لابد ان يكون الغريم قد فرَّ ولم يدخل القصر

ولما بلغت بهما العربة باب الحديقة نظر سارتيلي الى الرئيس نظرَ الواجد عليهِ فقال الرئيس اننا ندخل الآن من ذلك الباب الاخضر والطيور على ما يبان لي انها لم تزل في اوكارها فما كاد ينفس بالجرس حتى سمع صوت

عربة وقفت ثم في ساحة الانفاليد فقال الرئيس همسًا . ان رجالنا اقبلوا وسياخذ كل منهم مكانهُ قبل ان ندخل القصر

فاعترضهُ سارتيلي قائلاً — اخاف ان تتعذر علينا مخارج القصر

— لا باس فان جوترا ممن لا يلتبس عليهِ شيء وقد ابتلي الامر قديمًا وعرف من اين يوافيهِ

وبينا هما يتحدثان فتح الباب وطلع عليهما الحاجب وكان طويل القامة وسيم الوجه فابتدره الرئيس بهذا الكلام

— دونك هذه الرقعة الى سيدك

وعقيب ان تاملها البواب جيدًا دعاهما الى رفقتهِ فاوقفهما عند قاعدة الدرج حيث عهد بادخالهما القصر الى غلامين كانا واقفين ثم عند الباب

ان القصر كان من الآثار المشهورة بحسن بنائها واتقانها على عهد لويس الخامس عشر تحف بهِ الاشجار من كل جانب ويشهد ظاهر القصر وباديهِ برفعة مقام ساكنيهِ

اما سارتيلي فاعجب باقدام رفيقهِ وثبات جاشهِ عند الدخول الى حد انهُ ذهل عما كان اضمر في نفسهِ من الحقد عليهِ وصار يرغب في ان يستجلي منهُ قبل عود الغلام الحيلة التي دبرها لابتلاء سر دي نوريف لكن انظار الرئيس كانت تشير اليهِ ان يلزم السكوت وينتظر النتيجة في حينها

ولم يكن الا برهة حتى دخل عليهما حاجب حسن البزة في عنقهِ سلسلة من ذهب فدعاهما الى الدخول معهُ فقاما يتبعانهِ على الاثر في رواق ممتد الاطراف تالقت جوانبه بالازهار البديعة وما لبثا ان وقف بهما عند باب حديقةٍ شتوية

وكان يتخطى بين ازهارها النابتة رجل عليهِ حلة شرقية تحكي لونها الاخضر خضرة الاعشاب البحرية فلما سمع وقع الخطا وقف ومال بوجههِ وجهتهُ . فاصابتهُ اشعة الشمس فكشفت عن ملامحهِ كلها للناظرين . وكان الرجل اسمر اللون ابيض شعر الراس والعارضين مجعد اسرة الجبين براق العينين يحكي

بشطاط قوامو عن قدرة غريبة وقوة عجيبة

فعندما وقف بهِ ادمون عرفهُ للحال فاوماً بطرفهِ الى الرئيس يريد المطلوب . فاجال دي نوريف النظر في هيئة زائريهِ دون ان يبادههما بكلمة وكان سارتيلي ينتظر جازعًا افتتاح الخطاب الى ان قال دي نوريف موجهًا الخطاب الى سارتيلي

— أأنت هو الرجل الذي قدم من موسكو

فاهتز الفيكونت عند سماع هذا السوال من فم كان قد سمع قديمًا لهجتهُ الشديدة

فاجابهُ الرئيس بكل رزانة — انا هو الرجل الذي كان مسيري من موسكو عن طريق فينّا

— فمن يكون اذن رفيقك

— هو صديق لي قدعزم السفر غدًا الى الروسية فكلفتهُ صحبتي قصد ان احملهُ تقريري اليها فتكلم بحضرتهِ وكن آمنًا

— احسنت وما حاجتك اليَّ

— جئتك طالبًا باسم اللجنة ان تجلو لي سر العلائق المبرمة بينك وبين دي مانسينياك الرجل الفرنسوي الاجنبي عنك

فاهتز دي نوريف عند سماع هذا الاسم هزة عالجها للحال ولكن لم تخفَ حركاتها على الرئيس فضلاً عن تبدّل وجههِ بالغضب والاستخفاف والدهشة والقلق في وقتٍ معًا فقال

— تلك علائق خاصة بي لا جدوى للغير منها . وان الاسباب التي مدت بيننا كانت من مالي الخاص ايضًا

— ان اللجنة تطالبك ببيانها

فاجابهُ دي نوريف وقد اخذت منهُ الحدة ماخذًا عظيمًا — ليس زعمها بشيء . ثم استكن اليهِ وقال - ليس للناس ان تتداخل في سيرتي الخاصة ولكن

لما كانت اسراري واضحة لا بغية لي في كتمانها كشفتها لك فاقول . انني ادنت دي مانسينياك مرارًا مبالغ جسيمة ولا يلبث حتى الآن مديوني بمبلغ قيمته نصف مليون لزمة اداوه اليوم

— أما استوفر عليك حقك .

— كلاّ واخاف ان يذهب مالي ضياعًا . ذلك بياني اوضحته لديك وذلك كل الخبر

وكان كلام دي نوريف يشف عن ملل ادركه من تلك الزيارة فخاف الفيكونت ان يحبط المسعى ولكنهُ ما عتم ان سكن باله وزال خوفه عندما رأى رفيقهُ قد تقمص جسمًا جديدًا ومال خلقهُ الى الخبث والدهاء فقال مستخفًا

— ان حديثنا كان غامضًا واني آسف لعجزي عن ادراكهِ . فان الآثار التي اسمعتنيها عن مانسينياك هي دون ما كنت آمل ان اعلمهُ منك وقد جئتك عمدًا لاستطلع طلع امره

فاحتدم دي نوريف غيظًا وقال — مالي اراك تتقلب في افكارك وتتحوّل في طلب غرضك من سبيل الى سبيل . كنت اسمعتني من قبل انك قادم من موسكو والآن تلح عليّ في استنباط سري في شان دي مانسينياك فلمَّ هذا التضارب وذاك التقلب لعلك خائن او ممازح . فمن انت وممن انت

— ساعلمك بحالي ولكن قبل ان اطلعك على جلية امرى افيدك ان دي مانسينياك قتل البارحة فلن تستنض اذن حقك منهُ واخالني قد عرفت القاتل

فاستخف الغضب دي نوريف حتى حملهُ على الايقاع بمناظره لولا ان الحكمة امسكت بهِ ثم عن عزمهِ فسكن غضبهُ وقال

— ما انت الاَّ جاسوس وهيهات ان تفوز بغرضك مني

— انا زعيم الراحة العمومية وما كنت احسبك يا دي نوريف ترهب

سطوني . لقد صدقت في ما قلت ان لا شان لي في العصبة السياسية التي انتظمت انت في سلكها

فزاد غضب الرجل الغريب وقال – فلنقصر امد الزيارة ولنقتصر من الحديث على الجواب عن هذا السوال

— ما حاجتك عندي

— ان تتبعني الى دار الشرطة حيث يتسنى لك الحديث على هواك

— ما لك وللاسهاب قل لي ان المراد القاء القبض عليك

— انت قلت

— انطمعان ايها الجريئان بالخروج من هنا وفي صدركما رمق

— كيف لا وقد احدقت العساكر بالقصر تنتظر مني اشارة للوثوب عليه فلا تكلفني الى القوة والعنف

فوجم دي نوريف برهة ثم قال

— لا باس اني اسير برفقتك ولكن لآخذ بحقي منك على جراءتك وقحتك وقبل ان افصل من هنا قل لي ما البينة التي تدعم بها شكواك مني وما هي الاسباب التي تحملك على القاء القبض عليَّ

— ان علائقك المبرمة مع دي مانسينياك تطالبك لدى الحكومة من اجل تغيبه

— ألعلي قاتلة ومن الشاكي عليَّ زورًا

فاجابهُ سارتيلي وكان لم يزل منذ وقف به ناظرًا اليهِ نظرة المتامل — انا هو الشاكي انا الفيكونت دي سارتيلي صديق القتيل

— لا ريب ان كلامكما هذيان لا يعتد به فكيف تعزوان اليَّ جريمة حدثت امس على حين لم ابرح من مكاني الليل كلهُ

— ان زميلك قد دخل القصر من باب الحديقة الاخضر المشرع الى طريق « فارن »

— يتبين لي من حديثك ان سلسلة مآثي طويلة وقد اصبحت كالحلقة المفرغة لا يدري اين طرفاها

— انت قلت فلم نتهِ بعدُ من حديثنا عنك

— فبمَ أتهم ايضاً

— بقتل امرأة

— واية امرأة تريد

— تلك الجميلة التي كنت تطوف بها باريس على مرأى الناس على انها ليست زوجتك بل اتخذتها خليلة ترسلها في تنفيذ مآربك

فضحك دي نوريف من هذا الكلام حتى استلقى ثم اطنَّ الجرس وجلس على متكإٍ كان هناك هازئاً ضاحكاً . فاقبل عليهِ الغلام فامره دي نوريف ان يذهب فيدعو زوجتهُ لتوافيهِ حيث يقيم

من لنا بوصف حال سارتيلي وما نزل بهِ من القلق والارتباك حالما سمع دي نوريف يدعو امرأتهُ اليهِ . انهُ لم يكن يخطر لهُ ذلك فخاف ان تسقط دعواه وتنقلب التهمة عليهِ فيخزى ويخزل فهجس في نفسهِ قائلاً — ماذا يحلُّ بي اذا تبين الزعيم الامر فقضى ببهتاني وتحاملي زوراً على دي نوريف وبينا كان يناجي نفسهُ مضطرباً كئيباً شعر بلكزة خفيفة نبهتهُ الى انكارها هواجسهُ وكأن بعيون الزعيم تحدثهُ قائلة . لا تصدق كل ما تسمع فان الخبر مكذوب فيهِ . وما ذلك الاَّ حيلة يلتمس بها الفرار . فسري عن فؤاد سارتيلي وثلج صدره اما الاجنبي فلبث على حالٍ واحدة يتضاحك ويصفر مقلباً الزهر بيده عابثاً بما بدا ويبدو لديهِ من الاحاديث والاوهام ناظراً الى زائريهِ حيناً بعد حين نظر المستخف بشأنهم الساخر منهم

وبينا هم على هذه الحال سمع في الرواق وقع اقدام فحوَّل الرئيس ابصاره الى رفيقهِ كأن بهِ يقول . تحقق شخص القادم الينا فطابت نفس سارتيلي اذ عرف ايضاً الغرض من حديث الزعيم حيث قال « واذا استقبلنا رجل آخر عليك

بان تنبهني اليهِ وتدلني عليهِ » فهيأ نفسهُ لدحض الاباطيل وإزالة الاضاليل فقال في ذاتهِ . ربما يزعم نوريف ان لا معرفة لي بالمرأة التي كان يجلس الى جانبها على العربة في غاب بولونيا والشانزليزه فيقدم لنا اخرى من طينتهِ . كلاَّ انهُ لا يضلني ولا يغرني وقبل ان ينتهي من نجواه فتح الباب وطلع منهُ رجل عليهِ حلة سوداء قد وخط الشيب عارضيهِ ودلت ظواهره على شانهِ لدى دي نوريف فحيا الحاضرين الكرام ثم دنا من دي نوريف وخاطبهُ بلغة اجنبية

فاعترضهُ سيده قائلاً — تكلم بالفرنسوية يا كارل لان هذين الزائرين يرغبان في استماع حديثك

— لا باس فليكمل حديثهُ بالالمانية فانني عارف بها

— ذلك خيرٌ لي فقد خففت عني اثقال الترجمة

— لا حاجة الى ذالك فقد علمنا مرامهُ وفهمنا كلامهُ يريد ان يبلغنا خبر تغيب السيدة عن القصر

فاجابهُ الغلام ان سيدتي خرجت الى الغاب ترويحًا للنفس وستعود عند الساعة الرابعة لاستقبال البارونة امستين

عقيب ان تلقى الزعيم الخبر امسك عن الكلام فامر دي نوريف القيِّم ان ينصرف فانطلق يمشي القهقرى فاتبعهُ سارتيلي ابصاره مدهوشًا من مرآه كان بهِ شخصًا تراءى لهُ قديمًا فرسخ رسمهُ في خلده لكنهُ لم يستطع ان يبوح بشيء مما هجس بهِ خيفة ان يتهور في اوهامهِ واهوائهِ وبينا هو يفكر في وجه المقابلة بين الرؤيا التي رآها من قبل والتي لاحت لهُ الان نبههُ صوت رفيقهِ يخاطب دي نوريف قائلاً لهُ

— يسوءني ان اعلم بانصراف زوجتك من القصر دون قرين

— وما الداعي لاستيائك

— اخاف اذا استبطاتها ان اعدها من عالم الغيب او ظلمات العدم

فنظر عندئذٍ الاجنبي المسيور الى ساعتهِ وقال — امهلني الى نصف ساعة

فآتيك بالبرهان

— لقد طال بي المطال حتى ما بالنفس احتمال فدع البرهان وخلِّ الحجج في امرٍ استقبلته بكل وجوهٍ فضلاً عن ذلك انني مارست الزمان وطاعنت الايام ففزت منها بعلم يكفيني الخيبة في كل عملٍ قدمت عليهِ فلا يغرنك توسلي اليك باللطف والرقة فما كان ذلك مني الاّ حيلة دخلت بها عليك فعرفت ما التمست معرفته منك فاتبعني الآن دون اعتراض واياك المخاتلة فانها ليست من دأب رجلٍ ياتي بمثل ما انيت من الاعمال

فاثرت هذه الالفاظ في فؤاد دي نوريف ووقعت فيهِ موقع السهام فاكمد وجهه وتجلد ثم قال

— لا جامعة بين الاعمال التي آتيها والتهم التي توقعني بها

— لا انكر عليك ذلك

ثم استانف دي نوريف الحديث فقال — كان لي ان ارجع في امري الى السفارة فاطالبها بحق الدفاع عن حقوقي ولكن ابيت الاّ ان انتصل بنفسي من غوائل التهم التي رميتماني بها

— ذلك دأب الرجال في كل حال

— لا اطلب اليك مشورة او ثناء فما لك وما لي قل لي الان الى اين المسير

— ان العربة بانتظارنا عند الباب الى دار الشرطة

— لا باس شرط ان يصحبنا رفيقك اليها فيرمي ثم بما لديهِ من سهام الظنون والتهم

فغضب سارتيلي حتى كاد يتميز من التعريض بهِ فاسكته الرئيس باشارة منه ودعا الميسور ان يلبي الدعوة عجلاً الى دار الحكومة . فاطن دي نوريف الجرس قائلاً للرئيس

— ارجوك ان تمهلني ريثما ابدل ثيابي

— لك ذلك على مرأى مني وإياك ان تطلع خدمك على ما يجري بيننا

— لا مندوحة لي عن مكاشفتهم في امر زوجتي

فتضاحك الزعيم وقال مستخفًا به — ان المستنطق اذا اتى عشيا الى القصر كان له ان يقابل زوجتك فيتعرف بها ويحققها

فلم يوبه المتهم بهذا الكلام وضرب عن كل ما سمعهُ صفحًا كانهُ يريد ان يخلو بنفسهِ ليناجيها بسرٍّ جديد ولم يكن الا برهة حتى اشرق وجههُ وابرقت عيناه فخيل لناظره انهُ بمعزلٍ عما دار عليهِ من الظنون والاحاديث وبينا هم على هذه الحال علت ضجة عربة تجري سراعًا في ساحة الانفاليد فاصغى الزعيم اليها وارتاع سارتيلي من قيامهِ وسط الرواق فحدثهُ قلبهُ عن قدوم العربة حديثًا مهمًا فما زالت تجري جريها الى ان عطفت على الطريق المؤدي الى باب الحديقة حيث وقفت ونادى الراكب بالبواب — افتح الباب

وكان ذاك الزائر راكبًا في عربة يجرها جوادان من انجب الخيل ويسوقها رجل عليهِ حلة تشف عن سمو مقام سيده

فلما وقفت الحركة نهض دي نوريف وقد تقلصت شفتاه عن ثغرٍ يفترّ مكرًا ورياء فاراد النافذة المطلة على رحبةٍ ففتحها وقام في اثره الزعيم وسارتيلي يتوقع كل منهما حدوث حادث غريب

عندما سمع البواب صوت الطارق قام الى الباب ففتحهُ فدخلت العربة تتخطى الرحبة الى ان وقفت عند درج القصر . وكان الراكب امرأة متجاة على حشايا العربة وقد تدثرت بدثارٍ من الصوف الناعم وما لبثت ان اطلت من ثغرة العربة لجهة الحديقة فلاح لسارتيلي وجهٌ حاكى لون البهار وفرع كانهُ اسلاك من نضار ثم ترجلت وصعدت الدرج فسمع من ورائها قائل يقول

— لقد صح الخبر فها ان مدام دي نوريف اتت لوفق الساعة

وكان سارتيلي يلحظها بعيون تقدح شرار الغيظ والحنق فقال عندئذٍ دي نوريف

— ايرغب الزائران ان توافيهما مدام دي نوريف تلك التي اتهمت بقتلها

. فاجابهُ الزعيم — نعم ولا بد لي من مكاشفتها لكننا نوءثر الوقوف في الردهة حيث نجالسها مليًا ونكفيها موءنة الجهد في المجيء الى هنا

— لا باس اذا اقبلت الينا

فما كادا يتمان هذا الكلام حتى سمع في الرواق وقع اقدام جارٍ متئدٍ في سيره فانذهل الفيكونت وحار في امره فنظر الى رفيقهِ يلتمس منهُ خبرًا يسرّي عنهُ بعض ما لقيهُ من هذه المفاجأة فتوسم فيهِ الشك والريب فامسك عن الكلام اما الزعيم فكان قد داخلهُ الحذر من التهور في مسئلة توفرت عليهِ غوائلها فقام ينتظر قدوم المرأة ليقابل بينها وبين ما لديهِ من الاثار فيقف منها على وجهٍ بيّنٍ في مهمتهِ

فقال سارتيلي في نفسهِ — ترى أهذه هي

وقد كانت المرأة قد بلغت حدود الحديقة الغناء فجازت وسطهـا تفرج بايديها الاغصان الزاهرة وما زالت تتقدم فتتكشف ملامحها للفيكونت جليًا شيئًا فشيئًا حتى حقق لديهِ انها هي تلك المرأة الحسناء التي كانت تمرّ بهِ في الشانزليزه وان رأسها هو شبه ذاك الراس المبتور بلون وجههِ وفرعهِ فتعجب وقال

— يا للغرابة أنُشِر الميت ان في ذلك لعجبًا

فتباكم الكل عند هذا المشهد وشخصت ابصارهم المرأة شان الذاهل عن عالم الوجود اما دي نوريف فتهلل وجههُ بشرًا لفوزه وظفره بالمراد فراح ينقل ابصاره متاملاً حال زائريهِ الحائرين وكان سارتيلي يبان كانهُ يحاول جهده الخروج من حيرتهِ تحت انظار الزعيم المحدقة بهِ فيتعذر عليهِ ذلك لوضوح البرهان

فما استقر بالمرأة العجيبة المقام حتى افتتحت الخطاب بلهجة كانت اوقع في

النفس من رنات المثاني واخف على الفواد من حديث الاماني . فاجابها دي نوريف بجمل منقطعة يستفاد من سرعة سردها انهُ ينهي اليها بامرٍ ذي بال

فقطب اذ ذاك الزعيم وجههُ وقال همسًا — ان هذه اللغة ليست المانية

اما الفيكونت فكان في ذهول تام يصغى الى الكلام ولا يفهم المرام

وعقيب ان فرغ دي نوريف من الحديث مع زوجتهِ قال مخاطبًا زائريهِ

— ان امرأتي اعتادت محادثتي باللغة الروسية على انها لا تجهل الافرنسية فاذا رغبت ايها الزعيم في مكاشفتها بامرٍ ما فلك ذلك دون باعث —

— لا ارى حاجة الى ذلك ثم هجس ببالهِ قائلاً . لا سيما وقد نبهها بحديثهِ المبهم الى الغرض من زيارتنا فكان الاجدر بي ان اصحب معي جوترا المتكلم بلغات شتى

فسالهُ دي نويف مطمئنًا — هلاَّ تحققت الان نزاهتي وبعدي من جريمة القتل

فوجم الرئيس وحوَّل نظره الى رفيقهِ يلتمس منهُ دليلاً على معنى الجواب فالفاه في حال من القلق والارتباك لا يحيط بها قلم واصف . وكان العرق البارد يتحلب من جبينهِ وفرائصهُ تنبض هلعًا من غوائل المسئلة التي تورط فيها فكف الزعيم نظرهِ عنهُ اضطرارًا قانعًا بما رآه من اضطراب حالهِ للاضراب عن الجواب وكان بهِ يقول . لقد ضللت السبيل وتاه الدليل

لكنَّ الزعيم لما كان حاذقًا خبيرًا بفصل المعضلات وحل المشكلات كان قد دبر الحيلة في النجاة من هذه الورطة منذ دخلت المرأة عليهِ فقال في نفسهِ ان دخولي على دي نوريف وتعرضي لهُ بالبحث عن مسئلة القتل لا يعد اجحافًا بالحقوق وانتهاكًا للحرم . فان للشرطة حق البحث عن الجناية حيثما وقعت الشبهة ولا غروَ فان علائق دي نوريف مع دي مانسينياك كانت تشفع بتداخلي في هذه المسئلة وتمهد لي سبيل التنصل من كل تبعة ومعتبة . فالاولى بي ان انزاح عن الدار خائبًا عقيب ان تاكدت حقيقة المرأة فاعود اليهـــا

بعد ئذٍ بطريقة اقصد واوضح ما قصدت

ولما تبين له اصابة رأيهِ نظر الى دي نوريف فقال له

— ان الادلة التي وضحت لي اسفرت عن خطاءٍ فرط مني لديك فانا انصرف الآن عنك متاكدًا نزاهتك

اما سارتيلي فلم يبرح من مكانهِ ناظرًا الى تلك المرأة الحسناء متوسما فيها كلما تقدمت لديهِ اثرًا عجيبًا متذكرًا ما قالتهُ عنها حنة في الرويا التي تراءت لها اذ كانت صغيرة . ترى ما الذي نبههُ الى رويا حنة يوم وفاة ابيها ولم يذكره بالرويا التي تراءت لها حديثًا . فقال سارتيلي . رباه ما هذه الحيرة التي وقعت فيها انني ارى سبب العجب مرأى العين فيتعذر عليَّ بيانهُ . وما زال يحدق النظر في هذه المرأة الى ان لاح له سر خفي جلا له عن خلافٍ بيّن في الصورتين فانهُ تاكد عن قرب تضارب الملامح وكبر السن وكمدة اللون وغور المحاجر وزرقة الصدغين وغير ذلك من الخلاف الذي لم يتبينهُ عن بعد فقال مدهوشًا . كلاً ثم كلاً ان هذه المرأة ليست تلك التي كانت تمر في الشانزليزه والتي رأيتها في المرقص بل الرأس المقطوع هو راسها . ثم اجال النظر فيها مرةً اخرى مدققًا وقال في نفسهِ . اذا تشابهتا في الشكل والصورة اختلفتا في العمر

وبينا هو من نجواه في حيرةٍ واندهال . سألت المرأة دي نوريف باللغة الافرنسية قائلةً

— ممن هولاء

فاجابها مشيرًا الى الزعيم — اما هذا الرجل فزعيم الشرط واما ذاك فمن عامة الناس قد جاء في خدمتهِ

فامتعض الفيكونت من كلام دي نوريف وغضب جدًا فاراد ان يرده عليهِ فقاطعتهُ المرأة بحديثها قائلة

— ما اسم الرجل . تعني بسوالها عن الفيكونت

فاجابها الفيكونت معترضًا — ما لكِ ومعرفة اسمي انا صديق المركيز دي مانسبنياك وقد جئت للبحث عن قاتليه

واذ اراد الفيكونت الانصراف نظر الى المرأة ايضًا فادهشهُ تبدل وجهها بالاصفرار الشديد وتكسير جفونها وتقلص شفتيها . فاعترضتهُ دون مسيره بقولها لهُ

—انني عرفت المركيز ادمار دي مانسبنياك في سفري الاول الى فرنسا ولكن اظنهُ قد مات

— نعم وقد ضم ولده اليهِ ليلة امس وانا اليوم اطالب بثاره

ولما خاف الزعيم ان يطول بينهما الجدال الى حد القتال طلب الانصراف بكل دعة فتبعهُ سارتيلي الى الطريق ذاهلاً حائرًا لا يدري من الدهشة والعجب بموضعهِ منهُ

وكانت العربة لم تزل في انتظارها وعلى مسافة منها عربة اخرى خالية كانت واقفة عند زاوية محلة فارن

وقبل ان يركبا العربة نظر الزعيم الى سارتيلي فقال لهُ — تعال يا اخي فنقابل جوترا قبل الذهاب

فسار كلاهما عند حد سور الحديقة الى ان بلغا عطفة في طريقهما كانت تفصل بين حديقة قصر دي نوريف وسقائف دار اخرى كانت تجاورها . فلما وقف الرئيس عند اول تلك العطفة نفر نفرًا خفيفًا اسمع جوترا فمثل لديهِ حالاً فساله الزعيم

— هل رأيت شيئًا

— كلاً

— يا لخيبة الامل لقد تلاعبت بنا ايدي هذا الرجل الروسي فعصبت على عيوننا وجعلتنا نرتد على اعقابنا خاسرين دون ان نتوصل الى معرفة ما يجري في تلك الدار

فامسك جوترا عن الكلام برهة ثم قال — ربما كان فعله حيلة وخداعا

وبعد قليل من الزمان ركب سارتيلي والزعيم العربة عائدين الى دار الشرطة فطويا المسافة كلها متباكمين متصامين الأ عن حديث نفسهما في موآخذة كل منهما الاخر بما اخطأ اليهِ فالزعيم كان يلقي التبعة على الفيكونت لانهُ كان السبب في تهوره وهذا كان يلوم الزعيم لجهلهِ اساليب السياسة على انهما لم يفعلا الاَّ بالاجماع استناداً الى ما تبدى لهما من الادلة الصريحة على تخطئة دي نوريف واتهامهِ . ففكر رئيس الشرط ايضًا بوجه الحيلة التي يستر بها خيبتهُ لدى زعيمهِ فهداه دهاؤُه الى ان يعتمد على ما جاء من الآثار في اوراق دعوى دي نوريف وما استدل فيهما على مكره وخبثهِ ثم آلى على نفسهِ ان لا يتهور من ذي قبل في المسائل قبل التبصر فيها وامعان الفكرة في خوافيها اما الفيكونت فقال في نفسهِ ان هذه الخيبة لا بد ان تقعد اعضاء الشرطة عن البحث والتنقيب في الامر الذي سعيت من اجلهِ توصلاً الى قاتل دي مانسيناك وقد ترتب عليَّ مذ الآن الجد في هذا السبيل

من الناس من تقعدهم العقبات عن السير في الطريق المؤدي الى المراد ومنهم من يستصغر الاخطار دون بلوغ الاوطار فسارتيلي كان في غنى عن السير على قدم الشرطي في اقتصاص اثر الجاني لو رأى منهُ مضاء في العزيمة ولكن لما اعتقد من نفس الزعيم العدول عن مواصلة البحث اخذ على نفسهِ ميثاق الجد ادراكًا لاثر الجناة وتوصلاً الى استجلاء غوامض اعمالهم . فضلاً عن ذلك ان اسبابًا شتى غير التي ذكرنا كانت تحمل سارتيلي على السعي في نشد ضالته واهمها اعتقاده ان دي نوريف بالائتمار مع الآخرين توصل الى الايقاع بصديقهِ لانهُ كان بين هذا الرجل الرومي وآل دي مانسيناك سرٌّ هائل لا يقوى على استنباطهِ الاَّ من كان نسيب تلك العائلة خيفة ان يذاع بين الناس فيغمض من شرف خطيبتهِ حقهُ . ولما انتهيا الى باب دار الشرطة ترجل سارتيلي وهو يقول في نفسهِ . عليَّ بكشف السر دون نصير . واول

شيء لاح لناظره ذاك الجواد الذي انضاه السير فاضناه وكان طوبيا واقفًا الى جانبهِ فسر الفيكونت برأى الخادم والجواد معًا في انتظاره على غير علم منهُ . وقبل ان يسال طوبيا سبب قدومهِ الى تلك الجهة صعد سارتيلي الدرج المؤدية الى مخدع رئيس الضابطة وبينا هما يصعدان الدرج ابتدره الرئيس بهذا الكلام

— لا بد لي من الاختلاء بك ساعة من الزمان اشغلها بالبحث عما عرض لدينا اليوم من عوارض هذه المسئلة المزعجة حتى اذا فرغت من البحث صرفتك لشانك وكفيتك مونة العناء مستانفًا

ان الرئيس كان قد اوغر صدره حقدًا على سارتيلي لاستغوائهِ ولكنهُ رأى ان يكظم غيظهُ تحت رماد اللين والدعة فراح يعللهُ بالنجاة من هذه الورطة ويمنيهِ بالتنصل من ربق التبعات اما الفيكونت فكان يصعد تلك الدرج وهو يناجي نفسهُ بما يكون من امر الرئيس معهُ في تلك المشافهة . ولما انتهوا الى اعلى الدرج كان الشرط الذين ساروا اثرهما الى قصر دي نوريف قد فصلوا عنهما الأ جوترا الذي كان قد عهد اليهِ بالسهر حول اسوار الحديقة فهذا الثقاف تبعهما عن كثب وكان كل مرة يلتفت الفيكونت وراءه يتصدى لهُ بقامتهِ وهيبتهِ فيتاملهُ تامل مدقق محقق لانهُ كان يامل ان ينال عن يده الفوز بغايتهِ وقد دلهُ على ذلك جوابهُ لرئيسهِ بامكان القبض على الجاني بعد الجد في هذا السبيل

وكان هذا الثقاف وسيا جليلاً بلغ من عمره الخمسين طويل القامة رشيق القد تلوح على محياه علائم الشهامة والصدق يشفق على سارتيلي ويصبو اليهِ ازعج ما كان قلب رئيس الشرط منهُ . وعقيب ان تفرس الفيكونت فيهِ تلك الصفات التي فصلنا قال في نفسهِ . ما لي الآ الاعتماد على غيرة هذا الرجل في نيل بغيتي فما ضرّني لو كاشفتهُ بامري حالاً وسكنت اليهِ بسري فما كاد ينتهي الى نتيجة نجواه حتى بلغ عتبة غرفـــة الرئيس فارجأ المشافهة الى حين

يتسنى لهُ الوقوف بهِ منفردًا . فلما دخل الغرفة استقبلهُ فيها خمسة من الزائرين وقد سبق لنا عهد الوقوف ببعضهم فعرف منهم فرزول والبارون ورئيس كتيبة سانكلو الذي كان يسرد تفاصيل الحادثة لشخص رابع قام في جملتهم

وكان ذلك الرجل لابسًا حلة سوداء وقد زرَّ شرجه بجلاء تظهر على جبينهِ علائم النجابة والذكاء فقال الفيكونت في نفسهِ . ان هذا الرجل هو الطبيب لا ريب فيهِ وقد اهاب النادي بالشهود ليشهدوا معهُ فحص الجثة طبيًا . وعندما اقبل سارتيلي على رفيقيهِ خفَّا اليهِ فحياه تحية الخلان لا يهزهما من امر الحادثة خاطر لجهلهما ما عرض على المسئلة من العوارض الحديثة في قصر دي مانسينياك وقصر دي نوريف فاقتصرا من الكلام على ما كان بعيدًا من الغرض

فعندما انتظم عقد اجتماعهم خاطبهم الرئيس بهذا الكلام قائلاً

— لا اريد ان اهوّل عليكم بما دعونكم اليهِ اليوم وغايتي ان تزيدوني تأكيدًا بمشاهدة الراس مرة ثانية عند الفحص الطبي . وقد رأيت ان اضرب عن طلب السيدات اللآتي كنَّ في صحبتكنَّ الى الغاب غير انني ارغب اليكم في ان تاتوني باسمهنَّ وشهرتهنَّ حتى اذا مست الحاجة الى دعوتهنَّ كنت على بينةٍ من امري معهنَّ كلهنَّ جمعاء . فالان هبوا بنا الى محل التشريح برفقة الطبيب . ثم اشار الى جوترا ان يسير في الجملة ففتح باب الرواق المؤدي الى الغرفة المعينة للتشريح

وكفى بدخول الانسان الى ذاك المكان انقباضًا وامتعاضًا واول ما يبدو لعينيهِ طاولة من رخام مدث وسط الغرفة وقد القي عليها الرأس المغشى بستائر سوداء وكان في انحائها بضعة كراسي من القش وفي احدى زواياها مطهرة تفيض فيها الماء وكأن بشبح الموت يطيف بساحتها فيملأ فواد الواقف فيها خوفًا ورعبًا . فلما دخل الجميع الغرفة اقفل جوترا الباب ووقف موقف الشهود حول الطاولة فتقدم الطبيب ونزع اللفائف عن الراس فعرّضهُ للنور

المتدفق من نافذة قبالته فاندهش الكل من مرآه متوجعين آسفين حتى ان الرئيس لم يتمالك عن اظهار تعجبهُ ايضاً من الشبه الكائن بين هيئة الراس المقطوع وراس المرأة التي لقيها في دار دي نوريف فكان ينقل نظره بين كمدة لون الراس ووجه الفيكونت . ثم قال متعجباً

— اخاف ان يكون قد اخطأ مرماه

اما ادمون فكان قد عدل عن العجب الى الافتكار فتمثل في ذهنهِ صورة تلك الحسناء التي كانت تمر بهِ في الشانزليزه فيقرن بينها و بين التي تبدت لهُ في قصر دي نوريف وقال في نفسهِ . ترى اينهما احق للعين واجلى

ثم نظر الرئيس الى الحضور فقال لهم — ان هذا هو الراس المقطوع الذي وجدتموه صباحاً في غاب بولونيا

فاجابهُ الكل على كلامهِ الاَّ سارتيلي فاكتفى بالاشارة عن الجواب

— فوقعوا اذن هذا الصك ريثما ينتهي الطبيب من كشفهِ وبحثهِ فمن كان لهُ رغبة في الوقوف على البحث فليلبث والاَّ فلهُ الخيار . فلم يبرحوا من مكانهم ينتظرون نتيجة الكشف

وكان الطبيب اثناء ذلك مشتغلاً في درس الراس طبيًا حسب قوانين التشريح الى ان انجز درسهُ قال

— تبين لي من النظر الى هيئة الراس اجمالاً ان القتيل كانت في نضارة الصبا تكاد تربو على الثالثة والعشرين من عمرها ومن تكوين القحفة يستدل انها من شمالي اوروبا

فسالهُ رئيس الضابطة — هل يتسنى لك ايها الطبيب ان تنوّع القتل وتحدد لي اسبابه

— انني لا استطيع ان اقطع بذلك والمرجح عندي انها قضت بحد السيف

— ارجوك ايها الطاسي ان تفصل لي الحادثة تماماً تكملة لشروط

الاستنطاق وثمة للفائدة منهُ

قال الطبيب — يتاكد لديَّ ان الراس لم ينفصل من الجثة بعد الموت وحكمي المطلق مسنود الى وضوح الجراح لانهُ كما يجلى للعين ان لا اثر تخديش في العنق بل القطع كان قانونياً

فقال رئيس الضابطة — يتعذر عليَّ تصديق ذلك

فاستانف الطبيب تفصيلهُ فقال — ان القطع حدث بآلةٍ تشبه الآلة التي يستخدمها الحداد لقطع الحديد

فارتعد اذ ذاك البارون وقال — ويلاه ما هذا الكلام ايكون القطع بحد مقراض حداد . فبناء على هذا التفصيل يخشى ان يتهم كل حداد احرز هذه الآلة في حانوتهِ وانا عندي مثل هذه الآلة في معملي الكائن في « اللواز »

فاعترضهُ الطبيب قائلاً — حاشا ان آتي حكماً لا قبل لي بهِ ومعاذ الله ان اوجه الخطاب الى فئة من الناس معروفة انما كلامي كان مجرداً عن هوى فضلاً عن ذلك ان القطع غير مقصورٍ على آلةٍ ما وربما وجد الان آلة اخرى تفعل فعل مقراض الحداد

— فسالهُ البارون — وما هي تلك الآلات

— ان حكمي بوجود الآلة لا ينفي جهلي بمعرفة شكلها و تركيبها

فاعترض جوترا الطبيب قائلاً — ارجوك ايها النطاسي ان تفيدني عن الطريقة التي اتخذها القاتل للوصول الى غريمهِ هل كان القتل مفاجأَة او حدث بعد نزاع وخصام

— كان القتل فجأة ودليلي واضح في خلو الجثة من التخديش و بقاء الملامح على هيئتها قبل القتل وكما لا يخفى ان حال من يرقب وفود المنون تكون اشد اضطراباً من حال الذي تبادههُ مبادهة دون عارض سابق . ومن نظر الى تصفيف طرق الميت وانتظام الضفائر صدق كلامي وتحقق ان القتل قد حدث اثناء ليلة طرب لما القى ايضاً من اثر الزينة على راس القتيل

وكان سارتيلي اثناء كلام الطبيب وتحقيقهِ يرتعد فرقاً كأن بكل حركة من حركات الطبيب سهماً صامياً ينفذ في صدره فلبث على هذه الحال المضطرمة مدة من الزمان وهو يقرن في نفسهِ بين هذه الدلائل التي انكشفت لهُ وبين تلك التي مرّت بهِ ليلاً في قصر دي مانسينياك الاّ ان القصة التي تلقاها من فم حنة بعدت بهِ عن موقع الحقيقة وزجتهُ في هوة من الارتباك والحيرة الى حد انهُ كاد يعتقد ان القاتل من الجن وليس لبشرٍ ان يختلق او يخترع مثل هذه الادوات لاتلاف اخوانه وبينا كان يستعرض في خلده هذه المشاهد المفجعة تراءى لهُ خلالها وجه تلك المرأة ذات الوشاح الاحمر التي قصت عليهِ حنة قصتها فزادتهُ هلعاً وحزناً . وكان لم يزل ينظر الى الراس الدامي نظرة بعد نظرة فينفطر قلبهُ عند مرآه تلك العيون الشاخصة كانها رامقة وتلك الشفاه المقلصة كانها تتهيأ للكلام بل ربما كان القتيل قد فغر فاه لشكوى الجاني وبينا كان الفيكونت تائهاً في بيداء الهم والقلق صاح الطبيب باعلى صوتهِ مدهوشاً شان من وجد دليلاً واضحاً بيناً يدعم بهِ دعواه فقال

— ها قد وجدت ايها الاخوان بينة اخرى تثبت لكم صحة ما قدمت يلوح لي ان القاتل قد جز ضفيرة من ضفائر الراس فنبذها عنهُ قبل القتل فجأة حتى انهُ لم يدع سبيلاً لضحيتهِ ان تذود عن حوضها او تدرأ عنها يده الجانية ولا بد ان يكون القتل قد تم على النطع دون شك ولا ارتياب

فعند هذا البيان خفق قلب سارتيلي جزعاً ولاح على وجههِ كمدة الموت من الاضطراب والخوف المطيف بهِ لانهُ كان لم يزل ناقلاً في جيبهِ تلك الضفيرة التي التقطها في خزانة قصر دي مانسينياك فعنّ لهُ بداهة ان يعرضها ثمة للبحث فحال دون عزمهِ مخاطر كان قد تحاشاها . فقال في نفسهِ . لا يسوغ لي ان انتهك بيدي حرمة قصر دي مانسينياك فادخل الشرط اليهِ تنقب فيهِ ومن الراي ان اترك هذه المهمة لنفسي كما رأيت قبلاً

ولما كان الطبيب قد فرغ من كشفهِ واثبات الادلة التي ساقتهُ الى بيان

نوع القتل بوجوهِ قام رئيس الشرط فقال

— حسبنا ما تلقيناه ايها النطاسي من الادلة الواضحة فنقتصر عليها الآن ولا بد ان نستانف البحث معك متى توغلنا في الاستنطاق ومن عزمي ان احنط الراس لانهُ غداً الحجة الدامغة في وجه هذه المسئلـة وهو هدايتي الوحيدة الى غرضي

فسالهُ فرزوا قائلاً — هل نتوقع ايها الرئيس الاهتداء الى القاتل فقط

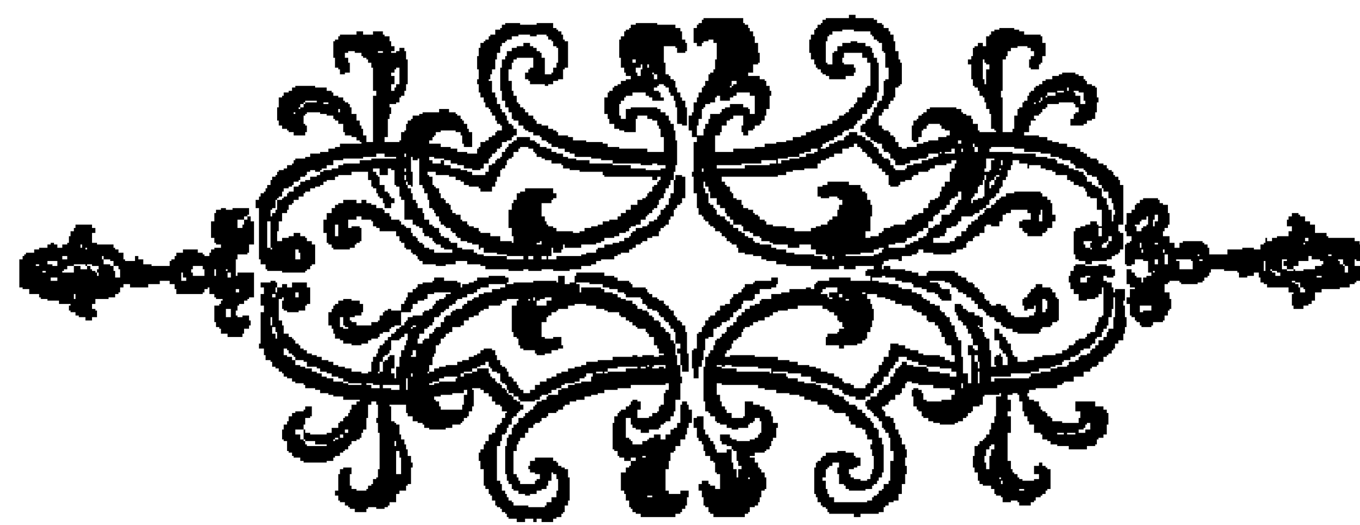
نعم ولا بد ان انجح في بحثي دأبي في كل معضلة بدت لي

فعمد الطبيب الى ارجاع اللفائف كما كانت قبلاً ثم لبى داعي الرئيس للانصراف في من حضر معهُ الكشف وبينا هم منطلقون تقدم جوترا الى سارتيلي وهمس في اذنهِ قائلاً

— اسمح لي يا سيدي ان ازورك

— اهلاً بك غداً عند الظهيرة

ثم قال سارتيلي في نفسهِ — لا شك ان الله يدعوهُ لموافاتي عملاً معي على كشف الجاني واعلاء شان الحق



الفصل الرابع

جوترا

كان ادمون دي سارتيلي يقطن قصرًا ومحط حديقة غناء في محلة استوربج وكان ذا ثروة يبلغ دخلها مساناة خمسين الف دينار . وكان يقوم في خدمته خادم للغرفة وسائق واحد . ولما كان ادمون من نسل الكرام ونجلة ابناء زمانه انتاب معاهد النبلاء واصحاب الجلاء فسار بينهم عزيزًا كريمًا الى ان استهوته دواعي الصبا فألّفت ملاهيه بينهُ وبين روجه دي مانسينياك فهفا اليهِ واجتمعت جوارحهُ عليهِ فقام ادمون على حبهِ امينًا الى ان حدثهُ قلبهُ بحب حنة فزاده تمكينًا . فلبث مستاثرًا بصحبة تلك العائلة منقطعًا اليها حتى فاجأه الزمان بتلك الحادثة المجعة فاشغل بالهُ وزاد بلبالهُ . فخاف سارتيلي ان تمتد يد الجاني الى الفتك بفرع دي مانسينياك الثاني لانهُ كان قد قدر في نفسهِ وقوف العدو بمكائده لهذه العائلة بالمرصاد فلا ينفك عنها حتى يذيق الابناء طعم ما جناه الاباء فتلقى خطيبته ما لقيهُ اخوها من طلائع البلاء

ففي ليل يوم المعضلات دخل ادمون غرفتهُ وقد عضل صدره بالغموم وضاق بالهموم فحاول الرقاد فجافاه وطلب الراحة فزاحمهُ القلق وصافاه فما زال يقعد بهِ ويقوم الى ان اذهلهُ برهة ثنت فيها اليهِ الهواجس عنانها . واشرعت عليهِ الوساوس سنانهـا . فناصبتهُ حتى الصباح ولم يطرف في غرفتهِ طرف المصباح . فجلس ادمون في سريره ونصب عينيهِ رسم حبيبه روجه فعلق عليهِ

انظاره وصوب اليهِ افكاره فكانهُ بذاك الرسم قد استفزتهُ الحمية واستخفتهُ المزية البشرية فنادى بهِ مستصرخًا

— دونك والذود عن حوضها

فازعجتهُ هذه التمويهات فنهض من فراشهِ ولبس ثياب الصباح وجلس على المتكأ فاطن الجرس فدخل عليهِ خادم الغرفة وكان يناديهِ طوبيا السائق بخلقهِ وخلقهِ امينًا حريصًا على مصلحة سيده يتفانى في حبهِ وكان قريبًا جدًّا من مولاه بمجالسةٍ مرارًا فيعترض عليهِ اذا كان ثمت محل للاعتراض و يصدق من اعمالهِ ما يراه صائبًا . وبالجملة انهُ كان لدى ادمون بمنزلة قرين بل موضع سره . وكان هذا الخادم ابن مزارع ادمون نشأ مع ابيهِ تحت ظل واحد فمنذ دخل طوبيا القصر اشرب قلب انطوان بغضهُ ومقته لكنهُ كتم حقده وصبر عليهِ حبًّا بسيده

فلما وقف الخادم بين يدي سيده دفع اليهِ كتابًا كان في يده وهو يفتر بهجة وحبورًا كأنهُ عالم بسره او مطلع على ما اودع فيهِ فاخذ الفيكونت الكتاب فتصفحهُ وكان كلما تقدم في قراءته سطرًا اكمد وجههُ وتقطب الى ان اتى على قراءة آخر حرف منهُ القاه جانبًا واكبَّ مفكرًا

فسالهُ انطوان قائلاً — ما بالك يا مولاي في همٍّ من هذا الكتاب هل جاءك بخبرٍ مزعجٍ عن حنة

— كلاَّ فاذهب وبلغ طوبيا ان يقرن الخيل للذهاب الى قصر دي مانسينياك

— لا اعلم يا مولاي اذا كنت اصادفهُ في محلهِ ربما يسير اليوم صبيحتهُ امس

— فما بدا منهُ امس

— انهُ لا يأوي كنهُ بياض نهاره بل اراه دائمًا في شاغلٍ مع رفاقٍ يأتون اليهِ كل ليلة

— اخاف ان تكون واهمًا يا انطوان فان هذا الشاب لم يقصر حتى الآن

في خدمته وقد شهدت فيهِ الغيرة والمروءة ولئن لم يبلغ منزلتك في الاتقان فانهُ يتوفر على كل ما فيهِ راحتي وقد آنست منهُ النشاط في الليلة التي قصدت بها المرقص والغاب

ثم فكر الفيكونت برهة وقال — واظن انهُ كان اول امس هنا

— نعم يا مولاي وقد عاد عند الخامسة فقصد الفراش وهو يتمتم من العي والجهد وامس تغيب ظل الليل

وبينا كان الخادم يتكلم خطر لسارتيلي خاطر كالسهم اذهلهُ عن حديثهِ فتذكر وقوف طوبيا عند باب دار الشرطة ماسكًا بيده عنان الجواد دون ان يعلمهُ احد بمكانهِ ثم تذكر ما جاء في حديث حنة معهُ من المؤكدات التي تثبت خروج السائق من قصر دي مانسينياك عند منتصف الليل فتنبه للامر وقال — لابد ان اريد القصر فاستجلي الخبر عما كان من امره وامر غيره فاذهب اذن يا انطوان الى السقيفة وعد بهِ اليَّ

— لبيك يا مولاي

وما كان الاَّ برهة حتى مثل السائق بين يدي سيده فساله الفيكونت

— متى كان عودك امس الى القصر

— عند الخامسة ·

— من اعلمك بمكاني في دار الشرطة

— كنت يا مولاي قد امرتني اذ وقفت في الغاب ان اكتري جوادًا لارجاع العربة الى باريس فانفذت الامر وكان وصولي الى هنا عند الظهيرة فخطر لي ان اوافيك الى قصر دي مانسينياك قصد القيام برعاية الجواد فلما بلغت القصر اعلمني البواب بانصرافك الى دار الشرطة حيث عزمت الوقوف على حقيقة الحادث . وهنا تردد السائق في حديثهِ برهة ثم استانفهُ فقال ولما كان الجواد قد اضناه السير السريع اصابهُ ورم في احدى قوائمهِ فرأيت ان اذهب بهِ الى البيطار

فعندما تبلغ سارتيلي كلام السائق المنسوق نسقًا ينفي كل ريب آخذ نفسهُ بما سوّلت لهُ من الاوهام فعدل عن تهمتهِ وصرفهُ قائلاً لهُ

— اذهب وكن مستعدًّا للذهاب عند الساعة الرابعة

ثم خلا ادمون بنفسهِ وعاد الى الافتكار بما خطر على ذهنهِ من عوارض المسئلة امس وبينا هو يفكر عرض لهُ خاطر ذكره بحديث الثقاف جوترا وبتجرده لمساعدته اذا تخلى عنهُ رئيس الشرط ثم تذكر وعده بزيارتهِ عند الظهيرة فسكنت اذ ذاك خواطر ادمون وثلج صدره لانهُ كان قد شهد في جوترا غيرةً وحذاقة لا تقف عند حد في الاستقراء والتنقيب فسر بامل لقياه وقام ينتظره جازعًا في غرفتهِ ولما كانت تمرّ بهِ الساعات طوالاً لشدة رغبته بالاجتماع بهِ لطم جبهته بكفهِ وقال — يا للجهالة قد كان من الواجب عليّ ان اعلن لهُ اسمي وشهرتي ليتيسر قدومهُ اليّ بالوقت المضروب . فعاوده الغم والقلق من جراء ذهولهِ عن هذا الامر وكان يزداد همًّا كلما تذكر نشاط الثقاف وصدق عزيمتهِ في استجلاء الحقائق واغفالهُ طريقة التقرب منهُ للاعتماد عليهِ في ادراك غايتهِ . فقال في نفسهِ . آه لو كان لي ان ابعث بطلبهِ من دار الشرط للحال . ولكن اخاف ان اتعرض بهذا الطلب الخاص للظنون والتهم فينقلب عليّ الامر . رباه ما الحيلة أَلا استطيع ان اعمل بنفسي دون حاجة اليهِ . وبينا هو يناجي نفسهُ بالوجه الذي يعول عليهِ دخل خادم الغرفة واعلن لهُ قدوم زائر يطلب مشافهته ثم دفع اليهِ رقعة الزيارة وقد كتب عليها هذا الاسم فقط « جوترا » فاجاز لهُ ادمون الدخول عليهِ حالاً

فما كان برهة الاَّ ودخل الثقاف تلوح على محياه سياء البشر والنجابة فحيا الفيكونت تحية تشف عن صدق ميلهِ اليهِ وجلس فابتدره سارتيلي بهذا الخطاب

— اني اشكرك على هذه الزيارة واسالك العذر عن اغفالي هدايتك الى مكاني

— لا باس فاني عارف بمكانك ولو استطعت لاتيتك قبل الآن

فتعجب سارتيلي من كلامهِ وقال — هل كان لك معرفة بمقري من قبل وكيف اتصلت اليها ترى هل بعثت رقيبًا عليّ

فخجل الثقاف من حديث سارتيلي فاجابهُ بكل دعة ورفق — كلاّ ياسيدي ما كان ذلك مني عن مراقبة او تجسس بل من كان مثلك بعيد الصيت لا يحتاج سائلة او راغب في مشافهته الى دلالة اوضح من الشهرة وحسبي معرفة بك تناقل الناس اسمك المعروف في كل باريس

— كيف تمّ لك ذلك . بالله اخبرني الامر جليًا

— انني نشأت في نورماندیا وعشت بظل عائلتك الكريمة ولما اشتد ساعدي انتظمت في سلك الجندية تحت قيادة سيدي والدك المشهور

فامسك ادمون عن الكلام برهة زاد فيها قلقه وارتباكه لا سيما عندما اوضح لهُ الثقاف تبدل حالهِ وتحولهِ من الجندية الى مهنة الجاسوس فادناه منهُ واجلسهُ الى جانبهِ دون ان يبادههُ بكلمة فاستانف جوترا حديثهُ فقال

— لا بد ان تكون قد علمت يا سيدي بالغرض من زيارتي و بالسبب الذي من اجلهِ قدمت اليك فاني بكليتي رهن يديك فمرني اندفع للحال في الاستقراء عن حال الجاني الاثيم!

— رضيت عنك مساعدًا وقنعت بك ساعدًا يقوى على كشف كربتي وغمتي لكن رجوتك بالله الاّ فرضت عليّ مالاً لقاء كدك وجهدك!

— اسالك يا مولاي ان تؤجل البحث في هذا الشان الى ما بعد النجاح

— فليكن ما تريد غير اني اخشى يا جوترا ان يحبط سعيك كما حبط سعي رئيسك في البحث من قبل واراه قد عدل عن مواصلة العمل بعد ما حبط ظنهُ في نجاحهِ عند قصر دي نوريف

— هكذا كان منهُ فما اغنانا عنهُ

بناء عليهِ فيكون عملك على غير علم منهُ؟

— نعم فاعلم يا سيدي ان هذه الحوادث سيرًا لا تحيد عنهُ وقد عرفتهُ بالاختبار منذ عشرين سنة فانهُ اذا اعتلنت الجريمة وكانت ناشئة عن اسباب خفية توغل صاحبها في الخفاء فينبث الشرط في كل الانحاء ويقفون في الاحياء فيلاقون في سبيلهم صنوف الكد والعناء دون ان يدركوا لضالتهم اثرًا فيلجاون الى الصدفة وكراماتها وهيهاتٍ ان تاتيهم بالمراد ذلك السير الاول الذي اتبعناه

وربما ضلوا سبيلهم وتاه دليلهم فحالت دون تقدمهم ونجاحهم عقبات هورتهم في هوة اليأس والقنوط فقعدوا عن مواصلة الجد وذلك ما نصادفهُ بعد حين

واذ كان لا بد ان يعقب شرًا شرٌ جديد يطالب الثقاف بالبحث عن اسبابهِ اضطر ان يتخذ اليهِ سبيلاً غير الذي سلك فخاب فيغادر الاهتداء الى الجاني الاول لحكم الصدفة فيتناساه القوم ويضعف احتراز الناد ويقل امتناعه فيسقط حيث لا يرجى سقوطهُ وذلك ما يكون سيرنا مستانفًا فاعول عليهِ في خدمتك . واذا قابلت بين ما قدمت الان وما كان من امرك في البحث عن الجاني الذي نجد في اقتصاص اثره لصدقت مقالي وصوبت رأيي ولا غرو فان دليلي بيّن وحجتي قاطعة يؤيدها شاهد الحال . فلا يخفى ايها الفيكونت ان الجاني يتبع كذلك خطة واحدة تستلزم السير الذي فصلتهُ للاجتماع بهِ . فلنقدر في كل حال ذكاء الرجل الذي ياتي بمثل هذه الفعال فانهُ يتدجج بالاسلحة ويتدرع بالحزم والعزم فيسير سيرة عاقل حكيم يتجنب مواقع الخطر ومواضع الحذر فيدرب نفسهُ على الكذب والبهتان ويعلمها كيف تنتصل من ربق التبعات اذا اقتص اثره فادركهُ الاعوان وكثيرًا ما يبدل زيهُ او يشوه وجههُ فرارًا من الوقوع في ايدي الشرط المجدين في اثره فيغدو اذ ذاك في منعةٍ لا ترام وعزٍ لا يضام . وقد علمت بما كان من رئيسي امس في قصر دي نوريف فانهُ ضلَّ سبيلهُ واضطرَّ ان يعتذر لديهِ ويرتد

على اعقابهِ يئسًا قانطًا

فدع الآن الجاني يخطر على هواه اياماً وشهوراً فلا بد له ان يقع ولو مهما تعزّز وامتنع اذ كان لكل انسان اغراض لا ندحة له عن تطلبها فتجهده ويدرك رشده التيه فيميل بهِ عن الجادة فيزعم ان فعلتهُ قد زوّت في زوايا النسيان فيقتحم معرضاً نفسهُ للعيون فترقبهُ وتتشبث بهِ فيقف لديها موقف المتهم فتقترح عليهِ اسئلة متعددة لم يكن عنيداً للجواب عنها فيسقط من حيث يرجو السلام ويقع حيث امل بالقيام . فاسمح لي اذن ان اسلك بعد حين سبيل البحث عن شوءون دي نوريف فاقف منهُ على المرام وابلو سرائره كما ابلتني الايام

— أتخالهُ مجرماً

— انهُ لمجرم ولهُ اعوان

فاستطرد ادمون حديثهُ وهو في حيرة شديدة من اشتباه وجوه الحادثة فخاف ان يفرط منهُ ما يدل على تداخل خطيبتهِ فيها فقال

— هل دريت باتفاق تغيب المركيز دي مانسينياك صديقي العزيز يوم حدوث تلك الحادثة

— نعم وذلك الاتفاق يحدوني الى تحري الوصول الى دي نوريف والايقاع بهِ لانهُ هو الجاني بدليل ما ابرم بينه وبين صديقك من العلائق المحكمة

فملأت هذه العبارة الواضحة الصريحة قلب الفيكونت حزناً وزجتهُ في مهامهِ القلق والارتباك لانهُ آنس منها سرّاً ادركهُ الثقاف وحده وربما كان ذاك السر تصديقاً لما ارجفت بهِ السنة الناس عن قصر دي مانسينياك فحدثتهُ نفسهُ ان يسالهُ كشفهُ فزجرهُ زاجر منها ان يصد عن ذلك بحضرهِ جاسوس لا يومن غدره فاضرب عن السوال وقال

— اصبت يا جوترا بكل ما ابنت واوضحت حتى اغريتني بالتسليم اليك

والاتكال بعد الله عليك في امرٍ جعلت مالي في جلائهِ رهن يديك

— لا تنوص يا سيدي امرك اليَّ قبل استعلام حالي والبحث عن سيرتي الواضحة اذ انني لم اكتم اصحابي الاَّ ما كان من خصائص مهنتي واسرار مهنتي

— ما الذي حملك على اختيار هذه المهنة

فاكمد وجه الثقاف وامسك عن الكلام

فقال لهُ سارتيلي — لا ريب انني ازعجتك بسوالي فاسالك عذرًا ولنعدل عن ذلك للكلام عن الخطة الواجب انتهاجها في ابحاثنا

— لو كنت ارى يا سيدي من جدوى في وقوفك على اسرار مهنتي او الاطلاع على الاسباب التي حدتني اليها لما كنت اتردد اصلاً في ايرادها ولكن كان سرها محصور المنفعة بصدر اصحابهِ . اما من قبيل الاهتمام برسم الخطة التي يقتضي السير عليهِ في البحث عن الجاني فقد قدمت لك من البراهين ما يخولني حق الاضراب عنها عاجلاً وما زلت اكرر لك ان ليس من الحكمة معارضة الخصم عند اشتداد قوته ومزيد احترازه فالحكمة تقضي ان اكتم الامر الى حين

— ارى ان لا بد لي من مشافهتك قبل حلول الاجل المسمى فما سبيل الوصول اليك

— يمكنك ان تستعلم الموسيو بسون حالي كل ليلة من التاسعة الى العاشرة في محلة « ماري سان جرمن » عدد ١٩

فما كاد يتم جوترا حديثهُ حتى رأى ادمون يدًا ترفع ستار الباب دون ان يعهد بوجود احدٍ من قبل خارجًا فغضب ادمون من هذه الجراءة وساءه تجسس الرجل فقام الى الباب فاستقبل بوجههِ سائقهُ طوبيا

ان اقبال هذا الخادم الى غرفة سيده وقت الزيارة يعد اجحافًا بحقوق الامانة في الخدمة لكن سارتيلي ظنهُ رسولاً او نذيرًا بحدوث امرٍ جلل دفعهُ الى ركوب الخلل ولولا ذلك لما تجرأَ ان يقدم اليهِ في تلك الساعة فسالهُ

مغضبًا

— ما غرضك عندي قبل ان ادعوك وما سبب قدومك في هذه الساعة

فاجابهُ السائق ولم تنبض لهُ فريصة — خدعتني اذني فاتيت يا مولاي ملبيًا مطيعًا

— فانطلق من هنا وادخل السفينة وكن عتيدًا عند الرابعة حسب اشارتي

ولما حوّل ادمون نظره الى جوترا عقيب مخاطبة السائق رآه يحدجه بانظاره ويتاملهُ تامل محقق على ان طوبيا كان لم يزل واقفًا بالباب ماسكًا بيده الستار وناظرًا ايضًا الى الثقاف نظرة مدقق

فانتهره سارتيلي قائلاً — ما لي اراك تسمعني حين لا اناديك وتصم اذنك حينما اخاطبك

فانصرف عند ذلك طوبيا عجلاً وانحدر من حيث اتى تاركًا سيده يذرع ارض الغرفة بخطواتهِ من الغيظ لسوء ادبه واخلاله

فاعترضهُ جوترا بقولهِ — اسمح لي يا مولاي ان اسالك مسئلة واحدة وهي هل سلف لهذا الخادم عهد بهذا الاخلال

— كلاّ يا اخي وهذه هي المرة الاولى منذ قام في خدمتي حتى الآن وعلى ما ارى ان قد شمل الذهول كل من في طاعتي وتحت ولايتي

فقال جوترا وقد تخازرت اجفانه شان من يتذكر شيئًا قديمًا — ذلك امرٌ عجيب غريب

فانتبه ادمون لحركات الثقاف وادرك مغزاها فعمد الى ان يزيل الريب عن سائقهِ فقال

— انني امدح مسلك طوبيا عندي واثق بهِ ثقة تامة

— رأيتهُ يتاملني بعين المنتقد فلا اعلم اذا كان لهُ معرفة بي من قبل او انهُ يريد ان يتعرف بي الآن ولكن قد شهدت فيهِ ما اخطر ببالي شيئًا شهدتهُ في

شخص نظيره

— من يكون ذلك الشخص

— يتعذر عليّ اشهاره لا سيما انني لم اتأكد جيداً حقيقة ما شهدت في سائقك من الشبه بينهما وربما كنت انبين ذلك لو علمت باصل الرجل وفصلهِ

— قيل انهُ من ابناء الدهاليز وامهُ انكليزية . فاذ كنت منذ ثلاث سنوات في « دياب » قدمهُ لخدمتي صديقي روجه دي مانسينياك عند انفصالهِ عن خدمة السر ارثور بولاك

— لم استفد من ذلك شيئاً ولكن ما لنا الآن وللخوض في احاديث تزيد في افكارك ارتباكاً فاسمح لي ان انطلق على امل السعي في ما تدعوني اليهِ اوامرك

— بالله اسعَ قبل الامر وجدّ متحرياً الاهتداء الى اثر صديقي روجه حتى اذا ادركتهُ اوليتك من المال ما يغنيك عن تجشم اخطار مهنتك

فهزّ الثقاف اكتافهُ شان من لا يستخفهُ المال وقال — ان السعي وراء روجه من داب رئيسي ولكن كان ذلك عبثاً. فلو كان دي مانسينياك لم يزل حيّاً لكان تجرد للدفاع عن شهرتهِ وقد عرفت بمسئلة الخمسمائة الف فرنك . واذا كان قد قضى نحبهُ حقاً فلا بد ان تكون اليد التي ساقتهُ الى الحتف قد اخذت كل الاحتياط لاخفاء الجثة عن العيون

— فما ترجو اذن من البحث

— ان انتقم لهُ ولنفسي

— ممن الانتقام

فامسك الثقاف عن اكمال الحديث وقد هجر سكينته وتبدل وجههُ بالغضب فلام نفسهُ على التطوح في امر كان يحاول جهده كتمانه فلم يستطع الاّ المجاهرة بما جاش في صدره فقال

— اريد ان انتقم لنفسي من ذاك الجاسوس دي نوريف الخائن الساقط فما اطلق جوترا صواعق غضبه حتى ثابت اليهِ سكينته فعرف خطأه فقال

— بالله يا سيدي العذر على ما ابديت بحضرتك فقد ذهلت عن نفسي وقد كان من الواجب عليَّ ان اعرف مقامي لديك فالتزم الادب واضرب عن اظهار الغضب حين لم تستدعني اليهِ في دارك

— قل ما استطعت عن هذا الرجل ولا تخش ملاماً بل بالغ بما في نفسك منهُ وإنا لك من الشاكرين

فاذرف جوترا الدمع عندما تحقق من ادمون الرقة والخلوص وكان قد سكن جاشهُ فطوى كشحاً عن معائب دي نوريف واخذ يسرد عنهُ حديثاً لا طائل لهُ و ينسب غضبهُ لاسباب خفيفة فقال

— ان الاسباب التي الهبت قلبي حقداً على هذا الرجل لهي عادية ولم يتصل بي من امرهِ غير ما اذكره لك الآن وهو . ان هذا الرجل قدم باريس على اثر ثورة تموز فشهدت فيهِ الحكومة جاسوساً اتى بلادها من قبل الروس ولئن كان منشاؤه اسوج . فكان همّ الرجل مراقبة البولونيين المهاجرين وترصد اعمالهم والتقاط الرسائل التي كانوا يطيرونها الى اخوانهم الذين استقروا في «فرزفيا» عاصمة بلادهم . وما وقف عند هذا الحد من همّهِ بل مال الى التداخل في الدسائس على الملك الذي كان قد استوثق ثم من رعيتهِ في فرنسا . فحمل الحكومة على مراقبتهِ فبعثتُ لهذه المهمة ولما كدت ابلغ القصد من بحثي عن احوالهِ تيسر لهُ ان يموه على ابصار الحكام فرماني بالجهالة والغباوة وقضى بفصلي من خدمتي زهاء عامين وكفى بذلك سبباً يبلغ مني كثيراً

فاثرت هذه القصة في نفس سارتيلي وزادتهُ تاكيداً على قلة ما وعت من الفائدة في ما كان من امر دي نوريف واعتقد ان في نفس جوترا شيئاً آخر يحاول كتمهُ فقال في نفسهِ ليس في ما ذكر صاحبنا سبب يدفعهُ الى الحنق والحقد على دي نوريف الى حد الذهول فحسبي الآن ما استفدتهُ من كلام الثقاف الصادر عن فواد تلهب غيرة وحمية وما اظنهُ يدفع نفسهُ للغضب دون سبب خطير وقصارى غايتي ان يحسن خدمتي . فقال لهُ ادمون

— اسمع يا اخي ما اقوله لك بكل صراحة وصدق . تبين لي انك تحقد على هذا الرجل حقدي عليهِ ومهما اختلفت الاسباب فهو عدوك كما انهُ عدوي فقد كنت طلبت اليك قبلاً ان تجري في تنفيذ مقاصدي ومآربي اما الآن فاناشدك الله الاَّ اتفقت معي على السعي سواء

— قلت لك يا سيدي اني لا اعدل عن السعي ولو كلفني النفس والنفيس

— لا تخشَ باسًا وسوف نبطش بهذا الثعبان فنذيقهُ الهوان . ولكن قل متى يكون الملتقى

— لا فائدة من الاجتماع سواء الشهر كلهُ وقد كشفت لك قبلاً عن غايتي ومرادي واوضحت لك الاسباب التي تحول دون سعيي عاجلاً فنحن الآن في الرابع عشر من شباط فموعدنا اذن يكون في الخامس عشر من اذار . ولا يخفى ايها الفيكونت ان ترددي الى زيارتك يبعث الناس على التقول وخصوصًا خدمك فانهم يظنون بنا الظنون فينتقض الامر علينا ويسقط في يدنا . على انهُ يمكنك ان تتردد اليَّ آمنًا كل رقيب ولا بد ان امهد لك السبيل القاصد اليَّ . ان منافذ منزلي في الطبقة الرابعة عدد ١٩ وهي تطل على الطريق فكل مرة تقصد زيارتي انظر الى النافذة الثالثة لجهة اليمين حتى اذا وجدتها مضاءة اصعد الدرج بلا حرج واياك القدوم قبل التاسعة مساء لانني اقضي سحابة نهاري في الخدمة

— احسنت ولكن ربما يقع لديَّ او لديك ما يستلزم المكاشفة بهِ قبل الاجل المسمى فما السبيل الى اجتماعنا معًا

— اذا كان لديك ما تحتاجني الى النظر فيهِ فليس الاَّ النافذة نذيرًا اما انا فلا اعلم كيف اتوصل اليك لابلغك ما عندي لانني اخشى العيون في زيارتك . فعلى كل انني ارى كتم الامر في خلال المدة المعينة اولى بنا من افتضاحهِ

— فما ضرَّ لو كاتبتني

— لا نزال عرضة للخطر الذي اتحاشاه وهو ان الخدم الذين يتلقون الرسائل هم انفسهم الذين يستقبلون الزائرين فيطلعون على سرنا

فحاول سارتيلي اقناع الثقاف باحدى الطريقتين فلم ينجح فقال له جوترا بعد الامعان في الامر

— لا باس اني ابعث برسائلي الى المنتدى

— اكرمت

— فاسمح لي اذن الآن قبل ان انصرف عنك ان اقترح عليك سؤالاً واحدًا

— تكلم

— هل تمسك الحاجة الى استخدام طوبيا عاجلاً

— نعم فانني امرته ان يقرن الخيل للذهاب عند الرابعة وقد آذنت الآن الساعة بالثالثة فلا بد ان يكون قد هيأ العربة في السقيفة وقام ينتظرني عندها . ومع ذلك فما غرضك منه

فتقدم جوترا الى النافذة المطلة على رحبة القصر وقال — اراه على الطريق

ان الناظر من طبقة القصر العليا الى الطريق يرى المارين من وراء سور الحديقة فتطلع سارتيلي من النافذة الى الطريق فالفى طوبيا جالسًا على باب حانة في زاوية محلة «استورج وفيل لافك» كانه يرقب مجيء شخص اخذ الحانة موعده . فغضب سارتيلي واطن الجرس فوافاه خادم الغرفة انطوان فامره ان يذهب الى طوبيا فيذكره مهمته ويسوقه الى السقيفة فيقفل عليه الباب

فتبسم جوترا عند ذلك واحنى راسه وقال

— لا بد ان نجح بالعمل يدًا واحدة

واذ كان ادمون ينظر اليه متعجبًا اراه الثقاف السائق عائدًا الى الدار عود العبد الآبق وقال له

— الحمد لله الذي ألهمك ايها الفيكونت ادراك ما عنيت وها اني انصرف الآن من دارك آمنًا عين الرقيب

الفصل الخامس

بقع الدم

ان جوترا غادر سارتيلي في شاغل عظيم من معنى حديثهِ وقد اثر في نفسهِ جدًا فقام وتردى بلباسهِ بريد التنزه فانحدر من غرفتهِ الى الرحبة ولم يلتفت الى اخلال طوبيا فركب العربة وسار في يوم جف نوءه وصفا جوّه فراح يخترق صفوف المتنزهين في انحاء الشانزليزه فيستلفت انظارهم الى حسن روائهِ وبهاء طلعتهِ وسنائهِ فيحسدونهُ على مظاهر الابهة والجلال واستكمال اسباب الراحة والاقبال على انهُ كان يعاني من مزاحمة الهموم والغموم ما لا تقوى على حملهِ اعظم الرجال. لان خوفهُ على خطيبتهِ كان قد ملأ صدره واستغرق فكره فكان يناجي نفسهُ بهذا الكلام

— ترى ماذا يحل بجنة اذا ثبت خبر وفاة اخيها او ماذا ينوبها من الاحزان اذا تمكن البغاة من خفض شرف آلها. آه اخاف ان تعدل عني اذا ادركتها الفاقة ونفد ما في وطابها بل اخاف ان تصيبها يد الجاني كما اصابت شقيقها. رباه ليت لي ان اعلم بما يدسهُ الاشرار توصلاً للفتك بحبيبتي آخر فرع دي مانسينياك. وما زال بردد في نفسهِ هذه الخواطر الى ان انتهى من

نجواه الى باب القصر فوقف وقال . حياني وقف عليك وثمن هنالك فان شئت طالت وان شئت ذهبت فذالك . واذ كان عالمًا بانتظار حنة دخل القصر واراد توًا الغرفة في الجانب الايمن من مدخل القصر حيث آلفت حنة الجلوس نهارًا ولما اقبل على الغرفة اندهش سارتيلي اذ رأى القيمة الانكليزية تجالس خطيبته التي كان يرغب في الاختلاء بها وكان ادمون ينفر من صحبة القيمة لاسباب اوضحها توهمه بانكارها عليه الزواج من حنة ولما كان قد اتفق وجودها في تلك الساعة قربها خاف ان يتحقق وهمه بعدول حنة عنه مع الزمان فقال في نفسه . ربما تكون خطيبتي قد دعتها خصوصًا لتسمع حديثنا وتشهد القطيعة . لكنه ساء ظنًا فان حرص القيمة على شرف الفتاة جدّ بها الى الوقوف معها في مجلس اكثر ما تتقول عنه الناس ولم يكن في نفسها شيء مما رآه ادمون واهمًا . فتقدم نحو الغرفة بكل احتراز فلما ابصرته حنة خفت الى استقباله وبسطت للسلام عليه كفًا محت ما كان قد ارتسم على لوح صدره من سواد الاوهام فاكثر سارتيلي عتب نفسه والملام فابتدرته حنة بهذا الكلام

— قد استبطأتك يا اخي فما اقعدك عني حتى الآن

— انّى لكِ ان تشكي مطلي وقد اسرعت الى الوفاء حسب الاشارة

— اعلم يا اخي انني قد دعوت صبيتي لتقوم شاهدًا على ما يدور بيننا من الاحاديث في هذه الجلسة ولا يخفى حبي لها واعتمادي عليها كيف لا وقد اصبحت الآن وحيدة اهلي وبقية آل قرضهم الدهر الخؤون فلم يبقِ الاّ عليها فما كان احوجني الى استخدادها واستمداد مشوراتها ونصائحها

فحنا سارتيلي رأسه مصوبًا حديث خطيبته ولكن حنو من اصابه سهم في كبده فاستطردت حنة كلامها الى ان قالت

— ولما كنّا لا نقوى من انفسنا على بلوغ الغاية التي نتحراها رأينا ان نضمك الينا اذا رأيت ذلك

فصاح سارتيلي — اتقولين يا حنة انكِ وحيدة وانا لكِ نصير بل شقيق

امين بل قرين

فنبضت فريصة حنة من هذا الكلام وقالت بصوت تهدج من الحزن والاسف

— يشهد الله عليّ يا ادمون بحبي لك وتقربي منك وكنت اود لو يتم قراننا الآن لولا ان وصمة سودت اسمي وابقى الدهر على ثروتي . فآبى ان ينالك منها ما نالني

فاستفز كلامها سارتيلي فقال — اتمزجين يا حنة صفاء حبنا بكدورة المال

— ارجوك يا اخي ان نطوي حديث الزواج بيننا ودعني وشاني الى حين

فانهلت عندئذٍ بوادر الدمع من عيني سارتيلي فقال لها — اتكفرين اذن يا حبيبتي بحبي وتخلفين بالوعد

— اراك يا ادمون قد ذهلت عن معنى كلامي فتعديت مرامي . اني لا ازال احبك حبًا ما وراءه غاية

— ففعل هذا التاكيد في نفس سارتيلي فقبض على كف خطيبته فعلق انظاره عليها وقال بلهجة تشجي الفؤاد

— اني على الوعد صابر

— فشكرًا لك اذن ومنة فمدني الآن برأيك

— قولي وما تطلبين

— اريد ان ابيع النصر بيعًا معجلاً واذ كنت جاهلة رسوم البيع اسالك ان تفيدني وجهًا يحسن بي الاتجاه اليه

— وما الغرض من بيعهِ

اريد ان افي بما لزم روجه من الدين

— لا يلزمهُ شيء وقد ادعى دي نوريف عليهِ زورًا

— كيف تقول ذلك وقد رفع شكواه الى الحكومة ودونك رقعة تطالبة

بالحضور للمرافعة

فاخذ ادمون الرقعة فقرأها وقال – ارلها باسم روجه وحده . . .

فقاطعته حنة الكلام وقالت – ما كنت تفعل يا ادمون لو كان روجه شقيقك

فاطرق ادمون واجمًا

فاستطردت حديثها الى ان قالت – أليس من الواجب عليّ ان ابادر الى انقاذه ونجاته

— ومن قال لكِ بصحة وفاة روجه

— لا اصدق الآن الخبر

فنظر اليها اذ ذاك سارتيلي نظر المتعجب منها كانه يعتقد منها مسًّا . فلم تبالِ حنة واستانفت الكلام فقالت

— هب انه حيّ فلا بد لي من الوفاء حرصًا على شرف اسمه وصد الاعداء الذين حجبوه عني . فاناشدك اذن بحبك له وحبي ان توازرني في هذا السبيل وقد دعوت المسجل ان يوافيني غدًا للبحث بالاتفاق معك في هذا الشان

ان سارتيلي كان اصمّ اذنه عن سماع حديث حنة الاخير واستغرق ذهنه الافتكار بالاسباب التي توهمها ببقاء روجه فشخصت عيناه فيها حائرًا لا يستطيع ان يستزيدها ايضاحًا . فسالها اخيرًا قائلاً

— ما السبب الذي يوهمك ببقاء روجه

فاكمد وجه حنة وحوّلت انظارها كمن لا يرى جوابًا ثم قالت بصوتٍ منخفض

— اني رأيته ليلاً

فصاح سارتيلي وقد استخفه العجب – هل رأيتهِ حقًا

فتفرست فيهِ حنة وقد فطر قلبها الحزن فامسكها عن الجواب فالحّ عليها ادمون بقولهِ

— بالله قولي يا حنة اجيبيني ما لكِ وجمتِ

فتنهدت جزعًا واذ رامت ان تتكلم دنت منهـا الصبية واخذتها بيدها وقالت لها بصوتٍ رقيق

— بحياتي يا حنة خففي عنكِ الاشجان وازيلي عن فوادكِ سواد الاوهام والاحزان فما لكِ وللاعتقاد بالروءيا فانها تبلي الاجسام وتورثك السقام

— لله دعيني اتكلم عنهُ وادنو بفكري منهُ

وكان سارتيلي صاغيًا الى كلامها بكل لهفة واشتياق راغبًا باستنباط سرها واستبطانهِ فاستانفت حنة المقال فقالت

— لما كانت الساعة التي رأيت فيها ما رأيت قبل امس ليلاً دخلت غرفة النوم وقد طرأ عليَّ عارض من الحمى شديد الوطأة احرمني الرقاد وحبب لعيني السهاد فقمت امشي في المجال ساعة الى ان اعياني الجهد فاسندت راسي من شدة الألم الى زجاج النافذة حذاء جانب خزانة الكتب الشرقي فلاح لي فيها ضوء خفيف ما ظننتهُ لضعفهِ الاَّ انعكاس نور القمر يتموَّج على ذروة سطح القصر فامعنت النظر حتى بان لي جليًا ان النور يلوح من داخل الخزانة فاعظمت الامر وقلت في نفسي من تراه الواقف الآن فيها وعهدي بها وبسلم الخدمة المؤدية اليها مقفلة وقد جعلت المفاتيح عندي وما زلت افكر في ذلك حتى تراءى لي ما رأيت اول امس فخفت وهلع قلبي اذ لاح امامي شبح هائل ينسلُّ قبيل النافذة المضاءة وكأنني بهِ قد وقف برهة واستند كما استندت الى النافذة ثم تبينت ملامحهُ كلها فشخصني فصحت مزعوجة اذ رأيت في شكلهِ صورة روجه فعندئذٍ انطفأ المصباح وزال الشبح فاغمي عليَّ فسمعت «مس جورجينا» حركة سقوطي فبادرت اليَّ وجعلت تنشقني ارواحًا انعشتني فانتبهت وطابت نفسي

فتلا قصة حنة سكوت وسكون وكان ادمون ينظر اليها نظر المشفق عليها من عوارض الالم فدنت منها الصبية فاخذت يدها وهي ترمق سارتيلي بعيون

كانها توحي اليهِ ان يكف عن الحديث في هذا المعنى فادرك حركاتها وصرف ذهنهُ عن تصديق الروءيا الى الكلام بما كان من عزم حنة قبلاً فقال لها

— لقد تاكد لكِ ياحنة خلوصي واستمساكي بعرى مودتك ويقيني الآن اني عنهد لمساعدتك الى حين تدعوني للاقتران بكِ . فمتى شئتِ عدت اليك غدًا للاجتماع بالمسجل

فنهضت حنة وبسطت اليهِ يدها وقالت — اني كتبت اليوم رقعة الى المسجل كالمت ادعوه فيها الى موافاتي عند الظهيرة

فاجابها سارتيلي وقد لاحت علائم البشر على جبينهِ شان من استبشر بحل معضلة — واني اكون لديكِ وفق الساعة المسماة لكن ارجوكِ الان ان تسمحي لي بالدخول الى خزانة الكتب فاخلو بنفسي فيها لاحبر بعض رسائل خصوصية واطالع كتابًا كنت قد عينتهُ يوم اجتمعنا بالحبيب روجه

فالتفتت حينئذٍ حنة الى صبيتها وقالت لها — اتريدين ان تسمحي لادمون بمفتاح الخزانة

فخرجت الصبية وما كان الاَّ برهة حتى عادت بالمفتاح فسلمتهُ الى ادمون دون ان تنبس بكلمة . وكانت قد تظاهرت اثناء تلك الجلسة بالغلظة اشد من قبل لكن الشواغل التي كانت تتنازع افكار ادمون اذهلتهُ عنها فقام من مكانهِ فودع خطيبته والصبية بكل تحفظ واحتراز واخذ في رواق القصر الى الجهة اليمنى وكان قد ملأ الرعب قلبهُ مما تلقاه من القصص الهائلة والاحلام المزعجة فحاول عبثًا استنهاض عزيمة الرجال ونجدة الابطال فان الفيكونت كان من الناس الذين لا تروعهم المخاطر في حومة القتال ولا تذهلهم صلصلة البواتر وارهاف النصال . لكنهُ لم يقوَ على مقارعة الاخطار الخفية ومخاوف الاحلام السرية فتخاذلت اذ ذاك ركبتاه ووهنت عزيمته كلما تقدم في طريقهِ الى الخزانة التي غدت مستودع السر الخفي وقد ادعى بالنسيان حجة يتسنى لهُ بها الدخول الى الموضع منفردًا . وما زال يجري الى ان وقف

متردداً عند الباب ففتحه ودخل تحت رواق الليل يهديه في المجال نور الكواكب المنبعث من النوافذ ولما تبطن الخزانة نفض حولهُ فابصر رسوم آل دي مانسينياك معلقة على الجدران فاوهم من النظر اليها وهو تحت عوامل الخوف انها اجسام عاودتها الارواح وقد تهيأَ ت للوثوب عليهِ فارتاع جدًّا ونبضت فرائصهُ فتقدم كانهُ يحاول اتقاء عيونها حتى وقف عند الطاولة التي كان يجالسهُ عندها زوجه وشقيقته فاخطرت عليهِ اموراً نابهُ منها قلق وارتعاش

فهناك النقط الصغيرة الشقراء هناك كان قد استودع اسرار حنة المخيفة واذ كان نظره يحوم في ذلك الموضع شاخصاً اثار تلك الليالي التي مرَّت بصفوها ابصر على اطراف الستار المدلى في آخر الخزانة بقعاً حمراء فتقدم ليتحققها فاذا بها اثار دم فصاح مرعوباً . هنا كان موضع قتلها . ثم ارتد الى الوراء اتقاء المكائد التي كان يحذر منها في ذلك المهيل وقفل راجعاً بعد اذ عرف ما تحرى معرفتهُ فاقفل الباب ودخل في الرواق يريد السلم الكبرى المؤدية الى الرحبة واذ بلغ اعلاها فابصر نور مصابيح العربة سري عنهُ وسكن بالهُ فانحدر الى الساحة وهو يقول . كدت اقضي من الهول



الفصل السادس

الغلاف الرمادي

ثم ركب ادمون العربة وعاد يطوي الطريق الى ان بلغ الشانزليزة وهناك ادهشتهُ حركات الناس المنتشرين في تلك الانحاء واذهلتهُ نغمات المتلهين في الحانات عما كان قد نابهُ من غصص الاتراح وعوارض الخوف في قصر دي مانسينياك فزال عنهُ بادي الهم وخافيهِ واسمعهُ قلبهُ حديث حبهِ وامانيهِ . فقال في نفسهِ ما عليَّ الان الاَّ ملافاة الاخطار المحدقة بجنة فلا بد ان اصرف عنها موبقات الدهر وغارات الفقر. ولما كان نطاق الافكار يزيد انساعاً على اثر الازمات التي تعرض للانسان في ادوار حياتهِ رأى سارتيلي ان يدبر الحيلة لانقاذ خطيبته مما يتوعدها بهِ الزمان فقال . ان وجه الدفاع عنها سهل جدًا من قبيل المال ولكن ما الحيلة اذا تعذر عليَّ تنفيذ رغائبها عجلاً لانني لو طلبت المال من باريس بوجوه الحيلة كلها لحال دون نيلهِ ذيوع السر واعلان الامر ولو طلبتهُ من القرى والضواحي لما تيسر لي ايجاد مشترٍ يؤديني الثمن معجلاً وهب اني احرزت المال فما الوسيلة الى اقناع جنة بقبولهِ وقد انكرت عليَّ من قبل ذلك

واذ كان قد بلغ من طريقهِ حدود منزلهِ كاد جوادهُ يطأ بسنابكهِ رجلا كان كامنًا في الطريق ففرَّ من امام سارتيلي فرار الظبي المذعور فحدثهُ قلبهُ على اثر ما اوعب ذهنهُ من الحكايات والقصص الغريبة ان الرجل الذي كرَّ

امامهُ هو روجه فحاول مطاردة هذا الوهم فابى الاَّ الرسوخ في عقلهِ وقد زاده تمكيناً ما اخطره ببالهِ حديث حنة في هذا الشان

ان حنة كانت لم تزل تعتقد بحياة اخيها وقد باحت بذلك في حديثها الاخير مع ادمون دون ان تصادف معترضاً عليهِ فاتخذ سارتيلي هذا الاعتقاد حيلة يتوصل بها الى اقناع خطيبتهِ على قبول المال فدفع حينئذٍ عنان الجواد الى طوبيا فترجل وسار توًّا الى غرفتهِ فاستلقى على كرسيهِ يعمل الفكرة في تدبير ما عنَّ لهُ وما بدا . فقال ان اعتقاد حنة ببقاء روجه في قيد الحياة يسهل عليَّ احراز المال ونقدية لها وذلك بطريقة سهلة جدًا فانني ابعث بهِ اليها قائلاً لها — ان روجه لما علم بما ينالكِ من ازعاج الدائن اثناء تغيبهِ عهد اليَّ بالوفاء . وبهذه الطريقة ايضاً يتسنى لي ان آخذ المال من باريس دون قلق لان جميع من عرف روجه وآلنة لا يخفى عنهُ تغيبه مرارًا وعودته تلهيـًا فاعتمد سارتيلي على هذه الحيلة وآلى على نفسهِ تنفيذها في الغد بعد مقابلـة المسجل كالمت واتفاقه معهُ على تاجيل المبلغ الى حين وتوقيف الدائن عن بيع القصر . لكنهُ ما لبث مترددًا في امر وهو انهُ لا بد ان يقرن المال بكتاب مخصوص لينفي الشبهات ويصون نزاهة خطيبتهِ من كل وصمة وكان يابى ان يفتعل كتاباً باسم روجه او ان يرسل رسولاً في هذا السبيل . ولشدة ما امعن في تدبير الحيلة وضح لهُ فكرٌ ثاقب لاقى لديهِ العمل بهِ فقال ما ضرَّ لو راجعت الاوراق والرسائل التي كانت ترد اليَّ من روجه بشان مسائل مالية ربما كنت اجد في جملتها رسالة تشير الى ما نحن في صدده . فعمد للحال الى سحابتهِ واخذ ينشر ما وعت من الرقاع والرسائل فقرأها كلها فلم يعثر على كتاب استوفى الشروط المطلوبة فراح الى الثانية ففتحها ونقب فيها وبينا كان ينشر ما وسعت من الصكوك والرسائل المهمة عثر على غلاف مختوم بشمع اسود قد كتبت عليهِ يد روجه دي مانسينياك هذا العنوان « لصديقي ادمون ان يفتحهُ بعد وفاتي » فانذهل ادمون اذ رآه وما لبث برهة الاَّ فضَّ عجبةً من الامر

فتذكر انهُ منذ خمس سنوات كان قد دفعهُ اليهِ روجه ولما كان سارتيلي يعبث احيانًا بمرام صديقهِ اخذ الكتاب فالقاه في سحابة صكوكه المهمة دون ان يبالي بما انطوى عليهِ فبقي مطويًا على غرّه . ثم تذكر الساعة التي استلم فيها الكتاب فروي انهُ في ليلة من ليالي الصفا بينا كان اصدقاء روجه يحتفلون في المنتدى احتفاء بعودتهِ سالمًا جرى بينهم ذكر الخمر وما يقارنها من دواعي اللذة والطرب الى ان افضى بهم الكلام الى الخوض في حديث ذي بال فقال احدهم

— بلغني ان احد النزلاء الاغنياء في باريس مات فجأة عن امرأة واولاد لم يعثروا على شيء من ثروة والدهم . فجدوا بالبحث والتحري عن مال الفقيد فذهب جدهم عبثًا على انني متيقن بان الرجل كان ذا ثروة طائلة وقد اقام في باريس نحوًا من ثلاثين عامًا

فاخذ كل من الحاضرين يقشر عصاه ويكشف عن خواطره الى ان وقع الكلام على احدهم فقال

— ربما كانت ثروة هذا الرجل متوقفة على حياتهِ فذهبت بوفاتهِ وكثيرًا ما يحدث ذلك للمتقاعدين عن الاعمال او ربما كان لهذا الميت تجارة خفية عفت رسمها الايام فدفنت معهُ فصدق الكل هذا الاّ مانسيناك

ففطن سارتيلي لهذه القصة حتى انها اخطرت ببالهِ رأي صديقهِ روجه في المسئلة اذ قال

— لا غرابة في ما سمعت عن الرجل وهو «جون فارنهام» فقد يعن لبعض الناس ان يبدلوا اموالهم فيخبئوها وهم ذاهلون عن العوارض التي تعرض لهم في الحياة فتقعدهم عن الوصول الى استعمالها والانتفاع بها

ولما انتهى بهم الحديث الى هذه النتيجة نهض جميعهم للانصراف من المنتدى فارفض سارتيلي وروجه معًا وقبل ان يبلغا من مسيرهما الى زاوية محلة استورج مدّ روجه يده لوداع رفيقهِ فاودعهُ الغلاف الذي ذكرناه قائلاً لهُ — «اني ائتمنك عليهِ الى حين اطالبك بهِ» واستانف السير عجلاً فقبض الفيكونت

على الغلاف ولم يبصر بالعنوان الاّ عند النوم فتعجب من السر المكنون في هذه الوديعة ولما كان على امل ان يلقى صديقهُ غدًا القى الغلاف في السحابة ونام ساكن البال . ففي الغد قصد ادمون منزل صديقهِ فالفاهُ متغيبًا وفي خلال تغيبه سافر سارتيلي الى المانيا فاقام فيها مدة طويلة ثم عاد الى باريس فسأل عن صديقهِ روجه فأُخبر انهُ ذهب الى القنص في بورغونيا ولما توالى الزمان على تغيبها اغفل ادمون الكتاب فبقي مدفونًا في السحابة الى اليوم الذي اقتضى نشره عرضًا

فقال سارتيلي في نفسهِ لا بد ان يكون قد تلافى روجه فيهِ ما وقع لجون فارنهام فاودع هذا الغلاف الرمادي سره المصون · وكان يقلب الغلاف بيده فيقرأ عنوانهُ وهو يوجس خيفة مما اسره فتدفعهُ الرغبة بالوقوف على جلية الامر الى فضهِ فيمنعهُ الخوف ويصده فقام لديهِ مقام الطامع في شيء اعجبهُ ظاهره فاراعهُ خافيه فلا يجسر ان يخاطر بنفسهِ دون ادراكهِ . على ان التوفيق اتاه بحل المعضلة وكشف لهُ عن اسباب همهِ من تغيب روجه فابى الاّ التشيع للوهم والقلق . فناجى نفسهُ قائلاً — ترى ما ادّخر هذا الكتاب من العلم وما عسى ان يكون السر الذي اودعهُ مانسينياك غلافًا ضعيفًا . فلبث برهةً في حيرة من اوهامهِ كما قضى عجبًا من الحقيقة التي بعثت لهُ من قديم ايامهِ فنبهتهُ الى المقارنة بين ما كانت عليهِ سيرة روجه وما صارت اليهِ فقال . ان اليوم الذي دفع اليّ روجه فيهِ الكتاب يتفق مع اليوم الذي وفى فيهِ قسمًا مما لزمهُ لدي نوريف واخالني اصبت اذ سمعت المسجل يقول انهُ قد ادى العام الماضي ادى نوريف مبلغًا قيمتهُ اربعمائة فرنك وما زال يفكر في تحقيق اجل الدفع في الماضي حتى تبين لهُ انهُ كان في غاية نيسان عام ١٨٤٢ فترجح عنده ان روجه كان عالمًا اذن بسوء مصيره وان ما اوجب تغيبه المتواتر في ذلك الحين الاّ دين دي نوريف فبناء عليهِ كان هذا الباغي هو المجد في نقو يض اركان عائلة دي مانسينياك واشتد خوفهُ اذ بلغ الحقد حد الفتك بخطيبتهِ وموضوع حبهِ . فهاج

هذا الفكر غيرة سارتيلي على اتلاف العدو فقال في نفسهِ . ان سبيل النجاة لفي هذا الكتاب فمدّ يده ليفض الختم وينزع الغلاف فصده العنوان بقولهِ « ليفتح بعد وفاتي » فتوقف وقال – ترى هل مات روجه حقًا . لا اعلم ربما كان الامر حقيقة وربما كان وهمًا فاذا صدق الوهم وكذب الخبر فلمَ الجّ في ابتلاء سرائره

آه لو كنت اعلم ان قد اودع هذا الغلاف، صك الوصاية او شيئًا آخر مما يعود نفعهُ على حنة لما ترددت في فضهِ ولكن لا بد ان يكون قد انطوى على اسرارٍ حملت روجه على كتمانها خوف الغوائل فاودعنيها لتشهر وتذاع بعد وفاتهِ . فمن حقوق الامانة اذن ان اقوم على العهد فلا انكثهُ بل احافظ على ولاء صديقي الى آخر دقيقة من حياتي

فلبث سارتيلي في حيرة عظيمة من امر هذا الكتاب تارة ينظر اليهِ مزعوجًا من الريب الذي وقع في نفسهِ منهُ وتارة اخرى يناجي نفسهُ بفضهِ حرصًا على مصلحة حنة لعلّ بهِ شيئًا يفيدها خيرًا وما زال يتردد بين الامرين الى ان تغلب عليهِ عامل الحب فالهاه عنهُ واخطر ببالهِ كل ما مرَّ بهِ من الحوادث المفجعة وما جرى بينهُ وبين جوترا الثقاف من الاحاديث في شان البحث عن اسبابها فتمثل لهُ اخيرًا رسم دي نوريف فنزع من نفسهِ الخوف وثار فيها ثائر الحقد عليهِ فنهض من مكانهِ كالاسد الطاوي فجال في المجال بوسع الخطا شان من يسعى وراء فريسته فقال – تبًا لهُ من سفاك ذميم وفاتك اثيم هو هو الذي سطا على تلك المرأة وفتك بصديقي روجه . فما الذي صدني عن قتلهِ ساعة وقفت به في منزله وقد اراني شبيهة تلك المظلومة . أاقوى بعد ذلك على الصبر قهرًا واذ بلغ من حنقه حد الذهول اسرع الى الكتاب ففضهُ ونزع الغلاف فبان من ورائهِ رقع متباينة الالوان متضاربة الاشكال وقد عقد عليها بنود حمراء فقال ادمون لاشك ان هذه الرسائل كانت غرامية فرفع يده عنها وقال لا يسوغ لي ان انشرها وقد كتب على ظاهرها « لتحرق بعد وفاتي »

ثم وضعها في السحابة مخافة ان تدفعهُ رغبتهُ الى الاطلاع عليها و بينا كان برصفها عثر في جملتها على رقعة منفردة قد كتبت بخط روجه فخفق قلب ادمون عند مرآها وما زال الوهم يعمل في صدره الى ان تغلب عليهِ فنشرها وقرأ ما فيها وهو:

« عزيزي ادمون

« انني اسالك العذر فيما ابسطهُ لديك وما اركن بهِ اليك فان الزمان
« الذي زاد عرى مودتنا توثقًا دعاني الى استنجادك والانتفاع بمودتك. فلا
« تخيب رجاء من يتكل بعد الله عليك

« لئن كنت قد اودعت هذا الكتاب آخر رغائبي ومرامي وطويتهُ على
« ما وجب عليَّ وفاؤهُ قبل انصرام حبل ايامي فلا اطلب اليك تنفيذه عاجلاً
« وقد متعني الله بالبقاء وامدني بالحياة في حيرة لا تنقضي قبل خمسة اعوام
« واملي ان ابلغ الغاية سالمًا آمنًا من المنية وعندي من اسباب الوقاية ما
« يوطد آمالي و يعزز رجائي . دونك شرح الحال التي وقفت عليها في الحال

« ما كان يا حبيبي الجائي عن اشتغالي بالدرهم الزيف ولا عن تفرغي
« لدس الدسائس ونصب المكائد لكنها الحاجة وقاك الله دواعيها قضت ان
« اقف موقفًا تتبرأ منهُ نفوس الكرام وتنتصل من غوائلهِ عزائم النبلاء . ولا سبيل
« لي الآن للخوض في هذا المعنى فاتا في بيانه الى حين اجتمع بك فاجلو
« لك ما بطن من الامر وما ظهر

« اما الآن فغناماك ان تعلم انني دفعت لاسباب مهمة ستتصل بك
« مستانفًا الى تبديل عقار ابي لاحجبهُ عن العيون ولا يداخلك ريب من
« حيلتي فان ثروة ابي قد زادت قدرًا فلم اهدر منها شيئًا وقد وضعتها في
« مكان حريز لا يدري به حي على وجه البسيطة . وانا الآن في امن من
« طوارق الزمان في كل ما سعيت فيهِ واسعى وحياتي بيد الله لا يدانيها بشرٌ
« بشرٌ حتى اذا شاء ربك بانصرام اجلي كنت لي عضدًا وساعدًا قويًا اعتمد

« عليك في ما بقي من امري في هذه الدنيا
« اناشدك الله واستحلفك عليك الا رعيت بعين العناية شؤون حنة
« وتداركتها بحكمتك وهمتك ابسط لمساعدتها يدًا تدفع عنها مكامن العدى
« وتنقذها من شرهم وغدرهم لا تسمح ان تؤآخذ باثامي . احرص على مالها
« ودارها اياك ان تغفل مصلحتها فتدع المطامع تعبث بها فتحرمها سكناها
« ثم اعلم انه اذا توفاني الله قبل استرجاع ما اودعت يمينك فاعمل بما
« اشير به اليك والله خليفتي عليك ادخل يا ادمون الى خزانة الكتب التي
« جمعتنا مرارًا واعمد الى المؤلفات المرصوفة في الخزانة التي اتحفتني بهـا فخذ
« الجلد السابع عن يسارك واطلب منه الصفحة الـ ١١٩ وامعن الفكرة في بدء ما
« خط في السطر التاسع الى السابع والعشرين وحسبك ما تقراه هداية لك في
« سبيل عملك
« ثم اذهب بنفسك يا اخي الى الموضع الذي فيه كنز حنة فانتزعه خشية
« الضياع وعد به اليها فاطلعها على كتابي واذكر عندئذٍ من نشر ذكرك حتى
« انطوى في رمسه . املي ان تقترن بها فتقوم مقامي بقربها
« وداعًا يا شقيق الروح وعفوًا عما ابهظت به عاتقك فوق ما يكتنفك
« من اعباء الاعمال . وقد قيل ان في المهات تعرف الرجال
« روجه دي مانسيناك »

ثم جعل في الذيل ما يأتي
« احرق ما اودعت الغلاف من الرسائل واياك ان تفضها او تجد في
« معرفة محبرها عدني بالوفاء ازاء الله في ما عهدت به اليك واغنم اجري »
ان هذا الكتاب اشغل خواطر سارتيلي وزاده حيرة وارتباكًا فلم يأنس منه سبيلاً قاصدًا لانقاذ المال المخبوء بل اضاف الى همومه همًا ما كان في نفسه من اثر تلك الحوادث المجعة . واضرب عن الاعداء الذين يحرون الفتك بآل دي مانسيناك واغفل ذكر دي نوريف الذي رمى المركيز في هوة من

المخاطر لا مناص له منها وقصارى الكلام ان الكتاب لم ينفذ ادمون الاّ اتفاق اجل الدين من قبل ومن بعد مع اجل الحوادث التي جرت اول امس حسبما جاء في نص الرسالة وهو:

«حتى اذا انقضت الخمسة الاعوام نجوت من مكائد الاعداء الذين
«دفعوني الى تبديل عناري وفزت بهم فبرزت من عالم الخفاء الى الظهور
«التام»

فاندهل سارتيلي من معنى هذه السطور فقال في نفسه وقد تالبت اليه الخواطر . ان الاجل المسى قد حان وكان من الواجب ان يتم كلام دي مانسيناك ويتحقق نباؤه وقد جدّ دي نوريف في مقاضاته من اول امس اليوم الذي سماه . فلا بد ان يكون العدو قد فتك بالمركيز عند دنو اجل الدين فضرب على آخر فرع هذه العائلة . لكن ويلاه من يأتيني بالخبر الاكيد عن الجاني الذي لم يكتف بقتل روجه بل تعرض لقتل تلك المرأة الغريبة فما نسبها الى المركيز وما الداعي الى ضمها معًا تحت جريمة واحدة ليلفيا حظًا واحدًا . لا ريب ان سرّ القتل قد اودع هذه الرسائل المطوية فقبض عليها ادمون بيده فعبقت منها رائحة ذكية فقال هذه هي الرسائل الغرامية التي كانت محنطة الدم . فحدثته الرغبة في استجلاء الغامض الى فضها فابت نفسه الخيانة والاخلاف ومنعته من انتزاعها لان الوهم ببقاء روجه لم يصده من قبل عن فض الكتاب خلافًا للوصية وهذا الوهم عينه كف يده عن انتزاع الرسائل فالقاها في السحابة واودع محفظته كتاب روجه . ثم حوّل افكاره الى معنى ما جاء في الكتاب وكلما تاملها وتبحر في معناها زاد ارتباكًا وقلقًا فقال ان احتراز مانسيناك كان لا شك ناشئًا عن خوف الرقباء ولذلك رأى ان يبدل عناره ويستر افكاره فلم يودع اسراره الاّ قلبي ثم تذكر ادمون قصة الخزانة التي اتحفه بها ولكن خاف ان يضل سبيل الاهتداء اليها لكثرة امثالها في خزانة الكتب فضلاً عن ذلك ان اقتحام المخاوف مرة اخرى بعد ما

عانى من الرعب والوجل ما عانى في تلك الخزانة الهائلة كان كافيًا لاقعاد سارتيلي عن تجديد السعي فاجل البحث في هذا الشان الى يوم تجلو بهِ افكاره ويسكن اضطرابه

ولما كان قد اجهده الفكر واعياه البحث مال الى الراحة وصبا الى الاعتزال عن الحال التي بات فيها منذ ايام فقام من مكانهِ ودعا بخادم الغرفة فالبسهُ ثيابهُ وانطلق من منزلهِ الى المنتدي حيث كان يرجو الراحة وزوال الهموم

ولا غروَ فان العقل اذا اضنيتهُ ملَّ وكبا فعنَّ لسارتيلي ان ينهج ثمت نهجهُ اذ كان صبيًا وهو ان يقصد التنزه كلما عرض لهُ معضلة وكثيرًا ما كان يجد حلها في اللهو واوقات السرور . فقام للحال قاصدًا المنتدى للعشاء فافرغ للحال ذهنهُ من تلك الصور المزعجة التي كانت قد رسخت فيهِ منذ ايام وابعد منهُ كل الاوهام التي انبطت في صدره فبدل عيشهُ ولما بلغ الباب وقف برهة يفكر باسباب اللهو التي يتخذها تلك الليلة لان ادمون كان ذا نفسٍ لا تقبل التمويه والمداجاة فرأى ان من الصعب ان يسليها حين غمها فوكل امره الى حسنات الزمان وصعد الدرج توًّا الى الردهة فاستقبلهُ الكل بتصدية الايدي وترحبوا بهِ فرحين بلقياه بعد تغيب طويل . لانهُ كما علمنا قبلاً ان سارتيلي كان قد انقطع عن مثابات اللهو والملاهي لما كان يتقسمهُ من الخواطر تارة في الراس المقطوع وطورًا في الثقاف والمال وغير ذلك من الحوادث والعوارض التي آنستهُ ايامًا اوحشتهُ فيها الراحة . اما اصدقاؤه وخلانه فكانوا قد ظنوا ان انحجابه عنهم تلك المدة لم يكن الاَّ عن رغبة في الزواج القريب

فلما دخل سارتيلي النادي احتفى بهِ اخوانهُ وداروا من حولهِ كالهالة فاخذوا يحدثونهُ احاديث مطربة ويطارحونهُ الالغاز والمعميات المضحكة فسري عنهُ قليلاً وانجلى همهُ فانتظم في سلكهم واخذ معهم باطراف الحديث على هواهم فتنقلوا بهِ من الطيب الى الخبيث جريًا على عوائد المتلهين في المعاهد الخصوصية تارة يقدحون في هذا وطورًا يمدحون ذاك الى ان ساقهم الحديث

والحديث ذو شجون الى ذكر احدى اللاعبات في المراقص فقابل احدهم غرابة ما فعلت بما حدث للمرأة ذات الفرع الاصهب

فطرقت هذه العبارة اذن سارتيلي فاهتز من اثرها اهتزازًا شديدًا فنغصت عيشة وبدلت افراحة بالاتراح فهمّ بالانصراف بريد التخلف عن ذاك المكان الذي ظن فيه راحة باله فاقعده تحويل الحديث وتوجيهه وجهة بعيدة عن مواطن الريب. ان الرجل الذي لفظ تلك الجملة عرضًا كان ملازمًا وقد أَلِف لسانهُ الطعن والنميمة بطريقة المزاح عن غير مرام او غرض في النفس وكان يرود اخبار البلاد فيحفظها ليفكه اقرانهُ بقصها عليهم آن اللهو . فلما سمع الجميع الماعه الى حادثة المرأة صاحوا بصوت واحد

— قصها علينا يا شاتوبرن

فاصاخ ايضًا سارتيلي سمعًا اليوبريد ان يستفيد الاخبار التي تتناقلها السن العموم عن هذه المسئلة

فجلس الملازم على كرسيهِ وقال — انعلمون اصحابي عمن اريد الكلام

فاجابوه جميعًا — كيف لا عن المرأة الحسناء التي تطوف البلد مارة كل يوم بالشانزليزه

— اصبتم اخواني وقد حرمتم مرآها خصوصًا انت يا « برتي » فقد كفتك مؤونة النصب

— ما السبب بالله عجل بالايضاح

— انها قتلت ليلة الرقص

فتاسف الكل متعجبين من هذا الامر وتساءلوا عما كان الباعث الى الجناية ثم سألهُ كل منهم بمفرده قائلين

— هل قرأت الخبر في جريدة « المحاكم » ام هل لك اصدقاء في دار الشرطة

— انني في غنى عن كل هذا فان الاخبار التي تلقيتها كانت من مصدر ثقة لا شبهة فيهِ وما اظنكم تنكرون عليَّ صحة الرواية اذا اسندتها الى رجل

اخذ الراس المقطوع بيده

— كيف تدعي صحة الخبر وقد رأيتها اليوم مرأى العين تخطر على عربة في الشانزليزه

فقال السامعون — ايكما اصدق في ما روى وما حجة كل منكما عليه

فعندما سمع سارتيلي تاكيد برسي زاد انتباهاً وكأن اذنه قد وقفت في مشكاة باصرته عساه ان توفق الى الوقوف على حقيقة الشبه بين المرأتين

قال الملازم — متى عرفتم شهودي زال الريب ووضحت الحقيقة فان المصدر «كورالي» العضد الاول في جوق الموسيقى الملكية

فصاح كلهم متضاحكين — ما اصدق الشهود وما اولاهم بالثقة

فاعترضهم شاتوبرن قائلاً — ان هذه السيدة مشهورة بالصدق فضلاً عن ذلك انها لم تكن وحدها ومعها «اليز» دي فارباني» بابونات» اللاعبات في «الملاهي الهزلية» وثلاثة رجال ايضاً

— فمن هم اولئك الرجال

— البارون بولار صاحب الزي الغريب وفتى من جناف قد نسيت اسمه وشخص آخر . . . .

فارتعد سارتيلي من كلامه فبات من وقعه كأنه على مثل جمر الغضا ثم اخذ الملازم يفكر في نفسه و ينبهها الى الشخص فما عتم ان صاح — عجباه كيف ذهلت عن معرفة اسم من هو لدينا وقد قام اليوم من عالم الاموات . ثم دنا منه وقال له

— ما بالك ايها الفيكونت قد اعتمدت عليّ في قص رواية انت اعلم بوقائعها مني

فحدجته عندئذٍ العيون وقد تبدل وجهه بالغضب بعد ما كان مكمداً من الكدر والغم فقالوا له

— هات ايها الفيكونت ما عندك من تفاصيل الحادثة

فسكن الفيكونت جأشهُ واجاب بكل سكينة ورفق — لقد صدق شاتو برن وبرسي فيما رَوَياه عن الراس المقطوع ولكن ليس هو راس المرأة التي اشارا اليها وقد غمني جدًّا تهوّري عرضًا في مسئلة اوقفتني نهاري كلهُ في دار الشرطة ثم افاض سارتيلي في ذكر الحادثة صارفًا النظر عن كل ما يتعلق بصديقةِ زوجه

فصدق كلهم الرواية واكتفوا بما وعوا من امرها الّا واحدٌ منهم واذ احبوا تحويل الحديث الى جهة اعترض الملازم على الكلام بقولهِ

— انني علمت من السيدة كورالي اموراً اخرى ضرب عنها صاحبنا سارتيلي

ان المعترض كان رجلاً بروسيويا يدعى «دونا» قد دخل حديثًا في تبعة روسيا وانتظم في سلك من ينتاب المنتدى فالفهُ بعضهم لثروتهِ وحسن معاشرتهِ اما سارتيلي فكان ينفر منهُ ويتجنبهُ . فامتعض اذ ذاك من كلامهِ بوجه الاعتراض واجابهُ بكلام يشف عن ازدراء بهِ فقال

— ان كورالي هي ارفع من ان تقارن رجلاً مثلي فاتخلى لك عن شرف التعرف بها وحظ التقرب منها

فطوى دونا عن هذا الجواب كشحًا واستطرد كلامهُ قائلاً

— اخبرتني كورالي ايضًا ان المركيز دي مانسينياك كان مخاصرًا تلك المرأة اثناء المرقص حتى اذا ارفض الجمهور خرج من النادي الى حيث لم تحجبها عين

فقال الملازم — صدقت ومما يوّيد كلامك تغيب مانسينياك عنا منذ يومين

فخان عندئذٍ سارتيلي الجلد واشتعل قلبهُ حقدًا فقال

— ما لكم وشان مانسينياك لستم بشيء من احمالهِ كلها فاعدلوا عن الكلام بهذا المعنى الى ما يهمكم من شوؤنكم

فاجابهُ دونا بكل سكينة — لا يهمنا من امرهِ شيء ولكن جاء ذكره في عرض الكلام فخضنا فيهِ شاننا في غير ذلك من الاحاديث وما اعلم ايضاً عنهُ فيهمني الآن ذكره انهُ مديون لاحد اصدقائي بمبلغ جسيم وقد توارى عن العيان احتيالاً

فاشتد غيظ سارتيلي وقال — كذب من شهد بذلك

فلم يتاثر دونا من حديثهِ وتدرَّع بالصبر فقال — لقد جرت يا صاح في عذلي واحتقاري فاني اطالبك بالتعويض فتهياْ اذن غداً لاستقبال صديقين يوافيانك في منزلك

— اهلاً بهما

وانصرف سارتيلي من المنتدى والشرر ينبعث من عينيهِ كانهما جذوتا نار

الفصل السابع



الخائنة الانكليزية

فاخذ ادمون في طريقهِ ليلاً وما بين جنبيهِ قلب يتلهب غمّاً فبكى لعثرات امالهِ وشكا سوء حالهِ فقال طالبت في قدومي الى المنتدى الراحة فما نلت الاَّ العناء وما كفى الزمان معارضتي بانواع البلايا وصنوف الرزايا حتى احرمني السرور وكرَّ في اثري شرٌّ ولا كالشرور يسوم نفسي البلية ويتقاضاها الى المنية

ان ادمون لم يكن ليبالي بغوائل البراز الذي عرّض حياتهُ اليهِ ولكنهُ كان يود لو نكب عنهُ اتقاء اذاعة امره بين الناس وخوف اشتهار الاسباب التي دعتهُ اليهِ واعتلان تغيب روجه فضلاً عن ذلك انهُ كان قد اخذ على عاتقهِ امر الدفاع عن حنة والعناية بها فاعتد اذذاك نفسهُ مخطئاً بالاقدام على الموت والتفريط بحقوق لزمتهُ دون نجاتها ولو استبطنا سرائر سارتيلي من وجه آخر وقرأنا ما نقش على صفحات جنانهِ لتأكدنا سروره بما ساقتهُ التقادير اليهِ في مجالٍ يتسنى لهُ ان يتشفى من غيظهِ في منازلة صديق دي نوريف عدوه المبين ولذلك بات يتوقع بزوغ فجر الغد جازعاً

ولشدة ما كان قد نابهُ من الكدر وما فعل فيهِ الغيظ اثناء وقوفهِ في المنتدى ذهل عن الغاية التي دخلهُ من اجلها فزايلهُ طاوي الحشا لا يهتدي الى طريقهِ من الغضب والحدة التي بلغت من نفسهِ حد الشدة فاوغل في جادة المادلين بريد كالوف عادتهِ محلة استورج واذ كانت الهواجس قد استغرقت افكاره وغشت على ابصاره تجاوز في مسيره الحد ولم يدرِ فتوسط شارع سانتونوري وجاز منهُ الى « دي رول » ومنهُ الى محلة « دي ترن » فاذنت ثم الساعة بالثامنة . وكان الغيم قد طبق اعنان السماء فانفجرت عيونها يتدفق منها السيل كافواه القرب فامعن الناس في السير بسفح الجدران ملتحفين باورديتهم لا يلوون على احد ومازال سارتيلي سائرًا على غير هدى في تلك المجاهل تكتنفهُ الظلماء وتطارده سيول الماء الى ان افضى الى سور حديقة غير نافذ فارعوى عن غيهِ واغفل كل ما كان يتعاوره من المخاوف والخاطر فعاد الى نفسهِ فطالبها بالهدى واول ما ناجتهُ بهِ كان ان يكتري لهُ عربة للعود الى باريس ولكن انى لهُ ذلك في تلك المضايق فحار ادمون في امره وقد تعذر عليهِ العود ماشياً الى موطنهِ فاضناه الجوع وانضاه السير فحاول جهده الالتجاء الى منزلٍ في تلك الاطراف فاخذ طريقاً ربما كانت محلة «الرفولت» وبيناهو على تلك الحال كلهُ عيون شاخصة ابصر عن بعد ضوء مصباح فعشا اليهِ

ومازال يجد الى ان بلغهُ وكان يتلألأ في اعلى باب حديقة مفتوح يتبين الناظر حيالهُ لوحًا في عنوانهِ « حانة انكليزية » فزال همّ ادمون وسري عنهُ . ولما كانت تلك الحانة في جيرة غاب بولونيا والشانزليزه انتابها الساقة والخدم الانكليز القائمون في باريس . فدخل سارنيلي الحديقة متخطيًا الى الحانة وكانت مبنية بالخشب على شكل سرادق توفرت فيها الغرف والمبايت وقبل ان يبلغها رأى من النوافذ المضاءة كثرة عدد المتلهين فيها فتقدم الى الباب ودخل تحت رواق الدخان المعقود في انحائها فقلب انظاره في الغرف فوجدها ضيقة جدًا يفصل بينها حاجز من خشب فتبوأ سارنيلي غرفة خالية وطلب الى الغلام ان يأتيه بما تهيأ لديهِ من الطعام فلباه فاكل ما فيهِ شبع من جوع وقام الى المتكأ فجلس يفكر بما يصرف عنهُ اثقال الغد فقال في نفسهِ . ما الحيلة في الاجتماع بالمجال والذهاب للبحث في الخزانة عما اشار اليهِ صديقي روجه وقد جدّ حادث البراز فاشغلني بمقتضياته . وبينا هو مرتبك الفكر طرق اذنهُ صوت بعض الساقة المتالين في الغرفة المجاورة يتحدثون بينهم بحديث ارتج عليهِ بيانه لاختلاف لغاتهم فمنهم من كان يخاطب بالانكليزية من يجيبهُ بالالمانية ومنهم من كان يناظر بالافرنسية من يعترض عليهِ بالروسية . واذ وقع الكلام على الجرماني اصاخ سارنيلي سمعًا اليهِ ولم يجسر ان يتعرض لاولئك الخلطاء خوف الخزلان فاقتصر على السماع دريًا فكان يفهم من حديثهم المختلط عبارة ويفوتهُ عشرًا . فعبث اولاً بمرامي كلامهم وما لبث ان اصاب غرضًا اتاه بفائدة من مساجلاتهم معًا

قال الالماني — لقد فتنهم عن قصدهم وابرم عليهم بحديثهِ

قال الانكليزي — صدقت

فسأل الفرنسوي — انيّ اتصل بهِ الامر وما كانت ذرائعهُ

فاجابهُ الالماني بحديث استخف الجميع عند سماعهِ الطرب وتضاحكوا منهُ فاستأنف المحدثان الاولان كلامهما فقالا — ولا عجب فان رئيسهُ لمن

المجربين

فتلاها الانكليزي بقوله — لو اعتراض دهاء هذا الرئيس دون حيلتنا لنجحنا تمامًا وعبثنا بمراقبة الفتاة

ثم تكلم الالماني كلامًا مبهما يستدل من الفاظهِ على التهديد فاجابهُ الفرنسوي ضاحكًا

— لا تلام اذا حملت عليهِ فقد خدعك صباح ذاك اليوم ولو لم تعدُ عدو الارنب لما نجوت منهُ

فقال الانكليزي مخاطبًا الالماني – كنت قد فهمت من كلامك قبلاً ان سيقضي عليهِ فتتخلص منهُ وباي الذرائع

ثم امسك المحدثون عن كلامهم عندما سمعناه فتعجب سارتيلي وقال في نفسهِ . ترى هل ساقني التوفيق الى الطريق الذي بهِ اهتدي الى الجناة ثم سمع صوتًا خفيفًا رفع الى وجهتهِ راسهُ فابصر تحت الدخان المتكاثف راس رجل يطل من الحاجز اليهِ فدنا منهُ ليتحققهُ ففرَّ من امامهِ بسرعة اوهمت سارتيلي في ما رآه . فحار منذهلاً لم يدرِ كيف يصرف النظر في ما آلت اليه حالة في تلك الحانة فقال . ويلاه هل ينتاب الجن هذا المكان ما بالهم انقطعوا عن الكلام والتزموا السكوت التام فنهض من موضعهِ يريد ان يتحقق بعينهِ امرهم من خلال الحاجز فلم يرَ احدًا فارتبك من تغيبهم السريع فعزاه الى الفرار من شرّ يتقون ولا ريب فان مثل هولاء المتلهين لا يعتزلون عن معهد اللهو والطرب اتقاء الكد والنصب ولكنهم ابوا الوقوف في مكان لا يتيسر لهم فيهِ الحديث على هواهم دون رقيب . ثم قال لو راجعت ما مرَّ من احاديثهم لما وجدت فيهِ ما يبعثهم على التنكب عن المحل سريعًا ولا بد لذاك المطل من فوق الحاجز من قصة غريبة . ربما يكون قد عرفني فتجنبني بمن كان معهُ واخالني قد عرفت لهجة المتكلم باللغة الالمانية ولكن لا اتذكر عهد تلك المعرفة والموضع الذي وقفت بهِ فيهِ

ولما كان ادمون قد الف الحذر وتعود البحث عن كل امر ملتبس دعا بغلام الحانة ليستطلع منهُ طلع القارّين فمثل لديهِ بسالة حاجتهُ من المشروب فاضرب ادمون عن الجواب في هذا المعنى وسالهُ قائلاً

— هل لك معرفة بمن نزل الحانة منذ برهة

— ان لي مهمة غير هذه فما لي وللذين ينتابون هذا الموضع

فساء سارتيلي جواب الغلام وغلاظته ولكنهُ اضطر ان يصرف النظر عن تاديبهِ طمعاً في رغبتهِ منهُ فعمد الى الحيلة التي يوخذ بها الخدم في كل مكان . فالقى يده في جيبهِ واخرج منها قبصة من الدراهم فنفحهُ بها قائلاً

— انني كنت قد سمعت لهجة احد اصدقائي في الغرفة المجاورة وقد خرج قبل ان يفيض لي الزمان مقابلته فدعوت بك الي لاتاكد ذلك منك

فاجابهُ الغلام متضاحكاً — لست ممن تلهيهم اللهى فاعدل عن هذه الحيلة واعلم ان سيدي يابى استخدام من يؤخذ بحيلتك وانصرف من الغرفة تاركاً ادمون في ارتباك شديد من امره لانهُ كان يخشى ان تتصل هذه الحادثة التي مرّت بهِ بما لقيهُ من قبل وما زال على هذه الحال الى ان سمع الغلام يقص على سيده ما جرى لهُ معهُ فاسفر لهُ حديث الغلام عن السبب الذي من اجلهِ كان قد تجنبهُ بقولهِ . ان الرجل الذي دخل هذه الغرفة « مشيراً الى الموضع الذي جلس فيهِ ادمون » بريد ان يستغويني بالمال وما اظنهُ الاّ جاسوساً دخل الحانة ليخبر اخبار الخدم الذين كانوا فيها منذ برهة

وكان هذا الكلام بلغة خاصة بالخدم يتعذر على سارتيلي فهمها لو لم يكن قد سمع بها من قبل في رحلاتهِ الى القرى والضواحي في اطراف فرنسا . فادرك اذ ذاك ادمون من حديثهِ شيئاً مما كان يرغب في الوقوف عنده فعرف ان تلك العصبة كانت مؤلفة من الخدم الذين الفوا انتياب الحانة وثبت لديهِ نزاهة صاحبها خلافاً لما كان يعهد باصحابها قديماً فرأى ان الخروج منها اولى بهِ وابقى

فقام سارتيلي يتخطى الرواق بين غرف المتلهين الى ان بلغ باب الحديقة وكان واقفًا بهِ صاحب الحانة فادى لهُ ما عليهِ وانصرف عابثًا باوهام الغلام وسيده . وكانت الساعة قد آذنت بالعاشرة وقد صفا الجو فغاضت سواكبه وتلألأت كواكبه فعدل ادمون عن الطريق الذي كان قد اتخذه قبلاً ماشيًا وسار في شارع لارفولت بريد محلة دي نيلي حيث عزم الرجوع منها على العربة وكان الشارع ثمت قفرًا مظلمًا فاشتمل الفيكونت بشملتهِ والقى يديهِ في جيبهِ ليدرأ عنهما البرد القارس وجد يعدو عدوًا سريعًا كان يسمع لهُ ضجة بعيدة توهم ان سائرًا آخر يطارده فيمعن في جده فلم يزل تارة يسري وطورًا يقف حائرًا الى ان بلغ آخر حدود طريق لارفولت فابصر نور منازل «الرون بوان» ولشدة ما كان سيرهُ سريعًا دحضت رجلهُ على الثلج المنتشر على الحدود فسقط سقطة اوجعتهُ ورأى في سقوطهِ رجلين كأن الارض قد انشقت عنهما في ذاك الليل الدامس يهرولان اليهِ من جانب الطريق الآخر فنهض سارتيلي وجدد عزائمهُ في السير قاصدًا وجهة دي نيلي على امل ان يلقى في تلك الانحاء نصيرًا يدرأ عنهُ شرَّ مطارديه . فسار على هذا الامل مطمئنًا آمنًا يلتفت حينًا بعد حين الى ما وراءه ليتبين زيهما ولكن ظلمة الليل حالت دون مناه . واذ بلغ الرون بوان لاح لهُ انفصال احدهما عن الآخر فايقن اذ ذاك بالخطر وثبت لديهِ ان انجحابهُ كان ليعترض لهُ في طريقهِ ولما كان لا حيلة لهُ في الدفاع استانف المسير اعتمادًا على انس المحلة التي قصدها فاخذ يناجي نفسهُ بغرض الرجلين فتحدثهُ عنهما حديثًا مرجمًا فودَّ سارتيلي لو كانا من جملة الذين جلسوا في الحانة فيتيسر لهُ معرفتهما عند الوصول الى الحد المطلوب . ولنكد طالعهِ لم يطلع عليهِ نور طول المسافة ولم يأنس بجيءٍ يسعى في عرض محلة دي نيلي فثنى في سيره ثنية الرون بوان بريد موضع 'قوس النصر' وقبل ان يعطف على زاوية في مضيق حيالهُ اعترض لهُ رجلٌ كالسارية فعاجلهُ بضربة اوجعت كتفهُ فتجرد لهُ ادمون اذ ذاك بعزيمة تحاكي عزائم الابطال في ساحة القتال

فوثب عليهِ وجعل رأسهُ في صدره فدفعهُ دفعة شديدة دعمت بهِ الجدار ثم قبض على رقبتهِ فضغطها حتى كادت تزهق روحه بين يديهِ فحاول ان يجذبهُ الى الارض فلم يستطع لعظم جثته فوقف بهِ سارتيلي ولم يسكن جاشهُ لان الخوف من مبادهة رفيقهِ المتاخر كان يحيك في صدره وبينا هو على هذه الحال طلع عليهِ من باب حانة مجاورة رجالٌ لعبت باعطافهم الخمرة فذعر الرفيق المجد في اثر ادمون فامعن في الفرار وغادر زميلهُ تحت ضغطة الفيكونت . ولما كانت عزائم المضغوط قد وهت لشدة ما لقيهُ من كف خصمهِ سقط على الارض يئن انين المحتضر فخطر لسارتيلي ان يتخلف عنهُ لئلاَّ يدهمهُ الآخرون ولكن رغبتهُ في استطلاع طلعهِ صدتهُ عن عزمهِ واوقفتهُ الى جانب خصمهِ فمال اليهِ ليتبين ملامحهُ فلم يرَ ما يبلو لهُ سره ففحص ثوبهُ فابصر عليهِ صدرة لا يلبسها الاَّ خدم الانكليز وسافتهم فاوهم انهُ هو ذاك الخادم الذي كان يتكلم بالانكليزية في الحانة التي مرَّ بنا ذكرها ولما كانت اطالة البحث والوقوف في ذاك الموضع تدفعهُ للتهم عوَّل سارتيلي على البعد منهُ قائلاً — لا بد ان اطلع جوترا على جلية هذا الحادث

ثم استانف السير لا يهمهُ من امر طريحهِ همٌّ الى ان وقف عند مدخل الشانزليزه وكان السير قد انضاه والألم مما نالهُ قد اضناه فركب العربة وجد بريد منزلهُ فبلغهُ باقل من عشرين دقيقة فترجل ودخل الحديقة فابصر نورًا في المربط فانثنى اليهِ ولما وقف بالباب وجد طوبيا السائق يتظاهر بمعالجة سنابك الجواد فسمع السائق وقع اقدام في الخارج فالتفت متحققًا فالفى سيده في الباب فاكمد وجهه واكفهر شان من يفاجئهُ الرقيب عند ارتكاب الجريمة فشعر سارتيلي باضطرابهِ فسالهُ قائلاً

— ما تعمل يا طوبيا ولِمَ لم ترقد حتى الساعة

— قد علمت يا مولاي بما دهم الجواد من الاذى فامرني البيطار ان ادلك قائمتهُ بهذا السيال ثلاثًا كل يوم

— لا اريد ان تدلك على ضوء المصباح فاخاف الحريق فقم وادعُ انطوان وتهيأ غداً للذهاب باكرًا جدًا

ثم انثنى ادمون يريد غرفته فصعد الدرج اليها ففتح الباب واشعل المصباح فنضا ثيابه واخذ يفحص الضربة التي خدرت ساعده وبينا هو على هذه الحال دخل انطوان فرآه مشتغلاً في معالجة كتفهِ

ان الضربة التي اصابته ولئن كانت غير واضحة الّا انها اضرَّت بساعده لا سيما في زمانٍ هو في حاجة قصوى اليهِ للدفاع عن نفسهِ ساعة البراز في الغد . فساله الغلام مدهوشًا

— ما دهاك يا مولاي وما اصابك

— دحضت رجلي عند الباب فاستقبلت العتبة بكتفي

ثم غاصت افكاره في عباب المسئلة التي تطالبه غدًا في مناصبة دونا ملتمسًا من نفسهِ حيلة يدفع بها عن عجزه فرأى اخيرًا ما اذهب عنهُ القلق فقال . ان موعدي غدًا صباحًا لمقابلة شهود دونا وعند المساء ارسل اليهِ شهودي لتقرير الشروط المقتضية فيمدد بهذه الطريقة اجل البراز الى ما بعد غدٍ فاكون في هذه المدة قد قابلت مسجل حنة ونظرت الكتاب الذي انبأني عنهُ روجه في الخزانة وتمكنت من معالجة كتفي . ولما سكن الى هذا الراي رفع راسهُ الى الغلام فساله قائلاً

— هل جاءني احد برسالة اثناء تغيبي

— دونك يا سيدي هذه الرسالة

فاخذها سارتيلي وتامل عنوانها فلم يتمكن من معرفة صاحب خطها ففضها للحال وقرأ ما كتب فيها :

« ايها الفيكونت

« جئت اعلن لك اقبال شهودي عليك غدًا صباحًا حتى اذا تقرر ماترونهُ « اتفاقًا بعثت حالاً ببيان شروطك ليتسنى لنا الاجتماع رأد الضحى . لان المهمة

« التي وكلتها اليّ الحكومة تدعوني الى السفر عجلاً من باريس فاريد اذن
« ان اني بما تطالبني بهِ قبل المساء فوق ما عليّ من حقوق اعتبارك
« البارون دي دونا »

فغضب سارتيلي من مفاد هذه الرسالة وتكدر جدًا لالحاح خصمهِ عليهِ بالمبارزة وكان انطوان لم يزل الى جانبهِ فقال لهُ

— مولاي ان الرسول الذي حمل اليك هذه الرسالة قال ان صاحبها على سفر يريد انجاز الامر عاجلاً ومن لهجة الرسول تبين لي انهُ الماني من ستراسبورج

— متى كان قدومهُ

— نحو الثامنة او بزيد قلقيهُ طوبيا في طريقهِ الى التنزه جريًا على عادتهِ مساء كل يوم فتبادل الكلام معهُ برهة من الزمان

فلم يعبأ ادمون بهذه الشكوى لان خبر العجلة في قضاء البراز كانت قد الهتهُ عما حولهُ وقصرت افكاره على البحث في حاضره فقام يمشي في الغرفة متمتمًا هذا الكلام – ترى هل درى دي دونا بما يدعوني اليهِ الغد في قصر دي مانسينياك فعزم على القطع بي دون ادراك امنيتي . وكان اضطرابه يزداد شيئًا فشيئًا لا لانهُ كان يخاف مناصبة دي دونا في البراز ولكن لتعذره عن مقابلة المبجل واكتشاف السر الذي اشار اليهِ روجه في الخزانة فما لبث على هذه الحال حتى لاح لانطوان اشتغال بالهِ . فسالهُ قائلاً

— ما بالك ياسيدي تمعن الفكرة في امرٍ ذي بال هل نقلت اليك الرسالة خبرًا مزعجًا

ولما كان سارتيلي يود انطوان ويتاكد خلوصه وحبه اجابهُ بكل رقة

— كلاً يا صاح ان اشتغالي في امورٍ مهمة قد اعدها لي الغد على ان اللصّ (الفكش) الذي نال كتفي بجولٍ دون القيام بها

فما صدق الغلام كلام سيده وكأن بفؤاده قد دلهُ على ما هو اهمّ من

ذلك كله فقال

— يشق عليّ ان ارى سيدي مدفوعًا للذود عن شرفهِ بيدٍ غلها الالم فيزيد اضطرابهُ اضطرابًا

فلم يتكدر ادمون من كلام غلامهِ ولجاجتهِ بل حمل ذلك على عنايتهِ بهِ واسنده الى الحب المعروف عنده قديمًا وبدلاً من ان يخفي امره عليهِ ويكتمهُ اسباب ارتباكهِ ساله قائلاً

— ما الذي دلك يا انطوان على عزمي

— لئن لم يدلني عليهِ قلبي فقد حدثني بهِ طوبيا

— ومن اخبره بذلك وانّى علم بهِ

— حدثتك يا مولاي عن وقوفهِ برهة مع الرسول الالماني حامل الكتاب وقد استجلى منهُ سرّ الحادثة تمامًا

— لقد تناهى في الجراءة وتعدى حدود خدمتهِ فلاطردنه غدًا دون رحمة

فانتهز انطوان فرصة القدح بالسائق فقال – فضلاً عما اقتحمه هذا الجريء من القحة انه تعود التغيب ليلاً حتى انه لم يدخل امس قبل الساعة التي عاد فيها سيدي

— لا باس سيلقى جزاء اما انت يا انطوان فعليك ان تنهض غدًا باكرًا فتوافيني عند الساعة الثامنة لان لي امورًا مهمة اريد ان اعهد بقضائها اليك

— لعمرك يا مولاي اني في غم شديد من مخاطر البراز وانت على ما انت من مضض الليّ

— لا يكدرك يا صاح انزعاجي فاني ما زلت شديد القوة والباس ادفع بيدي عن نفسي واذا خانني سيفي استنجدت بغدارتي على هذا الخصم اللدود فاميته شر ميتة وانت الآن سر وكن ناعم البال واياك ان تذهل عن موافاتي عند الساعة الثامنة

فاسف انطوان لانفصالهِ اضطرارًا عن سيده وهو في شاغل من حوادث الغد والم كتفهِ فلما خلا سارتيلي بنفسهِ اخذ يحدثها عن اعمالهِ واهمّ مسئلة نظر فيها اختيار شاهديهِ فقال مالي الاّ الاتكال على دي شاتوبرن لتغيب روجه وهو اقرب صديق عندي فضلاً عن ذلك انهُ من الخبيرين بفن البراز واساليبهِ ثم اعتمد عليهِ في اختيار الشاهد الثاني بين رجال كتيبتهِ وما كان هذا الاحتراز الاّ ليكتم الناس سره ويخفي عن علمهم اسباب البراز . ولما كان الراي حسنًا اخذ رقعة وكتب الى شاتوبرن في محلة (اورسي) كتابًا يكلفهُ فيهِ الشهادة وابقاه لديهِ قصد انفاذه غلس الغد مع غلامهِ انطوان . ثم بصر في الطريقة التي يجب عليهِ اتخاذها للقيام بوعده لدى مسيجل حنة واستجلاء الامر الذي اشار اليهِ عنهُ صديقهُ روجه . فتبدى لهُ ذلك من اسهل الطرق فقال لا بد ان تستغرق مخابرة الشهود غدًا النهار كلهُ فيتسنى لي في الصباح ان اقصد قصر دي مانسبناك فانجز فيهِ وعدي واكفي رغائبي حتى اذا اطلعت على جلية السر الذي اتحرى استجلاءه عدت الى منزلي فكتبت وصيتي ووفيت بكل ما اطالب بهِ لدى حنة حسب العهد الذي اخذ عليّ روجه ميثاقهُ في كتابهِ

وعقيب ان فرغ من تدبير امره في الغد نام على سريره مطمئنًا ولما اصبح الصباح افاق الفيكونت من نومهِ فرأى انطوان واقفًا لديهِ وبيده رقعتان كتب عليهما اسماء شهود دي دونا فعرفهما سارتيلي قبل ان تجمهما عينه فنهض من فراشهِ وقال للغلام — خذ هذا الكتاب الى شاتوبرن في منزلهِ وقبل ان تزايل الدار ادعُ الزائرين الى الجلوس ريثما اكون قد لبست ثيابي وافهم طوبيا ان لا يبرح من مكانهِ طرفة عين

فانثنى الغلام يلبي امر مولاه ولم يكن برهة الاّ ودخل الشاهدان الدار فاعربا عن غرض زيارتهما بكل ايجاز وابلغا الفيكونت ان من عزم مرسلهما ان يتصدى اليوم للبراز وإذ كان هو الشخص المهان وجب لهُ حق انتقاء السلاح فاجابهما سارتيلي — لقد وكلت النظر في مقتضيات البراز الى الملازم

شاتوبرن فعليكما بمقابلتهِ

فرجع الرجلان من حيث اتيا وقام سارتيلي ينتظر جازعًا عود غلامهِ ولما استبطأه خاف ان يخفق سعيهُ لدى شاتوبرن فيضطر ان ينتقي من لا يصلح لخدمتهِ في هذه المهمة وبينا هو على هذه الحال دخل انطوان فدفع اليهِ الجواب الآتي:

«صديقي العزيز .

«انني انتظر رفد الخصم بذاهب الصبر وقد اقمت (بريهال) احد الخيالة «في كتيبتي شاهدًا معي لديك وكلانا نسر بخدمتك وقد انتقيت السيف «سلاحًا للقتك (بدونا) في غاب بولونيا صباحًا اذا كان لم يزل مصرًا على «السفر عاجلاً . ومتى توافقنا اعلن لك الامر اني اقمت»

فلما تصفح سارتيلي هذا الجواب وضح جبينهُ وسكن قلقهُ فكان كمن القى عن عاتقهِ حملاً ثقيلاً في ركونهِ الى شاتوبرن فتفرغ منذ تلك الدقيقة الى سائر مهامهِ وكان قد اعلم الملازم بمكانهِ صباحًا ثم امر انطوان ان لا يزايل الدار قبل عودتهِ وان يوعز الى طوبيا بقرن الجياد للذهاب على العربة عند الساعة الحادية عشرة فدخل مخدعهُ وكتب ما توجب عليهِ تسطيره من رسائل ووصاية ورصف اوراقهُ وصكوكه في سحابتهِ ثم اخذ كتاب روجه هداية في جيبهِ عند وقوفهِ في الخزانة واكل ما تهيأ من الطعام وسار على العربة دون ان ينبه خاطر السائق طوبيا الى الاخلال الذي فرط منهُ في الامس فما آذنت الساعة بالظهر حتى دخل سارتيلي حديقة قصر دي مانسينياك فانذهل من تاخير المسجل عن ميعاده لخلو الساحة من عربتهِ فاستقبلهُ البواب قائلاً لهُ . مولاي ان سيدتي قد شعرت اليوم بانزعاج يمنعها من الاجتماع بالمسجل كالمت وقد اجلت المكاشفة الى الغد حسبما تبلغ الامر صباحًا . فتكدر سارتيلي لحرمانهِ من مشاهدة حنة في ذاك اليوم الذي كان يتمنى من صميم فؤاده مقابلتها فيهِ ولكن لما كان لا حيلة لهُ دون بلوغ امنيته رأى ان لا يحرم نفسهُ ايضًا من قضاء

المهمة الثانية فطلب الى البواب ان ياتيه بمفاتيح خزانة الكتب فلبى الامر مسرعًا فصعد الفيكونت الدرج المؤدية الى جانب القصر الايسر يريد تلك الخزانة التي ملات فؤاده رعبًا بما اودعت من الاثار الهائلة فلما وقف بالباب فتحة وفؤاده يخفق من الخوف الذي يعاريه عند مرأى تلك البقع التي شاهدها على اطراف الستار فدخل ادمون وكانت الشمس قد عفت بانوارها تلك الاثار وبددت عن سماء ذاك الموضع ظلام الاوهام القاتلة فاخرج سارتيلي كتاب روجه من جيبهِ ليهتدي باشارتهِ وعقيب ان تصفحهُ بكل امعان قال . لقد علمت الآن بكل ما اودعه الا انهُ يتعذر عليَّ الاهتداء توًّا الى تلك الخزانة التي المخبئة بها وقد تساوت جميعها رسمًا وشكلاً فعمد الى اخبارها مبتدئًا من الاولى ولما انتهى الى الثالثة دون ان يقضي المرام عاد الى نفسهِ فقال . يطول بي الزمان اذا اطردت العمل الى الآخر فلا بد ان انبه الفكرة الى سر فتح خزانتي فوقف برهة عند هذا الوجه وما زال ينبه خاطره الى ان تنبه فتذكر ان قد خصت خزانته زر انيط اسفل القفل فاستانف ادمون البحث فما كاد ينتهي من فحص الخزانة الثالثة حتى وجد الزر المنوه عنهُ فضغطه بعد فتح القفل فانفتحت الخزانة عن كتب ضخام صفت داخلها وقد كتب على ظاهرها هذا العنوان (تاريخ نورمانديا) فاخذ سارتيلي الكتاب المطلوب وعمد الى الطاولة فالقاه عليها لمراجعة ما يرغب فيهِ عملاً بوصية روجه وقبل ان يصل الى الصفحة التاسعة عشرة اي الصفحة التي تضمنت السر المكنون طرق الباب فطوى سارتيلي الكتاب وقام الى الباب ففتحه فاستقبله صديقه شاتوبرن قائلاً له

— ارجوك العذر يا صديقي في زيارتي الان فان الزمان يشفع بي لديك

— شكرًا لك ومنة

— دع الشكر لوقت آخر واصرف النظر الى ما هو اهم منهُ عاجلاً

— اوَتحسب البراز امرًا عظيمًا

— كلاً فان مثلك من يستخف باخطاره ويزري بمضاره وقد جئت

علمك بما كان من امري مع شاهدي الرجل الروسي والى ما يطمحان
— انني اتوقع منهما كل غضاضة فقل ما بدا لك
— وطدت الامر على وجهٍ كشفت لي عنهُ رغائبك وامانيك فجعلت السيف حكماً بينكما وضحضاح اوتيل حلبة لجولتكما عند الساعة الثانية صباحاً ولما كنت على عزم الانصراف من الجلسة وقد بعد الشاهدان مني عادا فابلغاني ان صاحبهما يريد القتال غداً لسفرٍ يدعوه عجلاً
— عندي بذلك خبر وها انا اعود الآن الى منزلي لارصد معداتي وعند الرابعة اكون في الغاب
— ان الرجل الروسي قد تاهب للمسير عند الثانية فكان لا بد ان توافيه فيها
— ذلك ليس بالامكان وعندي رسائل اريد تحبيرها الساعة فكيف يمكنني اهمالها والعدول عنها
— لقد اعترضت عليهِ واسهبت بالكلام فلم يقنع وابى الا الوقوف عند رأيه
— ما الحيلة اذا لم يكن ما تريد فارد ما يكون
— ولم ينتهِ عند قولهِ بل صرّح الشاهدان بما في نيتهما اذا اخلفت في الموعد فقالا انا نذيع الامر خطأ ونرسلهُ بين القوم في المنتديات كلها
— يبان لي ان هذا الروسي قد هان الموت في عينيهِ فلا بد من ان يلقاه اليوم
ثم بصر سارتيلي في ساعتهِ فقال — ان الوقت آذن بالانصراف فهيا بنا يا اخي
— صدقت ولكن المجال قريب
— اين السلاح
— ان بريهال ينتظرنا على العربة في الرحبة ولديهِ سيفان ماضيان

— فالرحيل اذن الرحيل

فقام سارتيلي فاخذ الكتاب بيده يريد تأجيل مطالعتهِ الى المساء فسألهُ الملازم مدهوشاً من حملهِ — ما ذلك بيمينك يا صاح اتاريخ روسيا ترغب في تلاوتهِ على دوننا

— كلاَّ تلك آلة اقضي بها على من حرشهُ للقتال بعد ان اقضي عليهِ

الفصل الثامن

ضحضاح اوتيل

ثم انحدر الرجلان الى الرحبة عجلاً وقبل ان يركبا العربة تذكر سارتيلي ذهولهُ عن اقفال الخزانة فعنَّ لهُ ان يعود اليها فاستوقفهُ شانوبرن بقولهِ — ما بالك يا اخي تتردد في الركوب وقد اتت الساعة او تكاد فهلمَّ بنا ندرك الحلبة قبل الآخرين وكان طوبيا ينظر عن بعد الى الملازم وقد عرفهُ واحاط علماً بغرضهِ لدى سيده فما لبث سارتيلي ان ركب عربة الملازم بمن معهُ واشار الى طوبيا ان يعود الى المنزل

ولما جرت بهم العربة استلم سارتيلي كف شاهده بريهال وشكره على مروّتهِ

فاجابهُ الشاهد — لا حاجة لي ايها الفيكونت الى اظهار سروري من الخدمة

التي عهدت بها اليَّ واود ان اراك ظافرًا مبرزًا على خصمك

— اسال الله ان يحقق امالي و يسعدني على مكافاة تكا بقتل الخصم

ولما كانت العربة تسير بهم سيرًا حثيثًا على طريق باسي لاح للفيكوست عند منعطف الطريق وجهساتقه طوبيا واقفًا بباب القصر يحدث مع البواب فاضمر له في نفسهِ الحقد وتوعده بالطرد متى عاد مساء الى المنزل لعصيانهِ امره

ثم نظر الملازم الى الفيكوست وقال له — ان الصوارم التي ارصدتها للقتال كمنت في شفارها المنية اذا ادارها ذراعك المنتول وعلينا الآن ان نرغم الخصم على المقاتلة بها

فاجابهُ سارتيلي — اريد قتاله بكل آلة فلا يهمني اراد الحسام او الفرد

— لا تقل ذلك يا اخي ولا تستخف بعدوك فان الحاحه على البراز وامعانه في مناصبتك يدلان على حذاقتهِ في هذا الفن واضطلاعه في اساليبهِ فاخاف ان يغرك اعتمادك على ساعدك فتسقط لديهِ و يكون سقوطك مهينًا

فقال بريهال انني لا اعرف الرجل وقد حكمت عليهِ بدليل ما شهدته في وجوه شاهديهِ فان المكر والدهاء قد ارتسما على جبينهما فاخشى ان يبادهك خصمك بضربة تطأطئ من شرفك

فاعترضهُ الملازم قائلاً — من يكون هذا الرجل ومن اتى بهِ الى باريس ولم اسمع بذكره ابدًا

— لا بد ان يكون ذا شان لدى حكومتهِ ولولا ذلك لما انتدبته الى المهمة التي يسافر من اجلها مساء

— هذا لا يعد دليلاً على عظم قدره وسمو شانهِ وما ادراك ما هي تلك المهمة الموكول قضاوها اليهِ ربما كانت عبثًا . وهل كان لك ايها الفيكونت معرفة بهِ من قبل النزاع

— رأيته مرة او مرتين في المنتدى ليس غير

— فما السبب الذي حملهُ على مناصبتك فاخشى ان يكون موطداً على مبدإ سياسي فهل كنت ممن يواطىء على تعزيز اركان حكومة بولونيا

— انني ما تداخلت اصلاً في المسائل السياسية وما كنت لاعباً بارتفاع بولونيا وانخفاضها حتى اقدم ذاتي ضحية عنها ولكن ارى لهذا البراز سبباً يضيق بنا الوقت عن الاسهاب بالكلام فيهِ ونحن عند مدخل اوتيل

فامسك الملازم عن استئناف الحديث في امر يحاول رفيقهُ كتمانه واجتزاء بما كان منهُ عما لم يكن

ولما بلغت بهم العربة مدخل الغاب فجازت في وعره تريد الموعد تعذر عليها التقدم اليهِ توّاً فاضطر سارنيلي ورفيقاه ان يترجلوا شاخصين الى الضحضاح على القدم فانزاح الملازم بالفيكونت يريد ان يستودعهُ اسراره قبل اقتحام الخطر فاجابهُ ادمون — ليس عندي شيء أأتمنك عليهِ وفي كل حال انني اشكر جميلك وفضلك . ثم اخرج من جيبهِ قلماً ورقعة فكتب عليها ما افاده خاطر صاحبهِ والقاها في الكتاب الذي حملهُ معهُ وقال للملازم رجوتك بالله الاّ حملت هذا الكتاب بيدك الى خطيبتي حتى اذا قدر فنزل بي القضاء وتمكن مني البلاء

— لا اخيب لك رجاء ولكن هل مرادك ان تنقل الكتاب الى الحلبة

— اخشى ان تغتالهُ الايدي فاجعلهُ على حشايا العربة واعاهدك على صيانتهِ وحملهِ الى خطيبتي تلك غايتي منهُ والمرام

— لابلغنك مرادك واقوم على عهدي معك اميناً وفياً

ثم اخرج بريهال الصوارم من العربة قائلاً — لقد نزلنا الحلبة قبل الآخرين

فقال الملازم — مهلاً فها قد سمعت ضجة عربة تكر الينا من جانب اوتيل وقد طلعت غبرة الخيالة من حولها فلا ريب انها تقل دونا ورفاقهُ وقد جاء لوفق الساعة يريد القتال سريعاً فعليك اذن ايها الفيكونت ان تعاجلهُ بضربة

تكفيهِ ملل التاخير وضجر التقصير

فاومى ادمون براسهِ ايماء من يقول «اذا قصرت عنهُ يميني فلا ألام لانهُ كان لم يزل يتوجع من الالم الذي اصاب كتفهُ» ثم تقدموا الى الفصحاح والاخصام يجدون على الاثر وكانت اذ ذاك الساعة الثانية والجو اصفى ما كان في تلك الايام

فما زالوا يتقدمون ويجدون الى ان انتهوا الى الحلبة وكانت في موضع يصلح للبراز من كل قبيل تدرأ عنها الاشجار المغروسة على حدود الغاب حرارة الشمس ويثبت الكلأُ النابت في ارضها اقدام المتبارزين وتمنع الادغال المحدقة بها انظار المارين او وفود المتنزهين . فتقابل الخصمان وتبادلا التحية فخلا الشهود بانفسهم للمفاوضة معًا في تقرير الشروط الاولية فما وجد الملازم عند شهود دونا انكارًا فتعجب وسالهم قبول المبارزة بالسيف فما ابوا وبينا كان الشهود في خلوتهم كان سارتيلي يرقب خصمه بعين نقادة فالفاه تلك الساعة مكمد الوجه اشد من قبل حائر النظر مرتبك الفكر لايقف من اضطرابهِ عند حد معلوم وقبل ان يتم سارتيلي انتقاده للحكم فيهِ دعاه شاهداه فقالا لهُ . لقد اتفقنا على المبارزة بحسامنا الى ان يسقط احدكما فيقصر ساعده عن حمل سيفهِ فصدق سارتيلي الاتفاق ورأى رأي صاحبهِ في الامر راضيًا عما قرره في هذا الشان . ثم اخذ الملازم يشدد عزم ادمون بكلام يبعث الروح في الابدان والشجاعة في قلب الجبان

فاجابهُ سارتيلي — لا تخف يا اخي فاني حريص اليوم على حياتي فلا اسمح بانصرام اجلها عفوًا

وعقيب ان استكملوا معدات البراز وحددوا الساحة انحاز الشهود الى جهة تاركين المتبارزين في الحلبة . فتقابل الفريقان كالبنيان وتواصل السلاحان يديرهما من مصقول الحديد زندان فجالا في المجال جولة لمعت فيها الاسنة عن مواقع الخطر ومواطن الحذر . فبلغ حد سيف سارتيلي كتف خصمهِ قبل ان

يحاماه فادماه . وما لبثا يجددان المصاولة ويعددان المحاولة الى ان لاح لسارتيلي من وراء الدغلة وجه صاحب الثقة فاغشى على بصره فانقشع بذهوله للخصم كشفة فطوى فيه طعنة كانت حدًّا للقتال وسدًّا في وجه الخصمين عن استئناف النزال

فتعجب شاهدا سارتيلي من خمود ناره في قتال كتبا له فيها الظفر ونفى باسه عن افكارهما وقوع الخطر فلم يعلما باسباب الذهول لان صاحب الثقة كان في الحجاب . فصاح الملازم متعجبًا مما رأى وقال

— لا بد ان يكون في الامر سحر فخلب لب الفيكونت وازدهاه حتى ضلَّ سبيل فوزه وتاه . ثم مال اليه فالفاه مطروحًا بين الموت والحياة . ومال الشاهدان الروس الى صاحبهما دونا فتفاوضا معهُ في شان الانصراف بينا كان شاتوبرن ورفيقه بريهال يعنيان بصحة الفيكونت . وعقيب ان انتهى دونا من حديثه مع شاهديه تقدم الى شاتوبرن فقال له

— لقد انتهى الان القتال بحضرتكما وما اظنكما تنكران عليَّ التبرز على خصمي بطريقة قانونية لا يشوبها غدر او خيانة فاودعكما للحال قصد السفر لقضاء ما دعيت اليه واذا بدا لكما مستانفًا ما يقضي باجتماعكما بي فاني اقيم شاهديَّ وكلاء عني مفوضين بتقرير ما يطلب مني لديكما

فقال له شاتوبرن — لكن ارجوك ان تذكرها باسمي وان اغفلت الرجاء ذكرتها بي . . . .

فلم يدرك البارون دي دونا سر هذا الكلام فصدف عنهُ النظر وسار بمن معهُ بعد السلام لا يلوي على ما وراءه وغادر شاتوبرن ورفيقهُ الى جانب الجريح فقال الملازم بعد فحص حالة الجرح

— يبان لي ان عايلنا في خطر عظيم وقد وضحت الشبهة

— يا ليتنا استصحبنا طبيب الكتيبة ليحمل عنا بعض ما تحملنا

— ان هذا الزلل كان ثمرة العجل ولكن سبق السيف العذل

— فلننقلهُ اذن على العربة ثم ننظر بما تدعو اليهِ الحاجة

فصوب شاتو برن راي رفيقهِ ففعل وقال — لنحملهُ الى طبيب اعرفهُ في اوتيل علهُ يرى معالجتهُ بما يقوّينا على نقله الى استوريج

فقام الشاهدان عن جانب العربة واجلسا سارتيلي بينهما قاصدين اوتيل وبينا هم على الطريق قال بريهال لرئيسهِ

— انني لا اخاف على الفيكونت من خطر الموت وقد اصيب احد اقراني بما اصيب بهِ ونجا من شر الخطر

— هذا دليل لا يسند اليهِ حكم مطلق فربما كان جرح الفيكونت اوضح من جرح قرينك وما زاد خوفي احتباس الدم في الجرح ولكن قل لي يا بريهال ما السبب الذي جعل الرومي يتغلب عليهِ وقد كان اشد منهُ باسًا وامضى عزيمة واكثر تدربًا في عمل السيف

— انني لا اعلم يا سيدي بما اوقفهُ عن حد طعنة خصمهِ على حين تمكن منهُ

— اتظنهُ فعل ذلك عمدًا

— كلاَّ بل لاح لي اثناء المبارزة انتقاع لونهِ وحيرة ناظريهِ فاظن ان دوارًا استولى عليهِ فعرّض جنبهُ لسيف الخصم

— تحدثني نفسي عن يقين ان هذا البراز كان قتلاً مفتعلاً لا ريبة فيهِ

فما زالا يتحدثان الى ان انتهت العربة الى باب منزل الطبيب فترجل شاتوبرن وصعد الدرج تاركًا رفيقهُ لدى الجريح ليمنع ازدحام الناس حولهُ ولسعد طالعه كان الطبيب في منزلهِ فدخل عليهِ الملازم وكان يعرفهُ جيدًا فقص عليهِ القصة فتاسف الطبيب جدًا لسقوط الفيكونت لانهُ كان صديقهُ وتوجع لمصابهِ فنهض للحال وانحدر مع الملازم الى العربة ليتفحص الجرح ويرى بما يدفع عنهُ الخطر فتقدم الطبيب من الجريح فسبر غور الجرح ونظر في حالتهِ ثم انثنى وقال — لا خوف عليهِ الان الامل عظيم بالشفاء . لكن اخبراني اين يترل الفيكونت

— في محلة استوربج والمجال بعيد

— لا باس ولابد من نقلو اليو لما يلقى في منزلو من اسباب العناية التي يتعذر عليو وجودها في محل آخر

واذ كان لا بد من الاذعان لراي الطبيب جرت العربة بهم الهوينا والطبيب الى جانب الجريح يداريو ويتوفر على راحتو الى ان وقفت العربة بهم عند باب القصر فتذكر الملازم الحزين عندئذٍ وصية صاحبو في الحرص على الكتاب الذي اذهلة عنة اشتغال بالو وارتباك حالو فترجل وقال

— ويلاه ما الذي الهاني عن قضاء هذه الخدمة اسفاه لقد كنت سبباً لكدر تلك الفتاة التي وعدت نفسي بان اقوم لديها رسول الخير . فعاد الى العربة ليبحث عن الكتاب فلم يجده . فقال متمتما . ابن فرّ هذا الكتاب الضخم هل من يدري اغتالتة اثناء القتال . فطرق اذن السائق كلمة الكتاب فتنبه واجاب

ان الكتاب الذي تبحث عنة قد دفعتة الى رسول جاء يطلبة من قبلك فغضب الملازم وقال — من يكون هذا الرسول

فاجابة السائق — ان رجلاً جليلاً مهيبًا قدم اليّ باسمك وطلب ان ادفع لة الكتاب فما ابيت وظننت ان فيو نصاً يشير الى رسوم البراز ومقتضياتو

فحزن شانوبرن جدًا لتقاعده عن الوفاء بعهد صاحبو وخاف ملامه اذا اسعده الجد على الشفاء واذ اراد ان يستانف الحديث مع السائق توصلاً الى استجلاء السر دعاه الطبيب اليو فقاطعه الكلام وقبل ان يبعد من العربة ناداه السائق فقال لة — مولاي دونك الرقعة التي اودعت طي الكتاب فان الرسول قد ذهل عن سقوطها عند فتحو . فاخذها شانوبرن قانعًا بما تضمنتة من الدلائل على غرض صديقو وراح يلبي دعوة الطبيب فانهض الجريح مع رفيقيو ونقلاه الى المنزل

الفصل التاسع

جوترا

ولما مر على البراز الذي تجندل فيهِ سارتيلي جريحًا شهر تام كان جوترا الثقاف وقد ذكرناه قبلاً في الرواية مع ادمون جالسًا كاسف البال ليلاً على طاولة وسط غرفةٍ في محلة «ماري سان جرمن» ينقب في اضابير مطروحة لديهِ ويبحث فيها بحثًا مدققًا وكان كلما نشر درجًا منها انتثر امامهُ الذهب الوضـــاح المرصوف طيها . فيتصفح جوترا الدرج صارفًا النظر عما سقط منهُ . وما زال يقلب الاوراق ويتصفحها بكل امعان الى ان علقت يده بانوطة صغيرة بيضاوية الشكل قد غشي ظاهرها بالقطيفة الناعمة فارتاع جوترا عند النظر اليها وانقبض صدره اسفًا ولهفًا فحاول انتباذها فلم يستطع لانهُ كان يشعر من نفسهِ برغبة عظيمة تنزع بهِ الى تاملها فاخذها اخيرًا بيد مرتجفة وفتحها فاذا فيها رسم ذهبي اشقر الشعر وردي الخد ازرق العينين بارز الجبين يتوسم بهِ رآية الذكاء والاباء فحدق بها جوترا مليًا وما لبث ان فاضت عيونهُ بالدمع ثم ادناها من فيهِ وقبلها مرارًا وهو يردد الزفرات ويذرف العبرات ثم صاح بصوت الاسيف ولدي هنري وحيدي اين انت ماذا حلَّ بك وبمَ دهوك . ثم أكب على الطاولة مجهودًا من الحزن والاسف لا يعي من شدة الكرب التي تضايق صدره فما طال بهِ الزمان حتى نبهتهُ الساعة بايذانها فرفع راسهُ وقال . ها قد آذنت بالتاسعة من آخر يوم الاجل الذي ضربتهُ للبحث عن تلك المسئلة التي

ذويها الشرط في زوايا النسيان بعد ان اعتذرت لدى دي نوريف عما وفقها الجد اليو. ترى ايأتي المطالب بثار صديقهِ فيطالبني بانجاز الوعد كما تقتضي مني نفسي الانتقام لولدي.

ثم نهض جوترا وخطر في عرض الغرفة مضطرباً قلقاً وقال — ما هذه الحماقة ترى اياتي الفيكونت دي سارتيلي منزل ثقاف مثلي آه اخشى ان يكون قد اغفل امرهُ. ولم يكن من يذكر تلك الحوادث الا انا وحدي

ثم عاود الجلوس على الطاولة وقد تبدل وجههُ بالغضب فقال — مالي ولهم فلا بد من العمل بنفسي

فاخذ رقعةً وكتب عليها بعض الدلائل المتباينة التي لا علاقة بينها وجعل في اولها هذه الكلمات في ٢٤ ايار عام ١٨٢٠ خطف هنري في الهاڤر. سفينة فورونج دي ريكا. وفي آخر عام ١٨٢٠ اخر ما انتهت اليهِ ابحاث حكومة بطرسبرج

ثم كتب بعد ذلك بعض دلائل واضحة في مسئلة اخرى وهي.

«ان نوريف عاود فرنسا في غرة عام ١٨٢٣ لوميلا ليدوف وشقيقتهُ قاندا ١٩ سنة وثمان سنوات. دعوى الاوراق البولونية ونزول بعض الروس في فانده. مات القائد دي مانسينباك ليلة الثامن من اذار عام ١٨٢٣ اقتصاص اثره عن مؤامرة اكتشفت عنهُ بالاتفاق مع الحزب الملكي .. تبدل حال دي نوريف عقيب هذا الموت .. تغيب متواتر من عام ١٨٢٣ الى ١٨٤٨ . اقامتهُ في باريس من لدن ذلك العهد .. ان اوراق الدعوى المحفوظة في دار الحكومة لا تنطوي على شيء مما جرى بعد ذلك العهد.

ثم ذيل تلك الدلائل بهذه الكلمات

«في السابع من نيسان عام ١٨٢٨ رأيت سوسنه والى جانبها فتاة في عربة مارة حذاء غاب بولونيا

آخر كتابة بعثت بها الى حاكم كلاسكو عام ١٨٤٠ الجواب النهائي. ولم

يعلم بشيء من كل هذا في آكوسا ونورماندیا

وبينا كان جوترا يعيد قرأة هذه الدلائل كانت عيناه تنتقلان من دلالة الى اخرى كأن به يريد ان يوفق بينها فيجمعها الى مركز واحد لياخذ عنها النتيجة المطلوبة

ثم قال بعد الامعان . نعم نعم قد وجدت كل هذه الرموز فان المركيز قد تغيب لمضايقته دي نوريف كما قضى والده بعد الاشتار مع هذا الرجل الروسي.

وهذا هو الرجل الذي ينكب الشرط عن سبيل الوصول اليه حذرَ التبعات ولو انني اخذت على نفسي عهد الوقوف على حقيقة المسألة لما عمدت الحكومة الى تحنيط الراس المجذوم . فما علي الآن الا العمل في تمهيد الطريق وتوفير الذرائع التي تمكنني من الدخول الى المنزل القائم في محلة « فارن » دون ان ترمقني العيون او تدري بي الرقباء . ففكر جوترا في نفسه برهة ثم قال — ان العطلة التي استمديتها من اجل البحث لي كافية لاشتغالي بالتقرب من دي نوريف والتردد اليه والمخابرة مع حاشيته غير انه لا بد لي من طريقة اتطرق بها الى هذه الغاية ولا سيما في الحال وقد تمنع دي نوريف بما اتخذ من وسائل الدفاع والاحتياط . وعقيب ان فرغ من مناجاته عاد الى تفسيره فجرشها برهة الى ان ضاقت به زيادة الفكرة عن رأي يجمع به الموقف عنده فقام وقبل ذلك الرسم الدقيق فأودعه الصندوق مع الاوراق التي كان يتصفحها ولم يبق بين يديه الا صكًا واحدًا جعله نصب عينيه وجلس على الطاولة فطفق يقرأهُ بكل امعان ثم قال — فما دعواهم عليه . ان ما انطوى عليه هذا الصك لا يأتي بجدوى ومع ذلك لا بأس اذا راجعت النظر فيه ودققت في تفسير معانيه ربما وقفت منهُ على الغاية التي انكرها اصحابي . وهذا عنوان تلك الكتابة

— « ابحاث تتعلق بمسئلة المركيز دي مانسيناك

« يقول صاحب الكتابة . لقد ثبت تغيب المركيز دي مانسيناك عن باريس

« كما تحقق خبر حياتهِ . وقد خفق سعي الباحثين عنهُ برًا وبحرًا وخاب رجاؤهم
« في نيل الفائدة من اصحابهِ في القصر اذ تبين لهم جليًا ان لا أثر للجناية في انحائهِ
« داخلاً وخارجًا . لكن الاخبار التي تواردت اليهم عن ماضيهِ تفيدهم شيئًا من
« الاسباب التي دفعتهُ الى الفرار

« واهم ما اتصل بهم ان روجه لما كان ينزع منزع ابيهِ في الاستظهار للحزب
« الملكي عام ١٨٢٢ ترتب عليهِ بعد فقد والده ان يطرد السير على النهج القديم
« فانفق الاموال مجاراةً لمبادئهِ في سبيل الغاية التي كان يخدمها واذ كان
« مبدأُوه منكورًا عند رجال الحكومة كانت تدعوه الحاجة الى التغيب تارةً
للتنصل من احكامها وطورًا لاجتناب لجاجة الدائن . وقد وضح لديهم ان
« روجه لا بد ان يكون قد لجاء الى الهزيمة خوف المقاضاة لان يده قد فرغت
« من المال ولم يبق من اثر الثروة الا ذاك القصر القائم في التروكادرو وهو
« ملك شقيقتهِ . فلا غروَ اذا فرَّ الى حيث آلف الامتناع منذ زهاء خمس
« سنوات ومن المرجح وجوده على حدود نورمانديا

« اما الطريقة التي سلكها الثقاف لاقتصاص اثر روجه لهي غير مطروقة
« لان الرأس المجذوم الذي خطف من كف الرجل الناد عند غاب بولونيا
« لا يفيده شيئًا عن مانسينياك خلافًا لما زعم البعض ان تلك المرأة هي من اصحابهِ
« استنادًا الى الشبه القريب .

« واذا دققنا النظر في المحفظة التي وجد فيها شارة الجلاء تبين لنا انها
« بعيدة عن جلاء دي مانسينياك فضلاً عن ذلك ان الخدم القائمين لدى
« المركيز ينكرون صحنها

« اما علائق المركيز في المدة الاخيرة كانت محصورة جدًا وقد فطم نفسهُ
« عن حب الملاهي وانتياب الندوات قانعًا بصحبة صديقهِ الفيكونت دي سارنيلي
« الذي عزم على ان يخطب اليهِ شقيقته حنه فاوقفهُ عن اتمام عزمهِ جرحٌ اصابهُ
« اثناء البراز في اليوم الثالث من تغيب روجه »

فلما انتهى جوترا عند خبر البراز القى الصك عن يده وصاح — اسفي عليك ياسارتيلي لقد جنيت عليك بانجحالي عنك خوف رقباء دي نوريف نعم انا كنت السبب في انقطاعي عن الجد في اثر البغاة· ثم وجم برهة وقال ترى من الذي جرحهُ · من يعلمني بالخصم واية ذريعة تبلغني الخبر الصحيح ألا يذكره صاحب الكتابة

وعقيب ان ناجى نفسهُ يسالها عن الخصم خطر لهُ ان يعاود قرأة الكتابة فوجد في ذيلها هذه العبارة

«ان خطر الجرح الذي الم بسارتيلي اقعد الحكومة عن اكمال الاستنطاق في المسئلة التي تقدم فيها شاهداً »

وبينا هو يفكر مستجليًا الحقيقة طرق باب منزلهِ فاخفى الصك في جيبهِ وقام ففتح الباب فاستقبلهُ رجل قضى عليهِ النظر اليهِ بالعجب العجاب حتى كاد يهي من الذهول والدهشة · وكان ذلك الرجل دي نوريف واقفًا عند العتبة وقفة من لا يحول دون زيارتهِ باعث فلما قابلهُ جوترا ووقف لديهِ عرفهُ فسالهُ دي نوريف — الست جوترا ياسيدي·

فخطر للثقاف عند هذا السوال ان يسكن اضطرابه ويزيل عجبه ليتمكن من اكتشاف الزائر فاجابهُ نعم انا هو فان شئت فانزل

فتقدم الزائر وعيناه شاخصتا الى الثقاف كانهما تلتمس منهُ اثرًا خفيًا فجلس على كرسي في ناحية الغرفة فسرَّ جوترا بقدومهِ اليهِ عن غير كد وجهد لانهُ كما ذكرنا قبلاً حيرة الثقاف عند الوصول الى منزل الرجل وارتباكه في اختيار الطرق النافذة اليهِ . فما كان الا برهة حتى ابتدره الزائر بهذا الكلام

— لقد دلتني شهرة حذقك ودرايتك عليك فجئت استنفع بهما في حل مشكل اشغل بالي واحرمني الراحة

— فاجابهُ جوترا . اسالك ياسيدي ان تفيدني قبل التطوّح في الثناء المعقود على خدمتك عن شهرة الامر لِيزيد حظي حظًا في طاعتهِ

— أصبت فهاك مطلوبك

فدفع اليهِ رقعة كتب عليها اسمهُ وشهرته يكللها شارة امير فاخذ الثقاف الرقعة بكل احترام وقرأ ما عليها فقال في نفسهِ لا بد لزيارة هذا الرجل من غرض خطير يرتاح الى بنيلهِ ثم رفع راسهُ اليهِ وقال — هل لي ان اسالك ياسيدي مسئلة اخرى قبل استماع قصتك

— كيف لا اقترح عليَّ ما شئت وما يبدو لديك

— اود ياسيدي ان تفيدني عن السبيل الذي نهجتهُ توصلاً الى معرفة اسمي وشهرتي

— ما كان اسهل الطريق الذي هداني اليك فانني قصدت في حاجتي رئيس الشرط وطلبت اليهِ ان يدلني على رجل حاذق حكيم انتفع بمزاياه في قضاء مهمة خطيرة فما لبث ان اجاب عليك بجوترا فعند ذلك حار جوترا من جوابهِ فقال في نفسهِ — ايكون دي نوريف كاذبًا ام صادقًا . واعجب من رئيس الشرط كيف انهُ هداه اليَّ وهو عالم بما كان فلا ريب انهُ دفعهُ اليَّ قصد ان يبتليني ويختبر سرّي ثم خاطبهُ قائلاً

— لا يخفى عن نيرتك ان الثقاف اذا دعي للعمل فيما كان علاوةً عن اشغال الحكومة كان لا بد لهُ من الاذن في ذلك فلا تلمني اذا ترددت بالجواب عن سوالك

— صدقت ياخي فلا بد من اجراء ما اشرت اليهِ فلا باس ان الامر الذي جئتك من اجلهِ يمهلنا الى الغد فساوافيك صباحًا بما يقتضي للشروع بالعمل

ثم تحفز دي نوريف للقيام يريد الانصراف فخاف جوترا ان يبعد الزائر منهُ دون ان ينال بغيتهُ منه فيندم على ضياع الفرصة حين لا ينفع الندم فجدت نفسهُ في اقتحام خطر الحديث معهُ في شان ما اودع سره فتغلبت عليهِ رغبة الوقوف منهُ على نتيجة آجلة فقال لهُ

— ارجوك ياسيدي العذر على ما اقتضيته منك بلسان حاد فامهلني الى الغد اذهب بنفسي الى دائرة الشرط فاخذ الامر واجري بين يديك وطوع اشارتك

فعاود دي نوريف الجلوس على الكرسي وقال — احب اليَّ ان تسرع في العمل لان المسئلة التي اعهد بها اليك لمن المسائل التي تستلزم السرعة فلا يوافق ارجاوها الى الغد لئلا يطراء عليها ما يزيدها ارتباكاً فيجحف بمصلحتي

— قل ما بدالك فاني عتيد لاجابة سؤلك

— فاسمع اذًا ما اقوله لك . ان رئيسك كان قد اطنب لي بحذقك في فن كشف الكتابات السرية وحل الرموز والطلاسم

— فاعترضه جوترا قائلاً هذا ما كان من همي منذ انتظمت في سلك الثقاف

— ايمكنك ان تستجلي عبارة اشكل علي فهمها .

— لكل سر مفتاح فلا يشغلنك شاغل من هذا القبيل وعندي من الذرائع ما يمهد الصعب ويحل كل عسير انما اسالك ان تمهلني الى يوم واحد .

— الحاجة اليك ان تكشف لي سرًا مطويًا في كتاب

— ما هو الكتاب

— هو سفر له قصة عجيبة اسردها لك بوجوهها وهي انه كان لي نسيب في اسوج غنيًا جدًا ذا اخلاق غريبة وكان هذا الرجل يحاول جهده اخفاء ثروتهِ فدأب به الاهل زمانًا طويلاً علهم يتوصلون الى كشفها فلم يستطيعوا فاتصل بهم اخيرًا بعد وفاة نسيبهم ان الدلائل التي تؤدي الى كشف الخفاء كانت مكتوبة في سفر اشار اليهِ الفقيد في عرض حديثهِ عند اخر ساعة فاخذ اخي الكتاب وقلبهُ باحثًا في صفحاتهِ بكل تدقيق فلم يعثر على شيء من تلك الدلائل فرأى اخيرًا ان يبعث بهِ الي علني اجد في باريس من يحل لنا الاشكال فوفقني الله الى معرفتك فجئتك معتمدًا على حكمتك وعسى ان افوز عن يدك بتمام المرام

— الا تستطيع ان تفيدني عن موضع الدلائل

— كلاّ ولكن يترجح عندي ان تلك الدلائل قد قامت على احرف دقيقة خطت بمداد غريب الصنع يمازجها بعض الارقام التي تندر بالاحرف فبالله لا تغمض الطرف عنها وابذل الجهد في تحقيق امالنا برشدك

وكان جوترا اثناء حديثهِ يقلب الفكر بوجه كلام دي نوريف فظنهُ بادئ بدء فرية اختلقها لمقاصد في نفسهِ او احبولة نصبها للايقاع بهِ فتوقف عن الجواب وما زال يقدح زناد الفكرة حتى جلا لهُ عن جانب الحقيقة فيهِ فقال في نفسهِ لا بد ان يشير كلامهُ الى جريمة كان لروجه سهم فيها وما اظن ذاك السفر الاّ مستودع سره

ان جوترا الثقاف ولئن كان جاهلاً الحوادث التي طرأت على سارتيلي عقيب زيارتهِ الاانهُ كان قد علم بطريق الاشاعة بفقر دي مانسينياك بعد اذ كان غنيًّا جدًّا. فعاود مناجاة سره فقال — لم لا اعمد الى البحث في ما بسطهُ لدي هذا الرجل حتى اذا عثرت على الحقيقة جنيت عنهُ عملاً بصيانة ثروة دي مانسينياك . فثبت اذ ذاك عزمهُ على ما راه وقال

— اني اعدك بالنجاح اذا دفعت الي السفر الليلة

— لك الشكر الجزيل ولا تظني ايها الحاذق اغفل مكافأتك عند اجابة سؤلي لكن هل لك ان تبتدئ بالعمل منذ الليلة

— نعم دون مهل والوقت رهن يدي.

— فاعتمادًا على ما قدمت هيا بنا لنركب العربة قاصدين منزلي حيث اطلعك على السفر المنوَّه عنهُ لانهُ يصعب علي ان آتي بهِ الى هنا حذر الخطر

فتردد جوترا في الجواب العاجل لانهُ كان يوجس من نفسهِ خيفة الوقوع في احبولة عدوهِ وبعد ان نظر في الامر نظر مدقق راى ان لا مانع يمنع من الذهاب معهُ فقام الى سحابتهِ واخرج كتابهُ المتضمن تفسير الارقام وعاد الى الزائر فقال لهُ.

— هيا بنا الى حيث تريد

فانحدر كلاهما الى الطريق فركبا العربة تسري بهما تحت جنح الظلام سيرًا سريعًا وفي اثناء المسير أقفل دي نوريف زجاج العربة قائلاً لرفيقهِ · ارجوك العذر عما فعلت اتقاء البرد

فوجم جوترا وخاف ان يضلهُ السبيل فتحذَّر واستمرّا سائرين تطوي بهما العربة محلة بعد محلة دون ان يستطيع جوترا الاهتدا الى الطريق الذي اخذا فيهِ لتلبد الغيوم وكثافتها ومازالا على هذه الحال الى ان عطفت بهما العربة عند طريق نهر « السين » فاطمأن خاطر جوترا اذ تبين جليًا وجهة منزل دي نوريف فزال الشك عن وجه اليقين · ولما كان الثقاف يلتمس بانظاره سواء السبيل السائرين فيهِ شعر دي نوريف باضطراب وكان عرف بما يوجس منهُ خيفة فجعل يسكن روعهُ بحديثهِ قائلاً

— اراك يااخي في ارتباك عظيم وقد علمت بسره فانك تحاذر ان يضلنا السائق سبيلنا في هذا الليل البهيم فلا تخف فان السائق مجرب وقد هداني في مثل هذه الليالي الى اظلم طرق في لوندرا حتى صرت لا اخشى معهُ ضلة وسنصل قريبًا الى الغاية

— فاجابهُ جوترا · على ما علمت من الرقعة التي دفعتها الي اننا على مقربة من محلة الانفاليد وربما جزنا فيها بسرعة جري الجياد ·

وما اتم جوترا جوابهُ حتى عاتب نفسهُ على ذكر المحلة في عرضهِ لانهُ كان يريد ان يكتم معرفتهُ منزل الرجل الروسي لكن دي نوريف اضرب عن ذلك واخذ منهُ طريقًا اخر للكلام فقال

— متى كان عهد انتظامك في سلك الثقاف ·

— منذ ست عشرة سنة

— هل كنت قد انخرطت في هذا السلك عندما عاودت الاقامة في باريس عام ١٨٣٢ اي عقيب ثورة بولونيا

— من قبل ذلك بشهور

— فلا بد اذًا من ان يكون قد اتصل بك خبر الاضطهادات التي ساورتني وقتئذٍ

فادرك جوترا غاية دي نوريف من هذا الحديث فاجابهُ — كلا ياسيدي

— كيف لا وقد ذاع الخبر بين القوم فتقول الناس عني الاقاويل المتضاربة فمنهم من ظن بي جاسوسًا قدمت باريس من قبل الروسية ومنهم من اعتدني من اصحاب الثورة فدفعت الى الحكومة ولم انجُ من العقاب الاّ بشق النفس

فزاد ارتباك جوترا عند تطوّح رفيقهِ في اعادة ذكر الماضي فاجابهُ — انني لم آكن ثم في جملة الثقاف السياسي ولذلك فانني علم ما قدمت

— ان الغريب في ذلك الامر حمل التهمة على غاية سياسية لم تخطر ابدًا ببالي

— كيف كان ذلك

— ان احد الثقاف اوغر صدره حقدًا علي فكاد لي كيدًا شديدًا فاوقعني بتلك التهمة السياسية تشفيًا مني

فبهت جوترا ولم يحر جوابًا فاستطرد دي نوريف قصتهُ الى أن قال — واغرب من هذا وذلك انني لم ادرك الحقيقة الا امس عندما كنت في دائرة الشرط فان الرئيس اخطر على بالي ذكر وحشة ذلك العهد

— وما الذي دفع الرئيس اليهِ

— ليس غير ما خطر عليهِ من الكلات الانسانية فافاض في شرح الذرائع التي توصل بها الثقاف لاختلاق ما حاكتهُ اوهامه وظنونه ·

وكان جوترا يصيخ سمعًا الى بيانهِ رابط الجأش ساكن البال · فاستانف الروسي الحديث فقال ·

وما علمت ايضًا من الاسباب التي حملت الثقاف على الايقاع بي هوانني اختطفت حليلتهُ وابنهُ فراح يبحث في منزلي وينقب في ارجائهِ خائبًا · فاقولك

يا صاح في ذلك . انني لاعجب جدًّا من ارتياح الحكومة الى مثل هولاء الرجال الذين يهورونها في مهاوٍ لا تكسبها الا الخيبة والفشل خلافًا للروسية فانها لا تسرع الى القطع بما ينقله اليها الثقاف قبل ان تجد في البحث طويلاً عن الامور المهمة حتى اذا بدا لها خيانة الشرطي او الثقاف عاقبته بالقطع دون رحمة

— فسالهُ جوترا وما جرى للموقع بك زورًا وبهتانًا .

اخبرت بطرده ولم يعلم الرئيس الحالي بما صار اليهِ امره لان الحادثة جرت على عهد سلفهِ فلم يخلف لهُ اثرًا عنها

فطابت نفس جوترا من كلام دي نوريف فقال.

— مهما عظم ذنب الثقاف لا يعاقب الا بالطرد لانهُ ليس لدى الحكومة الفرنساوية من مواطن للمجرمين كالحكومة الروسية .

— ما كنت اتوقع منك هذا الجواب دفاعًا عن حكومتك ولا يخفى انهُ متى ارادت الحكومة امرًا كان مفعولاً فلا يتعذر على اية حكومة كانت ان تعاقب المجرمين على جريمتهم كلاًّ على قدر جرمهِ فضلاً عن ذلك ان المصاب لا يغفل الاخذ بنصرة نفسهِ والانتقام لها من عدوه بطرق شتى . فعندي من اساليب الانتقام ما يناسب هوى كل بلاد حللت فيها .

فحاك هذا الكلام في نفس جوترا فانتفع لونهُ واكفهر فايقن في الهلاك والبوار فاخذ يعاتب نفسهُ ويعنفها لغرورها وكانت العربة تجري بهما سراعًا على طريق جهل جوترا خطها او ذهل عنها لاشتداد الحلك فما لبث ان توهم في اختلاف صوت حركة الدواليب تحول المسير عن طريق باريس المفروشة بالبلاط الى طريق حديقة مرملة فظن بها شارع الانفاليد وما طال وهمهُ ان زال بما هداه اليهِ رشده بدليل طول الشقة التي طوياها على عربة يجرها جوادان من جياد الخيل . فقال جوترا مناجيًا نفسهُ بهذا الكلام . لا ريب ان هذا الرجل قد تربص بي شرًّا فاختطفني ونَ مني تمكن الذئب من الحمل فلا يحسن بي ان اقف لديهِ وقوف العاجز عن صيانة نفسهِ بل انا عتيد لاستقبال

المنية بكل عزم ولكن يعز علي ان اهجر هذه الديار ولي فيها ولد في الأسر واصدقا تحت ذل القهر لا لا افضي قبل ان اقتضي منه حقوقهم فاشري بنفسي عزم

ولما كان جوترا يلج في بيداآء الفكر انجبت له الروية ما افاده شيئا من سرائر رفيقه فقال ربما كان هذا الروسي قد عزم على ان يلقي بي في وهدة الجرائم التي التطخ بها منذ عشرين سنة فلا بد لي اذا من الفرار بكل سبيل . فخطر له بادىء بدء ان يعمد الى خنقه في العربة فلم يصدق الصواب هذا الخاطر لان الروسي كان مدججا بالاسلحة فخاف ان يقوى عليه وهو اعزل فعدل عن هذا الراي الى الفرار من العربة والاختفاء تحت رواق الظلماء ظنا منه بان رفيقه عاجز عن لحاقه . ولما عول على هذا الوجه راح يعالج قفل باب العربة فسمع دي نوريف الهائم في ظلمة الجو المحدق به صوت القفل فادرك حيلة الثقاف فضحك وقال

— عبثا تحاول فتح الباب فان في القفل سرا لا يدري به احد غيري وقد جعلته خصوصا ليمنع سقوط من يرتفقه اثناء المسير

فكظم جوترا غيظه دون ان يفوه بكلمة

فاستانف الروسي الخطاب فقال — خالك ياصاح قد مللت الركوب في العربة فتولاك الضجر فلا تكتئب ها نحن قد وصلنا الى الغاية.

وما كان الا برهة حتى وقفت العربة ، نفتحت الابواب فمثل لعيني جوترا تحت درع الظلماء خيالات قد انتصبت امامه دون حراك عند الموطىء. فقال في نفسه. لقد وضح صبح اليقين عن غدر الرجل وسره فها ان رفاقه قد احدقت بي للفتك ثم رأى في يمين احدهم سيرا طويلا يتدلى. فقال لا ريب ان هذا حبل المنية يتصل بي قريبا . وبينا هو في حيرة عظيمة وارتباك شديد دعاه الروسي للترجل قائلا . ما بالك ياصاح لا تنهض من مكانك وقد كنت اراك من قبل راغبا في النزول من العربة على الطريق

فقام عندئذٍ جوترا فدنا من الروسي ودفعهُ دفعة شديدة القتهُ على الحضيض وقام فوقهُ يقول . تبًا لك من خائن غادر تعمد قتلي زورًا فاعلم انني لا اندفع عنك قبل ان اقضي بحقي منك . فصاح دي نوريف بلغتهِ الاجنبية باللرفاق فما كان الا كلا ولا حتى انقض عليهِ اربعة من اشد الرجال باسًا وقوة فقبضوا على يدي الثقاف وافرجوا عن زعيمهم فنهض دي نوريف يامرهم بما يراه بلسان غريب فحلت المنية اذ ذاك في عين جوترا لو لم يمر في خاطره من الخواطر التي فعلت في نفسهِ ما لا يفعلهُ هول المنون فتراأى لعينيهِ خيال ولده يعنفهُ على ما فرط منهُ في اتباع راي خصمهِ اللدود قائلاً لهُ. يالشقاء ابي وطول عذابي لقد ساقهُ الغرور الى ما يقضي علي وعليهِ فما كان ضرك لو انكرت على دي نوريف دعوتهُ وابيت نصرتهُ . آه لكنت فزت بما تبتغيهِ فاوقعتهُ في شر ما اوقعك فيهِ واستظهرت على اقرانهِ الذين سلبوك راحتك وقوضوا ركن هنائك وسعادتك

وما زال الاشقياء بالثقاف حتى اوثقوا يديهِ ورجليهِ بالحبال وعصبوا على عينيهِ فجعلوا في فيهِ شيئًا من الجلد يسمى الشبام [1] يمنعهُ من الصياح لا التنفس

وبينا كان الاشقياء يوثقونهُ سري عن فؤاده اذ خطر بباله ان دي نوريف يريد ان يبقي على حياتهِ طمعًا بالانتفاع من علمهِ سرًا ولولا ذلك لما تصدى عن هلاكهِ عاجلا فعوضهُ هذا الفكر من نفسهِ بعض الامل المفقود فرأى ان ياخذ الاهبة للنجاة بما اتاه الله من الحذق والدراية فنبه بصيرتهُ لانحجاب بصره الى ادراك كل حركة كانت تبدو حولهُ . فما لبث الاشرار ان رفعوهُ على ايديهم وساروا بهِ يجتازون طريق حديقة مهد والى جانبهم دي نوريف وقد شعر جوترا بوجوده لحنة خطاه فضلاً عن ذلك ان وقوف العربة في مكانها لا رجاعهِ كان دليلاً كافيًا لتاييد صحة وجوده ثم عرف ان نزولهُ كان في غير المنزل الذي قصده في محلة « نارن » يؤيد ذلك ايضًا عدم اهتمام السائق في تخلية

---

(١) الشبام وتقول لهُ العامة البلام شيء من الجلد وغيره يجعل على شدق الدابة ليمنعها من الكدم *

سبيل الجياد او ادخالهم الى المربط وشعر من حركة اقدام السائرين به على الرمل انهُ وسط حديقة وقد لطمتهُ اغصان اشجارها الدانية ثم سمع حفيف اجنحة الطيور الحائمة عليها.

وما زالوا يتقدمون به الى ان وقفوا بهِ قليلاً فسمع باذنهِ قلقلة المفتاح في قفل رتاج ضخم انفتح امامهم فكان جوترا قد ذرع بفكره المسافة التي تعدوها على خطوات دي نوريف فبلغت زهاء خمس وستين خطوة خلا المسافة التي فاتهُ تقديرها عند انعطاف العربة بها قبل ان يترجلا. فقال في نفسهِ ما رأت عيني قط حديقة ابعد مدى من هذه التي قطعناها. ثم دخل بهِ الاشقياء موضعاً تاكد وجود النور فيهِ لاستمرار السير وقد عرف من اختلاف النهج واختلال موازنة جسدهِ انهم يحدرون بهِ منحدراً خفيفاً. فتداخلهُ الرعب وتراكمت عليهِ الهموم فقال. ويلاه الى ابن المصير. ترى ايتصدون بي الرمس حياً ام اختاروا هلاكي جوعاً في شقوق الارض. رباه من لي سواك اناديِ واستسندي وتنادي وكان الاشقياء يلجون في الانحدار حتى تبدل الهواء فصار رطباً من نداوة الموضع الذي ولجوا فيهِ حتى أن جوترا شعر بقطرات الماء تتساقط على وجههِ من عقد البناء واذ كان قد طال بهم المسير على هذه الحال ذهل جوترا عن عد الخطوات لكنهُ لم يغفل مراقبة العطفات التي كانوا يعطفون به عليها اثناء مسيرهم فيضطرون ان يقفوا بهِ عند كل عطفة وكان دي نوريف يتبعهم على الاثر دون ان ينبس بكلمة وما كان مثلهم وقتئذٍ الا مثل قوم يشيعون الجنازة الى الرمس

اما جوترا فكادت تفيض روحهُ من شدة الوثاق الذي آلم اعضاءه حتى التلف فما طال توجعهُ حتى الماه عنهُ انثناؤهم عن الخطة التي اتخذوها في مسيرهم الطويل فانحدروا بهِ درجاً نافت من اثنتي وعشرين درجة حتى اذا بلغوا بهِ الثالثة والعشرين سمع جوترا باذنهِ همس دي نوريف يأمر رجالهُ بما يراه بلغة اجنبية. فتأوه عند ذلك جوترا. وقال في نفسهِ. لقد دانت وفاتي وبت حبل حياتي فها انه قد صدر علي الحكم بالموت في الكهف جلداً وقهراً وما لبث ان

سمع صوت لوح من خشب يتزاح امامهُ فتقدم بهِ اولئك الاشقياء فاجلسوهُ على كرسي كانوا قد اعدوهُ لجلوسهِ فرفعوهُ عليهِ وادلوهُ في الكهف حتى اذا بلغ المبلط سمع صوتاً يناديهِ بالافرنسية، قم وامش. فنهض جوترا ملبياً الامر جهد الطاقة ولكن انى لهُ ان يمشي وهو مقيد وبينا هو واقف مكانه سمع حركة البكر تصعد الكرسي الى حيث كان وطرق اذنهُ ضجة اللوح عند الثغرة التي ادلي منها فقال متحباً . ويلاه لقد سد في وجهي باب النجاة وانا في خلوةٍ لا معين لي فيها ولا شفيع، آه من لي بدي نوريف اقطع اوصالهِ واتلاف رجالهِ . هلا يكون لي من يدفع عني هذا البلآء ويخفف علي وطاة العناء . ترى ما غرضهم مني حتى ابقوا على حياتي وغادروني ارسف في هذا السرداب على بساط العذاب فلئن كانت غايتهم هلاكي جوعاً وصبرا . فلم لا يحلون وثاقي وقد كاد يدني اجلي قسرا. فما مات على هذه الحال برهة من الزمان لا يسمع همساً كمن اودع رمساً حتى تخدرت اعضاؤُه من شدة الوثاق فادرك عزيمتهُ الوهن واستولى على قلبهِ القنوط فسقط للارض هاتفاً بصوت الاسيف الحزين. رباه ما المنية باكره على قلبي من شدة العذاب الذي الاقيهِ في هذا المقام فاقض علي بعدالك قبل ان يقضي علي القوم اللئام ظلماً. فما اتم كلامهُ حتى شعر بيد تنقلب على جسدهِ وسمع صوت الذي ناداه من قبل يناديهِ قائلاً انزع العصاب والشبام فلم يعبأ جوترا بندائهِ فحسبهُ هزءًا لان يديهِ كانتا لم تزالا مغلولتين فتململ من الغيظ واذا بوثاقهِ قد انحل نعاودتهُ الحرية فنهض للحال على قدميهِ فنزع الشبام ولما اراد ان يميط العصاب عن عينيهِ اخذتهُ رعدة شديدة فمهل وخاف ان يبدو لديهِ مشهد هائل فاهتزت اعضاؤُه من الرعب والوجل وما لبث ان حل عقدة العصاب ففتح عينيهِ ولم يبصر كأن بهما قذى من الاحتجاب عن النور . فعالجها قليلاً الى ان استضأتا فابصر نفسهُ نـازلاً في ردهة فسيحة الارجاء قد عقد سقفها بالحجر وطليت جدرانها بالشيد تالف اثاثها من سرير نصب في الزاوية ومتكأين جعلا على طول الجدار وصوان وطاولة للكتابة وقد تدلى من سقفها

مصباحان يضيئان في المكان فوق مائدة بسط عليها الطعام . فلما تامل جوترا اثاث الردهة واجال النظر في ارجائها تعجب واندهل حتى ما كاد يصدق ابصاره فلم يبرح من مكانهِ جامدًا مبهوتًا وبينا هو على هذه الحال سمع صوت السجان يقول لهُ .

— لقد نزلت عندنا فاغتبط ونم خالي البال

فما كاد يرفع راسهُ ليرى المحدث حتى سد لوح الخشب الثغرة التي انحدر منها فلم يبصر أحدًا فزاد عجبهُ واندهالهُ . فقال في نفسهِ . ما البون بين ما ارى وما خطر ببالي من قبل . ما غرض دي نوريف مني وما حاجتهُ عندي احتى صان حياتي وحملني الى هذه الخلوة . ايطلب ان اتالب معهُ على الفتك والغدر كلا كلا انني لا اعرض عرضهُ بين الناس . وحاشا لي ان آتي ما أتاه من الغش والالتباس . ثم خطر جوترا في عرض سجنهِ بكل حذر اتقاء الحفيرة فلم يرَ فيهِ مخرجًا الا ما عهده في ستفنهِ فاستانف البحث الى الغد وكان لهُ وراء ذلك مقصد اخر لانهُ كان يريد ان يتحقق ضوء الكهف نهارًا وبينا هو يجول في اطرافهِ لاح لهُ في اعلى الجدار نافذة من زجاج جعلت لاستقبال النور فكتم جوترا في سهِ امر النرار منها ثم تحول من مراقبة الجدران والمباط الى الفحص والتنقيب في الادوات الموجودة حولهُ فعمد الى الصوان فالفى فيهِ ما يحتاج اليهِ النازل في الردهة من الملبس والمطعم واسباب اللهو ثم نظر في الفراش فوجده جامعًا لمعدات الراحة فاقتصر عند ئيذٍ جوترا من تفقده اثاث المنزل على ما تفقد واذ كان في حاجة قصوى الى الراحة لشدة ما عاناه استلقى على سريره فنام دون ان يهزه خاطر من همو واوهامه الى الصباح فلما لاح نهض من فراشهِ مسرورًا اذ تحقق وجوده في مكان بعيد من القبر وقد اشرقت فيهِ اشعة الشمس فجمعت بينهُ وبين اقرانهِ في الحياة ولئن كانت قد فرقت بينهما في الحظوظ فحول حالاً ابصاره الى تلك النافذة التي راها ليلاً فوجدها عالية جدًا لا سبيل للوصول اليها وقد قطع باماله عن محاولة الصعود اليها خلوها من حاجز من

حديد فصرف اكتناف النظر عنها الى المائدة فجلس عليها واكل ما اشتهاه بكل رغبة لان الجوع كان قد أثر فيهِ كل التاثير ولما فرغ من طعامهِ شعر بمعاودة القوة الى بدنهِ وراحة عقلهِ فعاود البحث والتنقيب في ما كان يطيف بهِ من الاثاث ولكن تنقيب من يرجو سبيلاً للنجاة ولو في شقوق الجدار وبينا هو يقلب النظر من جدار الى جدار وقع نظره على كتاب ضخم كان على الطاولة تتاق سريره فقال جوترا في نفسهِ — لابد ان يطلعني هذا الكتاب على اسباب الاحتياط التي أُخذت دون نجاتي وعلى السر الذي امسك دي نوريف عن الفتك بي . بلى بلى انهُ ابقاني عمداً لاكشف لهُ سر المال المخبوء حتى اذا ادركهُ قضى علي بلا رحمة. فما اتم كلامهُ حتى اعترض عليهِ خاطر من نفسهِ فقال لو كان من نيتهم ان يفتكوا بي لما حجبوا عني مدخل هذا السرداب وعصبوا على عيني بل كان حسبهم ان يسوقوني اليهِ فيرغموني على كشف الخباء من امر الثروة فيقتلوني سراً دون ان يدري بهم حي يسعى فسكن هذا الاعتراض بالهُ وفرّج عنهُ شيئاً فتقدم نحو الطاولة وجلس عليها يريد مطالعة الكتاب لا رهبة من غضب دي نوريف ولكن رغبةً منهُ في استنباط سر استودعهُ ففتحهُ وكان العنوان « تاريخ نورمانديا » وقد نقش بمدادٍ متباين الالوان جرياً على عادة اهل الجيل السابع عشر واخذه العجب من ارتياح الاسوجي الى ايداع سره بطن جلدٍ ماخوذ عن مولف افرنسي نادر المثال فانتجت لهُ تلك الغرابة فكراً جلا لهُ عن سر اخر غير الذي توهم بوجوده فضلاً عن ذلك توصل الى ان تبين اختلاف الجامع بين هذا التاريخ ورحلات المركيز دي مانسيناك وبينا كان يقلب صفحاتهُ واحدة فواحدة عثر في ذيل احداها على ختم ازال بعض جلائهِ القدم وما زال بهِ حتى استجلى شيئاً من شارة الامارة فعارض بها شارة آل دي مانسيناك فوضح لهُ وجه الشبه بينهما . فاستغرقتهُ الافكار فسند رأسهُ الى يديهِ قادحاً زناد الفكرة في وجه غوامض المسئلة يريد حلها بوجوهها وبينا هو على هذه الحال طرق الباب ودخل عليهِ دي نوريف باسماً فرفع جوترا راسهُ

اليهِ مدهوشًا من دخولهِ عليهِ فجأَةً فحياه الروسي وجلس فقال

— اسمح لي بمفاوضتك قليلاً

ولما كان جوترا في حيرة شديدة اعياه الجواب فلبث صامتًا فاستطرد دي نوريف حديثهُ قائلاً.

— حدثني قبلاً عن راحتك في هذا المنزل فاخشى ان يطول فيهِ قيامك على الضجر والملل وهي ان القاك فيهِ ناعم البال في رخاء العيش وبسطتهِ

فتكدر جوترا من حديثهِ الدال على السخرية فاعتصم بالصبر عن الجواب فخلا لدي نوريف مجال الكلام واذ كان جالسًا الى جانبهِ حانت منهُ التفاتة الى الكتاب المنشور على الطاولة فقال مشيرًا اليهِ.

— يسرني ان اراك لاهيًا بما يفيدك خيرًا وقد كنت اطلعتك على ما اسر خاطري في شان سر نسيبي الاسوجي فاحب اليك ان تنفعني بعلمك وحذاقتك فتستنبط لي سره المكنون في هذا السفر

فاستخف جوترا الغم والكدر من استخفاف دي نوريف بشانهِ وقد خانهُ الصبر عند سماع حديث هاج بلابله فقال

— لا اعرف لك حقًا فاطالب علي بوفائهِ واعلم انني لا ابوح لك بالسر اذا وفقني الله الى ادراكهِ

— ما اخالك يا صاح جائرًا الى هذا الحد وقد كان عهدي بك مخلصًا وفيًا فهل يجدر بك ان تنكر الوفاء بما اصطنعت عندك من الجميل وما اوليتك من الاحسان في ضيافتي. فلئن كنت رفيقًا بنفسك حريصًا على حياتها فبح بالسر واجلهِ دون مهل والاَّ لبثت مكانك الى انقضاء الاجل

— حبذا الموت راحة من عذابك

— لِمَ تدعو الموت اليك وما الذي يحملك عليهِ. اترغب فيهِ عن كشف سرٍ غبي تعمد ان يحرم ورثتهُ من خير هداه اليهِ التوفيق

— اتزعم بما تبديهِ من سلامة النية في اعتقالي ستر الاوجاع التي قاسيتها على

آكف انصارك انقلب بين حبال الشدة واوصال الغدر الى ظلمة هذا القبر

— اراك تجور في حكمك على هذا المنزل وقد توفرت فيهِ لديك معدات الراحة والطمانينة .

— فاجابهُ جوترا عابثًا بهزئهِ وسخريته اعلم ياصاح انني لم ارتب قبلاً بسريرتك وصفاء طيتك في زيارتك لي وقد ارتحت الى اتباعك دون ان اسالك بيان الغاية اما الان وقد اخذت ما اخذت من الاحتياط توصلاً الى استنباط سر ما زلت بعيدًا منهُ فلا بد لي من الاطلاع عليهِ قبل ان افيدك شيئًا .

— بالله اطلعني على ما عندك ايها الثقاف من العلم بغايتي فان سعادتي رهن يديك

—لا يغرب عن ذهنك انني ناظرت المنية باهوالها فلا انقيها

فامسك دي نوريف برهة عن الكلام وهو لم يزل شاخصًا في الثقاف الماثل امامهُ فاستطرد حديثهُ جوترا الى ان قال

— اسمع ياصاح . اذا كنت قد دخلت علي رغبةً بالتلهي في ما اعاني من الاوجاع والعذاب فلك ذلك ما استطعت اليهِ سبيلاً دون ان تجد مني معترضًا او شاكيًا ولكن ان كنت تريد ان تحدثني بغير ما حدثت حتى الآن سمعت مني الحقيقة دون التباس وعرفت انني من نجلة الناس

فاضطر دي نوريف ان يضرب عن نهجهِ الاول في الحديث مع خصمهِ واتخذ سبيلاً اوضح للكلام معهُ فقال

— صدقت ياخي في ما قدمت فلن اكلمك الا بما يشف عما في نيتي فاعلم انهُ لم يكن من قصدي في اجتذابك الى هذا الموضع الا كشف ما في هذا السفر من الغوامض والرموز التي تستطيع حلها حتى اذا اتيت عليها كلها كافاتك بما انا اوسع لهُ

وكان دي نوريف ينظر الى جوترا اثناء كلامهِ فآنس منهُ الازدراء والاغضاء

فحوّل حديثهُ عن طريقهِ وقال

— ان ما اعدك بهِ من المكافاة ليس بشيءٍ في جانب ما اسبغهُ عليك من العطاءِ اذا تجردت لمساعدتي ايضاً في غير ذلك لانني اتوقع منك حل مشاكل جمة تعود عليَّ وعليك بعظيم فائدة .

— وما الذي تتوقعهُ مني يا صاح

فتردد دي نوريف برهةً عن اداء الجواب في ما يثير غضب الثقاف ولكنهُ ما لبث ان باح بهِ بعد ان تاكد منهُ السكينة والامان

— اتذكر يا صاح ما جرى في « المافر » في الرابع والعشرين من ايار عام ١٨٣٠

فاكمد اذ ذاك وجه جوترا وتصرمت انفاسهُ فاذرف العبرات وصعد الزفرات حنقاً وكيداً ثم تقدم عن موضعهِ الى محدثهِ وقد تقلصت شفتاه كانهما تبغي الكلام فاحجم دي نوريف اذ راه على هذه الحالة وما طال بجوترا السكوت حتى ابتداه بهذا الخطاب

— يا للجراءة اتستطيع ان تقر وانت في خلوتي وقبضة يدي بما فعلت في ولدي .

وكان يتقدم الى خصمهِ شيئاً فشيئاً وقد ثارت ثائرة الغضب في قلبهِ فقدحت عيناه شراره فلم يبرح الروسي من مكانهِ واخرج من جيبهِ ناقوراً فنفر لذويهِ ولم يكن الا برهة حتى انفتحت الكوة وبرز منها غداراتان مصوبتان على جوترا فقال الروسي

— قلت لك ايها الثقاف ان لا فائدة لك من الحنق والغضب فاقلع عنها واحذر شر غوائلها



فلم ينثن جوترا عن عزمهِ وتاكد اذ ذاك دي نوريف ان الخوف لا يوثر في نفس القانط بل كان من الحكمة ان يعدل عنهُ الى المسالمة والملاينة فباح بما اسره على الرجل حرصاً على ما ربه فقال لهُ

— الا تود ان تعلم بما آلت اليهِ حال ولدك

فكان لهذا الخبر على فواد جوترا من الاثر ما للماء على جذوة نار فارتد الى الوراء حتى استلقى على الكرسي واستغرط في البكاء فسرّ دي نوريف بنتيجة الحيلة فاوعز الى مريديه ان يقفلوا الكوة وجلس يناظر خصمهُ على الطريقة الاولى ساخرًا منهُ وهازئًا بغضبهِ فقال لهُ

— اني عرفت اسباب غيظك وكدرك ولكنني لم ادرك السبب الذي من اجلهِ تضرب عن سماع ما اقترحهُ عليك

فنكس جوترا راسهُ شأن من يصم اذانهُ عن حديث لارغبة لهُ فيهِ

— فاستطرد دي نوريف كلامهُ الى ان قال. مالي اراك لا تقف من شانك عند حد معلوم فانني عندما عرّضت بذكر حادثة موجعة رايتك ترغي وتزبد حنقًا و بغضًا حتى كدت تسطو عليَّ ثم طلبت اليك ان تصغي الى ما عندي من الاخبار عن ولدك فارتحت الى سكب الدموع دون ان تحير جواب فليس ذلك من داب الرجال ولا من شيم الابطال

ان جوترا كان قد صوّب في نفسهِ حديث الخصم ولكن لم يكن لهُ ان يجاريهِ على السير في طريقهِ خيفة المكائد لانهُ اذا اذعن الى سماع حديثهِ كان كمن يبغي التواطوء معهُ على قضاء حاجتهِ لا سيما ان دليلهُ على صحة الاخبار عن ولده كان ناقصًا ولم يخطر ببالهِ الاهتداء اليهِ عند رجل اجنبي فسالهُ قائلاً

— انى علمت بانني

— ما اغناك علي بوجوده عما صار اليهِ

— انتقص علي قصتهُ دون شرط تقتضيهِ مني

— ما اظنك تزري بقيمتها

— كان لا بد اذن من بيان قدر ما عندك لاعادل بقيمتها ما عندي

— اراك في ريب من كلامي بل اخالك تزعم انني قصدت ان ابيعك ما لست املكهُ

— انت عند حد ظني بك

فامتعض دي نوريف من كلام الثقاف وساءه ظنه لكن الغاية التي كان يتطلبها سكنت روعه وخففت ما وقع في نفسه من اثر الكيد والحنق فاضرب عن الحدة الى اللين وقال

— اعلم ان قد اتفقت رغائبنا على اظهار الحقيقة فلا يسعني الا الاقرار بما اعلمه عن ولدك لان لي حاجة كبرى عندك اريد الحصول عليها لقاء ما ابسطه لديك وليس لي الا هذه الحيلة للاتفاق معاً فاذا راق في عينيك كلامي سردت القصة بوجوهها

— قل انا على اتفاق

— بقي لي عندك رجاء قبل ان اشرع بقص تلك القصة الطويلة ألا وهو ان تعرتني من كل ما تسمع وان تصد عن مطالبتي بيان الاسباب والمسببات وحسبك العلم بحقيقة ما ارويه لك

— قل لي فقط اين استقر ولدي وعليَّ من ثم اخذ الطريق المؤدي اليه

— ذلك الحق لا ريب فيه وستبلغ اليه عند النهاية

— فابدأ اذن بروايتك فاني اكاد اموت جلدا

— اسمع لي ان ارد فيها موارد بعيدة اصدر عنها الى غايتك ومأربك

« اعلم ابنك الثمانة كان منذ اثنتين وعشرين سنة اي عام ١٨٢٤ فتى قد

« دخل في سلك الخيالة واقام في الجندية مدة رقي فيها الى رتبة ضابط الى ان

« جدّ بوالده الوجد فدعاه اليه فقام الشاب يلبي دعاء والده تاركاً وراءه كل

« امل كان يتوقعه من نشاطه في الخدمة وحسن اقدامه فيها ليلقى امامه

« الشقاء والشدة في قرية من قرى نورمانديا »

ان جوترا كان يصغي بكل انتباه الى حديث دي نوريف الذي كان يرتاح الى روايته شأن من اصاب المرمى وفاز بالغرض

ثم استطرد سردُ القصة فقال

« وكان هذا الضابط حاذقًا عارفًا قد اخذ العلم عن والده قبل عهد
« الثورة فبرع في الرياضيات اكثر منها في سائر العلوم وكان في ضواحي تلك
« القرية التي نزل فيها الشاب وابوه قصر يأويه رجل من سراة القوم وامرائهم
« وكان لهذا الرجل ابنان وابنة فوكل تهذيب الفتيان الى الشيخ الموما اليه
« اثناء عطلتهما المدرسية ودفع الابنة الى احدى المربيات الانكليزيات

فاربد وجه جوترا عند هذا الكلام الى ان لاح لدي نوريف اضطرابه فقال

« اراني اخطات في تحقيق المربية سوسنه على ان منشاها كان كلاسكو

فما كاد الروسي يبوح بهذا الاسم حتى اخذ العرق البارد يتحلب من جبين جوترا فتخدرت اعضاؤه ووهت عزيمته فلم يستطع صد الراوي عن اكمال القصة حبًا بالوقوف على الغاية فاستطرد دي نوريف حكايته فقال

« وكان في تلك المربية عنوان الجمال ومنتهى الحسن نشأت تحت عناية
« ابيها القس الانجيلي في دار ألحم فيها الفقر واسدى فاضطرت ان تندفع الى
« التدريس بما جمعت في نفسها من الصفات اللائقة به غير انه كانت تثير في
« فؤادها نار الهوى تحت رماد الصبر والجلد

وهنا اشتد غم جوترا فبكى واهتزت اعضاؤه كمدًا فقال له دي نوريف اراك في غم شديد ما اورويه لك فمن الصواب ان اقلع عن هذه الاسهاب الى الايجاز المفيد في القصة التي تتوقع ادراك نتيجتها

« فاتفق ان مرض الاستاذ الشيخ فاستناب ابنه في القصر ولما استقبلته
« المربية واجتمعت به كانت النظرة الاولى بينهما رسول الغرام فاشتد كلف
« الاستاذ بها وتهالك على حبها ولكن ترى هل كان عندها منه قدر ما كان
« عنده منها اليوم فلها الجواب على ذلك وهي به اولى الا اننا نعلم من امرهما انهما
« كانا على حد بعيد في الحب ولما مر بهما ثلاثة شهور من اليوم الذي دخل فيه
الضابط القصر باح لها بسره وكشف لها عن جوى فؤاده وحره وكان في اثناء

« تلك المدة قد استوفى ابوه حظهُ من دنياه فخلف لهُ من المال ما يغنيهِ. اما
« المربية فكانت يتيمة لا تملك من حطام الدنيا شيئًا فرضيت بالضابط بعلاً
« ولما كان ربيع عام ١٨٢٥ قصد الزوجان باريس بغية ان يقضيا فيها شهر العسل

وعند ما انتهى الروسي من قصتهِ الى هذا الكلام نظر خلسة الى جوترا فالفاه يبكي فراى ان يسرع في سرد الرواية فقال

« وكانت تلك الرحلة اول رحلات العروس الانكليزية لانها كانت قد
« قدمت من كلاسكو توًّا الى القصر الذي اجتمعت فيهِ بالضابط فابطرتها
« السكنى في باريس بين اللهو والزهو والترف واحيت في قلبها موات
« المطامع والمطامح فآب العروسان الى القرية ومعاودة العيشة جهد الطاقة
« على ان سوسنه كانت قد آلت على نفسها ان تعيش في رغد وهناء وما طال
« بها الزمان حتى وضعت غلامًا ذكرًا دعاه والده هنري ومال اليهِ ميلهُ الى امهِ
« ولكن ياللغرابة ان الام انكرت على طفلها وموطد عهد الحب بينها، و بين
« رجلها العناية والرضاع فكان ذلك منشأ النفار والشقاق بين الزوجين ولما
« كاد يبلغ هنري الرابعة من عمرهِ العمر الذي بهِ يجتذب الطفل بحركاتهِ
« واحاديثهِ اللطيفة قلب والديهِ اشتد بهِ كلف ابيهِ الى حد التلف فاذهلهُ عن
« مظاهر الام الخشنة.

فهنا شق على الروسي بكاء جوترا المتواصل فراى ان يضرب على ذكر ما اتصل بهِ من تفاصيل تلك الرواية الى النتيجة التي يسند بها مقاصده فقال.

« ولما كان شهر ايار عام ١٨٣٠ خطر لسوسنه ان تقصد المافر بحيلة ان
« هواء البحر ناجع لعلتها فاذعن زوجها الى رايها وسار في رفقتها الى المحل المقصود
« وكان في ذلك المرفاء مركب روسي قد عقد لواؤُه على ربان ابن تاجر من
« ريكا » قد اذهل العقول بسعة عيشه واسرافه. فاتفق ان هذا الربان لقي
« سوسنه على الفرضة فازناه حسنها وفتنهُ جمالها فحدثهُ قلبهُ ان يكاتبها بما وقع

« منها في نفسهِ وانهُ قادر على خطفها . فما انتهت تلك الرسالة الى سوسنه حتى
« بشرت نفسها بنيل الامنية فقالت لقد اتت الساعة التي ابرزبها من وراء الحجاب
« فامزق الستار (وما كان اولى بها ان تتول فاخلع العذار) الى ان كان مساء
« يوم من ايام اقامتها في تلك المدينة فخرجت بولدها من المنزل ولم تعد اليهِ
« فقلق زوجها لابطائها تلك الليلة فبات كئيباً حزيناً لا يستقر من همهِ وكدره
« على حال . ولما كان الغد سار الى دائرة الشرط فاعترضهُ في طريقهِ رسول
« دفع اليهِ كتاباً تضمن ما يأتي

« انني على سفرٍ فاخلع من قلبك حبي واضرب على ذكري »

فنفر جوترا عند هذا الكلام وصاح قائلاً — من اين اتصل بك ذلك

— ساعلمك بهِ مستانفاً لكن دعني اكمل رواية هنري واظنك تصبو الى
« سماعها وتميل الى الاطلاع على تفاصيلها · فاعلم يا اخي ان الام سافرت والى
« جانبها ولدها وهي لم تبالِ بما كان يحول دون حبها لهُ من البواعث فراح
« الاب ينهب الطرق ويتخلل المفاوز ويجوب الافاق ساعياً وراء ضالتهِ عبثاً
« اما السفينة فلم تدخل مرفاء ريكا ولم ترس في ميناها فظن كل من عرف
« تلك القصة ووقف عليها ان قد ابتلعتها الزوابع فذهبت بمن فيها
« عقاباً عما اجترماها واقترفاه لكن الزمان لم يات بمؤيد لصحة الظن في الغرق
« او التلف وها قد مر بتلك الحادثة زهاء سبع عشرة سنة ولم يزل الاب يجد
« ويكد علهُ يصادف ولده

وكان جوترا واقفاً اثناء الحديث ازاء الروسي يحدق فيهِ تحديق من توهم ان غرضهُ عنده لكن دي نوريف كان احذق من ان يدع ظواهره تخون بواطنهِ

— فاعترضهُ جوترا بقولهِ · يتبين لي من حديثك انك صاحب هذه الحادثة بل خاطف امراتي وولدي

— ما قلتهُ كان جملة ما اتصل بي من امرها مفصلاً

— ابن استقر النوى بولدي

— ما الفائدة من العلم بمقره قبل النجاة من هذا الضيق

— بالله قل لي ما الحيلة للخلاص منهُ

— ذلك ما كنت اود ان افتتح الخطاب بهِ ولكن لا باس ان نخوض بهِ الآن

— عجل فديتك فما حاجتك عندي

— ليس الا ما هو دون الطاقة

— وضح المقال

— اجلُ لي عما اودع هذا السفر من الاسرار

— وما يكون بعد ذلك

— ان تدخل في خاصتي فتعدل عن خدمة عدوي الى خدمتي

— لقد استغلق عليَّ فهم مرادك

— اذا اردت الايضاح فدعني اكمل القصة حيث تركتها لان لك فيها الفائدة الكبرى ومنها يمكنك الاطلاع على اخص ما تطلبهُ وما تبغيه مني

«انني انتهيت منها الى حيث غادرت المراة زوجها يتقلى على الجمر فانها

« خانتهُ فاوغر صدره حقدًا عليها ولم يزل حتى اليوم يتطلب التشفي من غيظهِ

« اما الاب فكان مولعًا بحب ابنهِ الى ان هان عليهِ فقد مالهِ وحياته في سبيل لقياه وما كنت اذكر المال لولا انهُ انفق عبثًا كل ما ملكت يداه دون

« غايتهِ وقد جد بهِ الحرص عليها اخيرًا الى الاحتراف فابهظت عاتقه النفقة

« فصار ثقافًا

— فاجابهُ جوترا هازئًا اتواخذه على ذلك وقد كان من امرك ما يضارعهُ فقد نشأت اسوجيًا ثم بعثت جاسوسًا من قبل الحكومة الروسية

— فاستانف دي نوريف حديثهُ فقال . مالنا وللخوض في احاديث لا

«محل لما عند غرضنا وكان الرجل يوم انتظم في سلك الثقاف غض الشباب
«حاذقاً عارفاً فلم يكن الا مدة شهر من دخوله الخدمة حتى تقدم على اقرانه
«فارتاحت اليه الحكومة في اجراء الامور العظيمة وعهدت اليه البحث والتنقير
«في المشاكل الخطيرة . ففي عام ١٨٢٣ جد الثقاف في اثر رجل غريب توهم
«فيه احد الثائرين

— فاعترضه جوترا قائلاً . اراك ترفع قدر هذا الرجل وتزيد في اجلاله بقولك انه ثائر ولكن الحقيقة هي انه كان يساوم في اسرار المبعدين بابخس الاثمان فيبيعها لكل رائد

— فاجابه دي نوريف صارفاً النظر عن الاهانة التي رماه بها قائلاً له . ان جل ما تحراه الثقاف في شكوى ذلك الغريب ان هو الا تقع غليله بتوهمه انه خاطف امرأته وابنه

— كان ذلك من قبل وهماً اما اليوم فقد اصاب

— انه لم يزل مخطئاً فعام ١٨٢٣ اراد الوقيعة برجل كان يقوى على ارجاع ولده عليه واليوم يلج في عذله بدل ان يصغى اليه

وكان دي نوريف قد ارسل هذا الكلام بكل صراحة ووضوح اثراً في نفس جوترا ووقعا منها موقعاً عظيماً ثم استانف الروسي حديثه فقال

— ان ذلك الثقاف لم ينل من شكواه جدوى بل عادت عليه بالوبال فكاد يفقد منصبه واليوم ربما ناله من سيرته ما يكون اشد وقعاً عليه مما نال قبلاً فان البغضاء التي ما لبثت تقرض قلبه منذ خمس عشرة سنة تحدو به الى اقتصاص اثر الرجل الغريب وبدل ان يذهب الى نجدته تراه يحاول بالقوة والعنف اقتلاع سر الاهتداء الى ولده من صدره

— من تراه العامل منا الآن بالعنف والغلظة

— واينا غدا منذ شهر ندّ المفسد. يتوفر على اتخاذ كل وسيلة دون ادراك سوءلهم

— ما فعلت الا ما كان علي فرضاً وسنة

— هل كان من واجباتك ان تقصد عدوي فتنضم اليهِ عوناً عليّ

— الى من تشير ومن هو عدوك

— هو الرجل الذي وعدتهُ بالقاء القبض على ذاك الذي كنت تتوقع زيارته امس مساء عندما وفدت عليك

فاطرق جوترا خجلاً يفكر بالواشي الذي نقل الى دي نوريف ما كان من امره مع سارتيلي فلم يخطر ببالهِ الا السائق طوبيا الذي باغتهم في الغرفة سواء وبينا هو يفكر في استجلاء الحقيقة قاطعهُ الرومي الافتكار بقولهِ

— ان في الامر غرابة ولولا كنت ممن طبعوا قلوبهم على الشر والغدر لكنت انتقمت لنفسي نعم بلا ريب لانك كنت تحمل علي انا الذي اقوى على رد ولدك الى صدرك

فعندئذٍ اهتز جوترا عجباً وتقدم الى دي نوريف والشرر في عينيهِ فقال بصوت متهدج

— لا استطيع ان اعزو الى سارتيلي اختطاف ولدي لانهُ كان عام ١٨٢٠ صغير السن فتياً

— ومن انباك انني اريد باشارتي سارتيلي

— اذن من تريد

— ان سارتيلي لرجل غبي اما الذين احبهم والذين من اجلهم سعيت جهدك فهم المرتكبون

— اتعني بذلك صديقهُ المركيز دي مانسيناك

— كلا لا اعني بذلك روجه المتغيب ولكن والده القائد ادمار دي مانسيناك

— ويلاه يا لهذا النبأ العجيب الغريب ما تقول يا صاح لقد اسمعتني الان احلاماً لم اكن اتوقع صورتها في منامي بالله انبئني ما الذي دعاه الى

سلب ولدي

— انهُ لم يتعمد سلب ولدك بل اختطاف سوسنه تلك التي تاه عقلها في المال فبسطت اليهِ كفها لاول دعوة دعاها اليهِ

فهجس جوترا في نفسهِ وقال — ما الذي صنعتهُ مع تلك المرأة حتى خانت عهدي وباعت ولدي.

وبينا كان الثقاف في هاجس ما سمع قاطعة الروسي الكلام بقولهِ لا بد لي من اكمال القصة التي بدأت فيها فاقول

«انهُ في الرابع والعشرين من ايار عام ١٨٣٠ الم يكن تغيب سوسنه عنك

« في الحجاب انقياداً الى دعوة الربان الروسي كما قدمت وكما زعم اهل المافر

« عقيب هجرانها بل دونك الحقيقة في ذلك السبب

ان اليوم الذي زايلت فيهِ سوسنه الدار قصد التنزه مع ابنها على نجوات انكوفيل كان اليوم الذي ضربت فيهِ موعداً للقائد ليوافيها اليهِ فيتفق معها على حيلة تشفي فوادهُ من الم الانتظار والجوى معاً. ولما تلاقيا في ذلك الموعد وكان القائد قد ارصد معدات السفر وتاهب للرحيل حالاً اعتذرت اليهِ وانكرت صحبة ابنها او ارجاعهُ الى ابيهِ خيفة اذاعة الامر فرأى القائد ان يقصد زميلهُ الربان بغية ان يودعهُ الولد فقام مع سوسنه وذهب بهِ اليهِ تحت جنح الدجى

فتوسلا اليهِ ان يبقي الولد عنده رحمة بهِ لان والده قد اقعده الدهر عن القيام باودهِ فمست الربان الشفقة على الصبي فابقاه عنده وفي تلك الليلة التي قصد فيها دي مانسيناك وسوسنه باريس اقلع المركب من الماقر

فاستغرقت اذ ذاك جوترا الهواجس والافكار فلم يبد كلاماً وما طال هاجسهُ حتى قاطعهُ الروسي بقولهِ

— الا تصدق ما قلت لك الان

— كلاَّ انك كنت قد قلت ان المركب فوروتج قد غرق على انك كنت ربانهُ ولم تزل حياً

— قلت ان المركب لم يعد الى ريكا وفي ذلك نظر

— فلابها خطر اولاً ان يذهب بالولد الى المركب

— للرجل لان المراة لم تكن تعرف الربان

— قل لي اذن اين استقر ولدي وانا بكليتي بين يديك

— ولكن لم تعلم بعد باصاح بما اطلبهُ منك

— اتراني جاهلاً ما في نفسك والعدو الذي تريد ان اناصبهُ بالاتفاق معك

— لو كنت تدري بهِ لكانت وعمري مصلحتنا واحدة وجب علينا الذود والانتقام لانفسنا

— بالله اين أوى ولدي

— ان قلت لك بمكانهِ فمن يضمن لي قيامك على الوعد وثباتك على معاهدتي وصيانة سري عن سمع صديقك سارتيلي

— ليس الا كلامي

— لا انكر قوتهُ عندي وصحتهُ في المواثيق والعهود ولكن عندي ضمانة اخرى اقوى واصح

— قل ما هي

— هي ان تستجلي ما أُودع هذا الكتاب من الاسرار حتى اذا انتهيت وحققت آمالي فرّجت عنك واطلقت سبيلك وارجعت اليك ولدك الذي تذوب قهرًا على ضياعهِ و بذلك نكون قد تبادلنا المصلحة وخدم كل منا الآخر بما يفيده خيرًا

— رضيت بما تبغيهِ ولكن بقي لي ان اسأَلك مسئلة اخرى

— ما هي

— ما الذي يحملك على بغض الرجل الذي اختطف ابني وقد كانت عرى المودة بينكما موثقة فقضى ... عليهِ وانت ما زلت تجد في الانتقام من ذويهِ

— هو انهُ سلبني ايضاً شيئاً آخر قد عزَّ عليَّ فقدانه وهو قلب امرأة لم أهوَ سواها كل عمري . فيا لهُ من صديق ايسر ما عنده اذلال صديقهِ وامتلابه حظهُ وهناه !!

ولما آنس جوترا من كلام الروسي دلالة الصدق والخلوص زال من نفسهِ الريب فقال :

— صدّقت كلامك وعرفت مرامك فاني لا الو جهداً في خدمتك واستفراغ الوسع في قضاء مهمتك واقسم بحياتي ان لا اتجرَّد منها حتى استوفي حقوق الصداقة من آل المركيز اذ فاتني الاستيفاء بهِ من نفسه

— فعليهِ انني احلف لك بانجاز ما وعدتك بهِ فأعيد والدك اليك ولا اخلف ثم انسى معاندتك لي ومناوأتي

فقام كلاهما فتصافحا وتبادلا علائم الاخلاص ثم قال لهُ الروسي

— اني افصل عنك الآن فاعود اليك بعد حين لاخرج بك من هذه الغرفة التي والحق يقال انها محل ضنك وعناء

— وما الذي دعاك الى ان تسوقني اليها قسراً وقهراً

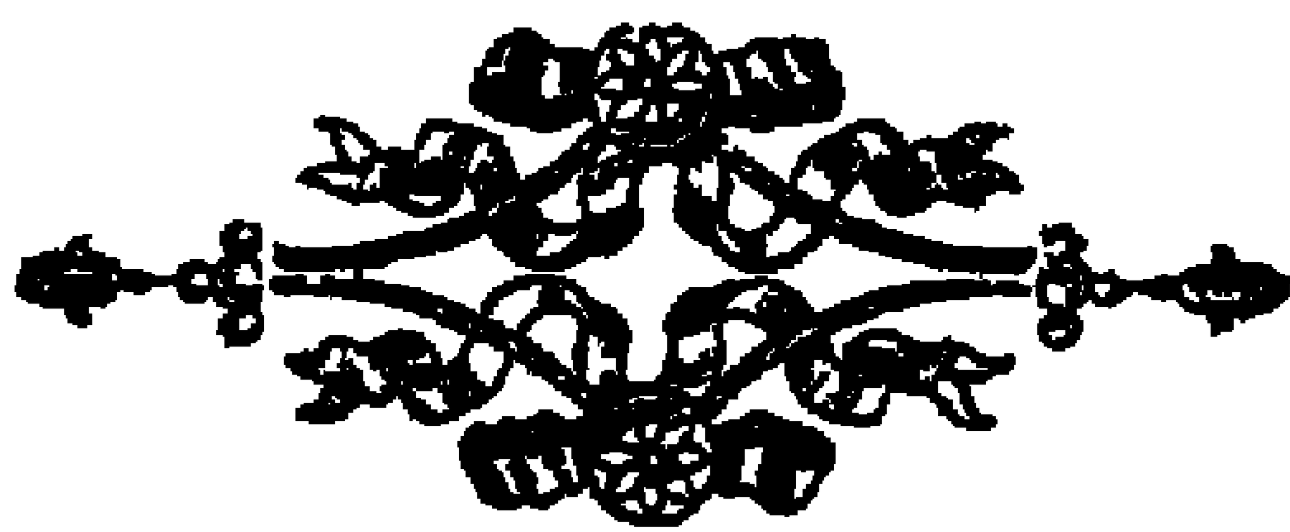
— انك كنت لي عدوّاً لدوداً لم تنفك منذ خمس سنوات عن معاندتي وقد انضممت اخيراً لنجدة من ادّعى عليَّ زوراً بالقتل والفتك فخشيت ان تتوصل بدهاك وذكاك الى ان توقعني بحبائلهِ فنصبت لك ذلك الفخ وقطعت بك عن مواصلة السعي في هلاكي وقد كان من نيتي أن اتخذك لي نصيراً ولم يخطر ببالي أن ارومك بضرَّة اصلاً

فوقع كلام الروسي في نفس جوترا موقع الاخلاص منهُ واعتقد بهِ الصدق وسلامة النية الى حد انهُ آخذ نفسهُ بحذرها منهُ وقلة الثقة فيهِ على ان من عرف جوترا ومكانهِ من الحكمة والحذق والدراية لدى الحكومة لا يأبى تصديق ما يتكشف امامهُ من السذاجة ولكن من البديهي ان الملكات اذا تسلطت على قلب الانسان بدّلت طباعه وعدّلت اخلاقه . فما لت بها احياناً من اللين الى

القسوة ومن الضعف الى القوة فلا غرو اذا رأينا طباع جوترا قد تبدَّلت تحت قوة الحب الوالدي فخانة الحزم وآنسته السداجة وضعف الرأي

واذ كان الروسي يلج في اجتذاب جوترا اليه طمعاً بحدثه عن الدياس واصل وضعه ليبين له خلوصه وارتياحه اليه فقال له : اني دخلت هذا الدياس ايام ثورة تموز فلا اكتمك الآن السبل التي كنت اسلكها اليه ذهاباً واياباً

وتقدم امام جوترا الى خوان في آخر الدياس ففتحه بآلة خفية فانزاح عن فوهته خشبة عريضة فولج دي نوريف الصوان النافذ وجوترا وراءه فابصر فيه على رغم الظلمة المنتشرة هناك سحابة فقال له الروسي ٠ ان هذا هو المدخل العظيم ومنه غداً انسل اليك لاخرجك من المضيق اما الآن فانني اسعى في توفير ما تمس حاجتك اليه امل ان تلقى المساء في الكتاب ما اتوقعه منه وتذكر انك تعمل في قهر عدوما وكيده . ثم ودع الروسي جوترا وانصرف فعادت الخشبة الى موضعها سدّاً في وجه الثقاف



الفصل العاشر

نهر السين

لما خلا جوترا بنفسهِ وقد سُرّي عنهُ قليلاً اعمل الفكرة في ما تلقاهُ من الرومي دي نوريف فقام يمشي في عرض ذلك الديماس ويضرب اخماساً باسداس . فيوفق بين ما علق في ذهنهِ من تلك الاسرار التي جلّى عنها الحديث فيميز الطيب منها من الخبيث. لان امعان الفكرة أدى بهِ اخيرًا الى الارتياب في بعض ما قالهُ الراوي لغموض المعنى و بعد الاشارة عن الغرض المقصود . فقال في نفسهِ . ان قصة الاختطاف التي رواها دي نوريف لا ريبَ فيها بدليل ما اتصلَ بي من الادلة الصريحة التي بعثتُ بطلبها من بطرسبرج بعد تغيب امرأتي وولدي فضلاً عن ذلك ان دي نوريف اقام في باريس عقيب ذلك الاختطاف ببرهة وجيزة فلم أصادفهُ قط مع سوسنة التي لاح لي يومًا ما انها كانت على العربة برفقة فتاة تطوفان في ارجاء غاب بولونيا . ان جوترا لم يكن يعرف القائد دي ماسينباك معرفةً واضحة الا انهُ كان يسمع عنهُ ما قالهُ فيهِ دي نوريف ادبًا وسياسة

لئن كان قد خانهُ الجد في الاهتداء الى ضالتهِ فعن خطاء منهُ لانهُ لم يتخذ في سعيهِ وراءها معانًا مستقيماً ويا ليتهُ كان قد انتهز الفرصة التي فاتتهُ عام ١٨٣٢ عام طوى فيهِ البلاد حيًا بعد حي وراء دي نوريف طمعًا بالوقوف على حركاتهِ وسكناتهِ السياسية مع الحزب المعتزل فتوصل بابحاثهِ وتنقيبهِ الى

قصر دي مانسبنياك لكان ادرك غايته وفاز بامنيته

اما رواية الخاطف فلم يصدقها بوجهها فقال في نفسهِ . ان العلائق الخفية التي كانت تجمع بين دي نوريف ومانسبنياك كانت مشهورة لا تحتاج الى اثبات وقد كانا متفقين متواطئين على الغدر والمكر لئن كان قد اراد ان يعزو الفعلة الى دي مانسبنياك ما ذاك الا ليلقي عن عاتقهِ ثقلاً قد ابهظهُ فيدفعني الى اقتصاص اثره والوقيعة بهِ فيتخلص اذ ذاك من شرّه · وقصارى الكلام لا بدّ لي من الوقوف على جلية الامر فاجتمع بولدي سواء كان عند دي نوريف او سارتيلي فانتقم لهُ منهُ انتقامًا يخلفهُ السلف عبرةً للخلف

ولما كانت عينا الثقاف تقدح شررالحدّة وسط الغرفة بان لهُ من خلالها الكتاب الذي كان قد غادرهُ على الطاولة فتذكر ما كان آخر حديث دي نوريف معهُ ورأى ان يبدأ بالبحث عن السرّ لانهُ كما قال الرومي يجلي لهُ فيهِ طريق الوصول الى خصمهِ فحرصًا على هذه الغاية أخذ جوترا بالعمل بكل نشاط ورغبة. وكان الرجل قد برع في فن حلّ الرموز وتفسير الكتابات القديمة والاختزال وتركيب الجمل تحت احرف كلمة واحدة خلاما كان عنده من المعرفة في الكيميا واسرارها التي بها تبين الحروف بعدان عفاها القدم وشوهتها الايدي

فاكبّ جوترا على ذلك الكتاب وكان ضخمًا اشتمل على اربعمائة صفحة او يزيد فقلبهُ ورقة فورقة وبيدهِ الادوات اللازمة لفحص حروفهِ كلها وكشف رموزهِ فلم يستفد شيئًا · بل جل ما قراه في نحو ثلثي الكتاب كان بعض قصص تتعلق بدوقات نورمانديا وسرانها ولم يقع نظرهُ طيها على اشارة خفية تفيد وجود كنز ولما كان قد مرّت بهِ الساعات دون ان يشعر بها لكثرة اهتمامهِ نهض جوترا من مكانهِ يطلب زادًا لان الجوع كان قد مسهُ جدًّا فتناول ما تهيأ له وراح يتمشى في الدياماس دأب المسجونين اذا سئمت لهم الخلوة · وبينا هو يطوف فيهِ خطر لهُ ان ينظر في شكلٍ آخر ألا وهو البحث عن موقع الدياماس الذي اعتقل فيهِ من المدينة فاخذ يستدل عليهِ من اشعة

الشمس النافذة اليهِ من الكوة العالية فعرف انها لجهة الجنوب ولكن ما زال في حيرة من قبيل ذلك فقال بعجباه من اين تنفذ اشعة الشمس الى هذا الدهليز وقد اقتضى للوصول اليهِ ان انحدر على درج لاعداد له . ترى هل جعل هذا الدهليز في بحوة عالية مثقوبة حتى انفذت الشمس انوارها على رغم بعد غوره وعلى مَ يشرف من الكوة ان قلت على الطريق كان لا بدَّ للمارّين من النظر فيها والتألب عليها كلاَّ ان عربة دي نوريف لقد بعدت بي عن العمارة فالقتني في البرّ القفر حيث لا يتسنى لاحد العلم بحالي ومكاني . وكان يصيخ سمعًا الى ما وراء تلك الجدران فلا يطرق اذنهُ حركة تشير الى جلبة اهل المدينة وضوضائهم بل كان يسمع خريرًا عجيبًا يزداد شيئًا فشيئًا ثم يتواصل على طريقة منتظمة ثم ينقطع فيتلوهِ أطيط ضعيف يشبه جسمًا ضخمًا تدفعهُ قوة عظيمة على الجدران ثم يتجدد ذلك الضجيج فيضارع ضجة عربةٍ تكرُّ على مسافة بعيدة

ان جوترا كان قد شعر بما يجري وراء تلك الجدران من الحركات وما يرتفع بعدها من الاصوات المتنوعة منذ دخل ذلك الدهليز إلاَّ انهُ لم يحفل بهِ لضعف تأثيره وارتباك باله فعاد الان الى البحث في استجلاء الحقيقة وكان قد نصل خضاب النهار فاظلمت الكوة كأنما قد وضع عليها ستارٌ كثيف يمنع نفوذ النور منها

فتاه جوترا في بيداء الفكر يستنبط في ذهنهِ سر هذا التقلب الغريب وما زال مفكرًا الى ان نهض مدهوشًا وصاح :

: ذلك هو نهر السين . نعم هو السين لا شبهة فيهِ

وما انقضى عجبه حتى تدفقت الماء من زجاج النافذة العالية لان اشتداد الريح كان قد دفع مياه النهر فتجاوزت الحد المالوف ثم انقطع الوكف وكأنهُ لم يكن إلاَّ ليدري جوترا بمكانهِ من الارض . فعرف حينئذٍ انهُ قائم في موضع يناظر السين وان الكوة التي جعلت في سقف الدهليز كانت على ضفة النهر او تدانيها

فلا يستطيع رؤيتها الا من كان على ظهر سفينة او في الضفة المحاذية

فاخذ عندئذٍ جوترا الاهتمام في معرفة الموقع الذي وقع فيه سجنه فتبين له اولاً من انعكاس نور الشمس على الزجاج ان الدهليز قائم على ضفة النهر لجهة الجنوب في معزلٍ عن السابلة

ثم طفق يؤلف في ذهنه بين الادلة والاشارات التي تؤيد ظنه فقال. ان سائق دي نوريف لا بدَّ ان يكون قد اخذ طريقاً للوصول بي الى هنا الرصيف المؤدي الى مجاز (لاكونكورد) ثم توغل في الشانزليزه تحت جنح الدجى متوفلاً الى محلة (ارك دي تريونف) عاطفاً عن اليسار على طريق السين، وحاصل الامر ان جوترا ثبت عنده ان المكان الذي حُجر عليه فيه كان في (باسي) وان الحديقة التي يتخطى منها اليوكان يشرع بابها الى المحلة نفسها على طول منحدر الجوة التي تناظر النهر

فلما انتهى به طول الافتكار الى هذه النتيجة قال في نفسه أأكون في أمنٍ من طغيان الماء وقد بتُّ في مكانٍ ينحط درجاتٍ عن حدّ النهر. وعند الليل أظلم الدهليز ظلمة شديدة وكأن بالمصابيح التي كانت تضيئه امس قد اقتلعت من سقفه فشملت جوترا الكآبة وآنست قلبه وحشة الهمّ والقلق وكان يسمع من وراء الجدار ضجة منتظمة الحركة كانت تزداد شيئاً فشيئاً ثم تتدفق مياه النهر حيناً بعد حين من النافذة حتى استحالت ارض الديماس بحيرة فعمد اذ ذاك جوترا الى البحث في أمر تجمع الماء عنده فرأى ان المهندس الذي بنى الدهليز قد جعل الكوة على علوٍ عظيم من مجرى النهر الذي فاض وقتئذٍ الى حدٍّ لا يقوى في مسيله سدٌّ ولا حاجز. وتذكر ان السين كان قبل ان يؤخذ باحبولة دي نوريف قد ارتفع عن الحد العادي لشدة الامطار في تلك السنة. فصح عنده من الادلة التي توفرت لديه ان تلك الماء المتدفقة انما كانت نتيجة طغيان النهر وان قد حانت وفاته اللهمَّ الّا ان يهتدي الى سبيل الخلاص إما من الثغرة في سقف الدهليز واما من الصوان الذي خرج منه دي نوريف

فاخذ ثم يصيح ويستنجد عبثاً فحاول الفرار من الصوان المنوه عنه فالفاه مقفلاً لا حيلة في معالجته وكان الماء يزداد ارتفاعاً داخل الدهليز حتى لم يبق امل للثقاف في الحياة فقدر في ذهنه امتلاءه عند الصباح وتبين له من شدة تدفق المياه خطر آخر وهو ان الماء الذي سرب الى الدهليز كان من زجاج النافذة في اعلى الجدار ولكنه لا بد ان يرتفع الماء غداً فيبلغ حد الكوة الزجاجية وسط السقف فيحطمها ويملأ الدهليز باقل من الوقت الذي سميته . ولم يكن إلا برهة حتى خطر لجوترا ان يقف من ازدياد الماء على الكرسي ثم على الطاولة وبعد ذلك يجبر على ان يرتفع عليهما معاً ثم ينقض عنهما ميتاً اذ لا يبقى له رجاء في الحياة . فكفى بهذا الفكر سبباً للغم والحزن وحسبه مزايلة الدنيا قبل الاجتماع بولده علة تقضي به قبل الاجل واذ اراد ان يصعد الدرج الذي صنعه مسنداً الى الطاولة وقعت يده على الكتاب والسير الذي كان آلة لعذابه فسر بهذه الصدفة التي وفقته الى اخذ الكتاب فجعله على ظهره وشده بالسير قائلاً . ان يقضي الله عليّ بالغرق رحت بالكتاب واسراره وان نجوت بتقديره تعالى حملت سلاحي على ظهري . وقام على ظاهر الطاولة ينتظر المنية بقلب جازع وطرف دامع بين تسكاب الماء المدفع في ظلمة حجبت عن عيني المسجون تلك الكوة الى ان بلغ الماء حد النطاق وما زال يعلو الى ان بلغ التراق فحاول الصعود على الكرسي فتعذر عليه توطيدها على الطاولة لشدة عزم الماء فاقلع عن حيلته وقال ليفعل الله ما يشاء وهمّ في خوض العباب ولكن ما الفائدة من السباحة في مكان امتنع منه الهواء وعزّ عليه الخروج منه ووطن نفسه على استقبال المنون اذا بلغ السيل الجبين

فما طال به الوقوف على تلك الحال حتى سمع صوت تحطيم الكوة الزجاجية تحت وطأة السيل العرم فغمض عندئذٍ جوترا عينيه وغاص في الماء يئساً من النجاة وكان قد ارتفع الماء في ذلك الدهليز الى حد ارتفاع مجرى النهر فراح جوترا يخبط في تلك اللجة خبط عشواء يغور ويجد باسطاً كفيه عله

يعلق بشيء يجو به فلم يصادف سبباً فبات حيناً من الزمن عرضة للخطر الى ان
اتاه الله بالفرج من عنده فوقع لديه لوح من الخشب فتشبث به وما زال يدفعه
الماء من جهة الى اخرى حتى اعترض في الكوة واصبح الفوز به موكولاً الى عزم
الماء من داخل الدهليز او الى اندفاع السيل الخارجي فاخذ جوترا يعالج اخراجه
بما بقي لديه من العزيمة الى ان اتم الله نعمته عليه فجرت به الخشبة الى مينا الخلاص
من ضيق الدهليز فانقلب معها بحكم المجرى تحت سماء مظلمة على مياهٍ كأنها من
مداد والامطار الهطالة تحول دون بصره حجاباً كثيفاً لكنّ أمله بلقاء ولده
اطمعهُ بالنجاة وشدد عزمه وزاده باللوح تشبثاً وتمكيناً فما بعد به السيل الى ان
وقع نظره على انعكاس نور المصابيح المركزة على مسافة من سد النهر فاعترض
ذلك النور بدلالته الواضحة على ما كان توهمه جوترا في موقع النهر وتاكد ان
موضعهُ كان في وسط المدينة فاضرب وقتئذٍ عن الاشتغال بحل هذا المشكل الذي
استغرق ذهنه مدة من زمن سجنه الى الافتكار باسباب النجاة فلم يعلق بسببٍ
منها فطاف على الماء ينظر يمنة ويسارًا علهُ يجد سبيلاً يفضي به الى احدى
الضفتين. ولكن هيهات فان الخشبة التي ارسلها الله لنجاته وانقاذه صارت في
عينيه آلة العذاب لان الخدر كان قد استولى على اعضائه فتقفعت يداه من
البرد وابهظ ظهره الكتاب وقبل ان يتخلى عنها من الضعف والعياء لاح لديه
شيء اسود قد اشتد عنده اجتماع الماء وتعاظم انقلابها فلما انتهى اليه اعترض
الخشبة في مسيرها قوة لم يتبينها فقذفتهُ بعيداً منها كما يقذف الهشيم عند مصب
النهر فغمض حينئذٍ جوترا عينيه وانقلب على حكم جريان الماء فلم يزل يتقلب
مغشياً عليهِ الى ان اعترضتهُ شبيكة من حديد يجعلونها على فوهة القازورات
فاشتبك بها جسمهُ وكادت تزهق روحه عنهُ ما قارب من النجاة وقبل ان
يجوز بها عرضة للغرق واتى اليهِ رجل انشقت عنهُ الظلماء فاخذه باثوابه
وجذبهُ الى الضفة

الفصل الحادي عشر

رأي الربّان

عقيب ماجرى لجوترا بسبعة ايام وجد في محلة (ماري سان جرمن) وفي المحلة التي قصد فيها دي نوريف الثقاف فاجتمع به رجل قد احتبى بشملة كان يخطر خطران الحائر في ليلة شديدة البرد غزيرة الامطار لا يهتدي من ادلاجهِ الى مراده ولا ينتهي من حيرته الى سداده • وكان كل من يراه على تلك الحال يقضي عليه بالتيه والضلة في ذلك الموبق• ولكن لا بدّ ان يكون لذلك الادلاج سبب يقسرهُ على الوقوف هناك تحت العارض المتان فضلاً عن اخطار الزمان في ساعةٍ لا يستطيع اهل المحلة انفسهم التعرض للخروج فيها . وكان الرجل يتنقل في سيره تنقل المتطالل الى امرٍ خطير ناظرًا في اعداد المنازل واحدًا بعد واحد دون ان يتسنى لهُ الوقوف عند حاجته

ومازال مصوّبًا انظاره في تلك الظلماء حتى بلغ قبيل دارٍ قديمة البناء فتقدم نحو الباب وقبل ان يطرقهُ ارتد الى الوراء . شأن من ينتبه الى ضلاله فرأى أن يتأمل الدار قبل دخولها فنظر فيها فاذا هي مظلمة فغضب غضبًا شديدًا لخيبة مسعاه وحبوط امله لان الذي كان يتطلبه قد اخلف في موعده

فهجس في نفسهِ قائلا . لقد قرب آذان التاسعة ونصف ولم افز بلقياه ما موجب التاخير وما اخالني تقدمت على الوقت المسمى. لا بأس اذا انتظرت قليلاً ربما كان قد تأخر في دائرة الشرط واذا تمادى ابطاؤه ادخل الدار

فاسأل البواب عنهُ

وكان ذلك الساري على مسافة نحو خمسين خطوة من محلة السين فاخذ يتخطاها على مهل فوق الثلوج المنتثرة بين اقدامهِ كمن لا يخشى معارضاً . على انهُ لم يكن يكد يخطو بضع خطوات حتى التقى رجلين يتقدم الواحد الآخر في الطريق فلاح لهُ من النظر اليهما انهُ كان قد التقى بهما من قبل على طريق اخر سائرين في وجهة مباينة للوجهة التي قصداها حين اللقاء وكان يرمقهما مرة ويغض اخرى شأن من يتقي العيون ليتبينهما جيداً فتوهمهما اخيراً محترفين ربما كانا عائدين من مصنعهما .

لم يكن في ذلك اللقاء عند تلك الساعة مظنة لاسيما في المحل الذي وقف بهِ الساري وقد رأى الطلبة عائدين فرقاً الى منازلهم يهزجون ويمزحون في اعالي محلة اللاتين والانوار الغازية تسطع في المصانع والملاهي القائمة في تلك المحلة وكان الناس على الطريق بين رائحٍ وغادٍ حتى لم يبقَ مجال للريب والشك في حدوث امر عجيب فانتهز الرجل هذه الفرصة ودخل مطمئناً في محلة دي ماري ثم نظر في ساعته وجدَّ مسرعاً الى المنزل الذي كان قد وقف ازاءه قبلاً متأكداً بناظريه خلوهُ من النور فسار وهو يقول في نفسه . لا بد لي من الوقوف على حدٍ انتهي اليه من امري في هذه الليلة واذ كانت مزايلتي المنزل قسراً عن تحظير الطبيب كان لا ندحة لي عن اتخاذ الحيلة في الانتفاع منها لئلا امنى بشرَّين وبيلين . ولم يزل يخطو الى ان وقف عند رتاج علق فيه لوح ابيض مكتوب عليه عدد ٧٩ فطرقهُ وانتظر برهة الى ان فتح لهُ البواب فدخل في دهليز فسيح الارجاء كأنهُ محترف نجار لتراكم الاخشاب فيه فجاز بينها الى ان انتهى الى درج صغير يضيئهُ سراج قد بعث نوره من خلال نافذة كن البواب فصعد وتقدم الى النافذة فسأل بكل ايجاز

— هل سيدك جوترا في الدار

— فاجابتهُ امرأة البواب كلاَّ ما حاجتك اليه

فساء الطارق الاستقبال وتكدر ثم وقف يعتمد حيلة يلين بها قلب العجوز وقبل ان يتوفق الى ذلك مثل امامة البواب فقال له

— ان سيدي خرج منذ برهة فلا يبطىء عن عودته فاجلس اذا شئت الانتظار هنا

ولئن كانت قد راقت لديه دعوة البواب إلّا ان تلبد الدخان في افق الغرفة صده عن الدخول فآثر الوقوف خارجاً. فكرر البواب دعوته قائلاً له متلطفاً

— ما بالك يا سيدي لا تدخل فنأنس بك ولا يخفاك انني اخلص الناس الى جوترا فاذا كان لديك ما تود مكاشفته به فاطلعني عليه ولا معارض

فلان الطارق لحديث البواب فدخل فابصر في زاوية من زوايا ذلك الكن كهلة فانية تتأملهُ جيداً وتنتقد حركاته وكان الرجل الذي احسن استقباله ذا لحية بيضاء واقفاً الى جانبه فسالهُ تكراراً

— ما مرادك عند سيدي جوترا

— ايغنيك سؤالي عن حاجة في نفسك

— نعم لانك اذا انكرت عليَّ كشف نيتك الجأتني الى ان ادفعك الى حيث تجبر على الايضاح

— لعمري ان هذا لموحد الاعتساف

وفي تلك الحال دخل عليهم رجلان قد اعترضا في طريق الزائر بحيث صار يتعذر عليه التنصل من وطأة مناظره اذ قال له

— لا ينفعك الجد في اتخاذ الهزيمة غنيمة فاذا كنت ممن يرغبون في السلامة عن الملامة بح لي بما في نيتك من زيارتك بعد اسمك وشهرتك

فرأى الطارق ان قد انت الساعة التي بها يقطع دابر الشر فقام الى مناظره بتلابيبه وقال له

— انا الفيكونت ادمون دي سارتيلي وقد اتيت الدار لاشغال تناط بي

دون غيري . فبرهن لي الان عن الحق الذي حملك على سؤالي والاَّ اقسمت بنفسي ان اجعلك عبرة لقومٍ آخرين

فوقع هذا الكلام في نفس صاحب الكن موقعًا شديدًا فاجاب

— انني تكدرت جدًّا يا سيدي من تعرضي لك كتعرضي لغيرك اذ كنت مأمورًا من قبل دائرة الشرط ان القي القبض على كل من جاء في طلب جوترا

— إذن غدوت في فخ منصوب!!

— لا شبهة فيهِ

— وما الداعي الى هذه الذريعة

— ليس اوضح منهُ لذي عينين ان صاحبنا وحبيبنا الثقاف جوترا كان قد غادر منزلهُ منذ ثمانية ايام وفي رفقتهِ رجل آخر لم تعرفهُ البوابة فلم يعد اليهِ

— فاندهش الفيكونت من هذا الكلام وقال . اين كان مغيبهُ

— لا نعلم وقد بتنا في حيرة عظيمة لا تنقضي ولذلك قد امرني الرئيس ان اقف ببابهِ احتياطًا علني أُصيب من يفيدنا عن السبب

— لقد أصاب الرئيس في ما اجرى وانا ساعٍ الان سعيهُ علني اقف على الحقيقة من امر جوترا فمتى يتسنى لي التوجه

— لا اصلح من الساعة فاذهب اليهِ

— هلمَّ بنا دون تأخير

— لا استطيع ان اهجر المكان فاذهب ان شئت مع رفيقي فانهما لديك

فخرج سارتيلي من ذلك الكن برفيقي الخفير دون ان يلقي على من غادر فيهِ السلام فسار يتقدم الشرطيين الى ظاهر المنزل واذا برجلين قد القيا القبض عليهِ فاخذاه بعقدتهِ وشداها على عنقهِ حتى كادت تزهق روحه ثم وافاهما ثالث فاخذه بساقيهِ وعمد الى ان يزج بهِ في الساقية وقبل ان يفعل تقدم الشرطيان فتوسطا بينهم و بددا شملهم فامعن الاشقياء في الفرار فاضطر اذ ذاك رفيقا سارتيلي ان يقتصا اثرهم تاركين رفيقهما على الارض بين حي وميت فلما

بعدما منهُ نهض سارتيلي من سقطتهِ وقد استولى عليهِ الضعف فرأى من الحكمة ان يعدل عن الذهاب الى دار الشرط فيعود الى منزلهِ فيرفع شكواه خطًّا اليها ولكن هول تلك الحادثة كان قد اوهى عزيمته وانهك قواه فقال الاولى بي ان اقصد منزل صديقي شاتوبرن فابيت ليلتي عنده فاعالج ضعفي بما يتيسر لديه

ان سارتيلي فطن للعربة التي كانت في انتظاره عند زاوية الطريق اذ كان قد قدم عليها الى زيارة جوترا فراح مستندًا الى الجدار حتى وصل اليها فايقظ السائق واوعز اليه ان يجد بالسير الى رصيف اورسي حيث كان نازلاً ذلك الصديق . فاتفق ان شاتوبرن كان في تلك الليلة قد لازم منزلهُ خلافًا لمالوف عادته فجعل الشاي امامهُ وجلس عند الطاولة يتلهى

ان ذلك الملازم كان قد أُشرب قلبهُ حب سارتيلي منذ ساعة البراز فاتاه عن اخلاصهِ وحبهِ ادلة شتى واجلاها ما بذل اثناء اعتلالهِ من العناية دون شفائهِ حتى انهُ لم يكتف بذلك بل اكد لهُ ارتياحهُ الى مودتهِ بكشفهِ لهُ اغمض اسراره. ولما مثل سارتيلي امامهُ في تلك الساعة نهض صديقهُ شاتوبرن مدهوشًا من زيارتهِ فقال لهُ : انني من استقبالك يا اخي بين عاملين قويين لا ادري كيف اوفق بينهما وهما سروري الجزيل بمرآك لاول مرّة بعدتما تلك من علتك وكدري من قدومك ليلاً تحت خطر البرد على انني اعلم بان الطبيب قد حظر عليك هجر الفراش لا سيما هذه الساعة

— صدقت ولكن لو علمت بما تعرضت اليهِ في طريقي دون ما ذكرت لازداد غمك غمّاً

— ما تقول

— ارجوك ان تسمح لي بالجلوس ريثما استريح من ضعفي على أثر الهول الذي نالني

— عجل فديتك يا اخي من اين اوضحت وما وقع لك

لما كانت عرى المودة موثقة بين سارتيلي وشاتوبرن اخذ الاول يسرد قصته بوجوهها ولم يخفض منها شيئاً سوى ذكر جوترا

— فقال له شاتوبرن . اخطأت من جهتين يا اخي في زيارتك رئيس الشرط ليلاً

— اين الخطاء

— في مزايلتك منزلك وانت مريض ولك اخصام والدهم دي نوريف لئن كنت قد نجوت من الخطر في هاتين المرتين فالخوف كل الخوف من الثالثة ثم انك لم تكتفِ بالخروج وحدك بل جعلت اعوانك ممن لا يؤمن معهم الشر والمكر

— لكن ما الحيلة أأدعهم يغضون من شرف زوجه

وكان قد هم ان يلفظ اسم حنة فادرك الملازم مراده فطوى كشحاً عن الجواب عليه فقال

— كيفما تحولت القضية فانني ممن يتقي الرقباء والعيون

— اخاف ان يكون قد اصاب جوترا شرًا من اجل مساعدتي

— ومن اعلمك بذلك وما ادراك ما يفعله صاحبك ربما كان ممن يسلك مسلكين ويجيء بالراحتين بل ربما كان المعترضان لك في الطريق من اشياعه ورسله

— لا اكذب مقالك ولكن لا حيلة لي الاّ في دأب السعي وهيهات ان ابلغ الغاية وحدي

— يا عزيزي ادمون أُريد ان اقترح عليك شيئاً

— قل ولا تخشى مني صداً

— انك تعتمد على الثقاف فلِمَ لا تعتمد على الشرطي

— من هو

— انا الذي اسعى منذ ثمانية ايام بنفسي

ـ أصحيح ما تقول

ـ لا ريب فيه وان أعلمتك بما انتهيت اليه غدوت في ذهول تام

ـ ذلك حد مرادي ومنتهى أربي

ـ قد علمت عن ثقة ان دونا ومريديه لم من أشر الناس عندي وان المهمة السياسية التي توهمتها من قبل لا اصل لها

ـ صدقت وقد زال من فكري الريب في هذا الشأن

ـ واعلم انني عرفت الرجلين اللذين أصاباك في نوللي ليلة البراز

ـ آه لو صدق علمك

ـ لا اموّه عليك ابداً وانهما من خدام دي نوريف أما الثالث الذي كان يجري اثرهم فلم اقف حتى الآن على حقيقة العلم به ولا بدّ من الاهتداء اليه قريباً . فارضَ بي دون غيري عضداً لك وساعداً حتى اذا حسن طلبي في عينيك استاذنت رئيسي وخضت معك في المجال

فما كاد يصدق الفيكونت من شدة سروره حديث الملازم حتى بسط اليه كفه وقال

ـــ رضيت بك دون كل الناس نصيرا

ـ ابدأ إذن غداً في البحث واول أمرٍ افيدك عنه هو الكتاب الذي فقدته

ـــ هل وجدت مثله في احدى الخزائن العمومية

ـــ كلاَّ كلاَّ واخالني قد وجدت اللص الذي بدا لك في غاب بولونيا

ـ ليت كان ذلك دون المقدرة

ـ لا يتعذر عليَّ الوصول اليه وربما اتصل بك شيء منه

ـ وعمري لم القَ منه شيئاً

ـ كيف تنكر ذلك أما اخبرتك فتاة دي مانسيناك بما اودعت سرها اليوم عند الساعة الخامسة

من اين لي ان اصل اليها ومدبرتها مريضة لا تستطيع مزايلتها دقيقة فضلاً عن ذلك انه لا يسوغ لي مقابلتها منفردةً عنها

– انها تماثلت من علتها وجالستني في الردهة بل شيعتني مع حنة كل الطريق على قصد التوجه الى منزلك

— بالله اصدقني الخبر ما تقول هل كانت حنة مع مدبرتها عندي

— ما قلت الاّ الصدق وان غرضها من زيارتك كان لبواضعاك الراي في مقابلة المسجل

– لا تلمني اذا استغلق كلامك عليّ فاستزدتك ايضاحاً

– ما أراني اغمضت في الكلام ومع ذلك ازيد التصريح هذا البيان وهو انني بينا كنت اتبادل الحديث مع تينك السيدتين قدم رسول و بيده كتاب منك

— و باي كتاب أتى مني الى حنة

— بكتاب تعلن به ابلالك ومكاشفتك المسجل في شان بيع القصر ثم تطلب اليهما ان يوافياك الى منزلك لعجزك عن الذهاب اليهما

– وهل وعدت حنة بالمجيء الى داري

– نعم واعجب من هجرك الدار بعد ان ضربت لها موعداً فيها

– فاحتدم سارتيلي غيظاً وانفطر قلبهُ غماً فقال . يا اخي انني لم ابعث اليهما بكتاب اصلاً وما كان ذلك الرسول الاّ حيلةً يتوسل بها اخصامي الى الايقاع بحنة والغدر بها فاخاف ان يكونوا قد اختطفوها وتواروا بها عني

– فنهض اذ ذاك الملازم نهضة الجندي اذا استبك القتال وقال . هل ما ترويه حق يا اخي

— بالله لا تسل وانظر لحالي

—فاسمح لي اذاً ان اكون منذ الآن معك على العربة فنذهب الى قصر دي مانسيناك لنقف على جلية الحادث

فقام الملازم الى غرفة السلاح فالتى في جيبهِ غدارتين وانحدر يتبعهُ سارتيلي وهو يقول في نفسه . تُرى هل نصادف خيرًا في زيارتهِ

ولما بلغ شانوبرن العربة اوعز الى السائق ان يقصد بها محلة التروكادبرو باقل من عشرين دقيقة ودون ذلك مكافأة عظيمة

فراح ينهب الارض بجواده حتى كانت العربة تمرُّ على الارض مرَّ الرياح فطوت مجاز الكونكورد باقل من دقيقة وخاضت السواقي الجارية لاتلوي على شيءٍ ففي اثناء مرورها اخذ الملازم يحدث سارتيلي و يستفيد منهُ فسالهُ قائلاً

— هل اعلمت خدمك بمكانك في هذه الليلة

— نعم

— هل انت على ثقة منهم

— ان ثقتي بغلام الغرفة اعظم منها ثقتي بطوبيا

— ومن يكون طوبيا

— سائقي

— اراه محتالاً ولكن لا فضل لهُ للسياسة

ان سارتيلي كان في ذهول عن سماع الحديث فلم يحر جوابًا

— فاستانف الملازم الكلام فقال اخاف ان يتحقق امل الاشقياء باختطاف حنه وما ذلك الا لانهم تاكدوا تغيبك عن المنزل واتمامًا لغايتهم جدوا في اثرك ليقطعوا بك عن اشهار الامر واذاعته

فاقتصر سارتيلي عن الجواب بتنفس الصعداء فاستطرد الملازم حديثهُ فقال

— يستدل ان العدو على علم من تغيبك الليلة

— فقال الفيكونت وقد الم في نفسه البرهان الصريح من ترااه الرسول المحتال

— انني لا اعرفهُ وكما لا يخفاك ان الزائر لا يحق لهُ ان يتداخل في ما لا يعنيهِ لا سيما انني كنت اجهل غوامض المسئلة كلها ولكن يمكننا ان نستفيد

ذلك من البواب

— سأسأل حنه عنهُ وهي اعلم بهِ من سواها

— دعني اقوم باجراء المهمة على خاطري وقد مهدت السبل في فكري ولكن قل لي ما شكل العربة التي صنعها لك «كلوشه» في الشتاء

— ما الغرض من هذا السوال

— انني سمعت حنه تقول لمدبرها انك قد ارسلت في طلبها عليها

— اه بالجراءة أالى هذا الحد بلغت جسارة الاشقياء

— لذلك طلبت اليك ان تفيدني عن شكلها حتى اذا صادفنا احدًا في طريقنا اتخذنا العربة عليهِ دليلاً

وكان السائق لم يزل يجهد الخيل كل الجهد في الصعود والانحدار وسارتيلي يتغلى من غيظهِ وغمهِ على مثل الجمر فنظر اليهِ حينئذٍ شاتوبرن وقال لهُ

— لا يفيدك الان الغيظ والحنق الاحبوط المسعى فتجمل بالصبر فقد صرنا على مقربة من القصر

— صدقت ولكن اخاف ان تفوتنا الفرصة فبالله اخبرني ما دبرت

— اعلم انهُ اذا بلغنا القصر قبل قدومهم فاصعد الى حنه و بلغها الامر بوجوههِ وانا اقيم عند الباب لاستقبالهم واذا اتفق لنا لقاؤُهم على الطريق تكفلت بنفسي مناصبتهم ووكلت اليك العناية بالسيدات فابطش بهم وابقي على واحد منهم ابتغاء الوقوف منهُ على انصاره ومريديه

— واذا كانت حنه في عدوة قصوى عنا فنصرنا من ادراك العربة فما العمل

— اننا ندفع الى الاثقاف علائم العربة فيجد في اثرهم قبل ان يتواروا في الحجاب

— اه ان اعتمادي على الغير عجز وقد ارى العربة تبطيء في السير بنا حتى

ابلت صبري واوهت جلدي

— لا يسعنا يااخي ان نجهد الجواد فوق حد الامكان فاخاف ان يكبو بنا فيغادرنا على الطريق فمن الراي ان يخفف السير ويشد ريثما يكون قد استجمع قواه لا سيما في العقبة التي صادفها عند تشعب الطريق الى القصر

فسالهما السائق عند ما بلغ بهما الى مفارق الطرق — سارتيلي من ايها تبغيان المسير وقبل ان يجيباه على سؤاله صاح سارتيلي قائلاً ها انني اسمع صوت عربة تكر بعيداً وحوّل نظره جهة الصوت ليحققها فابصر عن بعد سراجين كانهما رجم ساقطة بين اغصان الاشجار فترجل الملازم والفيكونت مصوبين انظارهما في تلك الجهة فلاح لهما ان عربة تاخذ عن يمينهما بالسير السريع فما كادت تبعد قليلاً حتى اصاب احد الجوادين علة فكبا واضطر السائق ان ينقطع عن السير فترجل منها للحال رجلان يبغيان معالجة الجواد استدراكاً للخطر فصاح عندئذٍ سارتيلي مدهوشاً تلك عربتي وها اني ابصر من وراء زجاجها الشفاف امراتين مذعورتين فبادر اليها واخذ الملازم باعناق الجياد يريد ان يعترض دون مسيرها اما المراتان فلم يكشفا عن حالهما ولبثتا داخل العربة كانهما لا يعلمان بما يجري لديهما لكن السائق ورفيقه اضطربا من هول اللقاء وقلقا جدًّا فاخذ السائق يوجع الملازم ضرباً بالسوط فراراً من غوائل الامر ولما لم يتمكن شاتوبرن من شيء يستجن به قبض اذ ذاك على عصاه وانتدر السائق بضربة اوجعته جدا فعمد اذ ذاك رفيقه الى العنان يثير الجياد على السير ومن شدة هول الضرب ولطم العنان نهض الجياد من سقطتها وسارا سيراً يشبه الطيران في طريق بائني حتى تعذر على الملازم صدها

فخاب عندئذٍ املهما وساءهما ما جرى فبكى سارتيلي على ضياع الفرصة التي مكنته من الاجتماع بخطيبته ونجاتها فلبث ورفيقه الملازم في هم شديد لا ينبسان بكلمة فما طال بهما الزمان على هذه الحال حتى سال شاتوبرن سارتيلي قائلاً

— هل تاكدت حال من كان داخل العربة

— فاقتصر سارتيلي عن الجواب على الاشارة التي تؤيد سبب حزنه وكدره

— ما الفائدة اذن الان من الذهاب الى القصر فلنحول عن قصدنا الاول

— آه ويلاه قد ذهب الاشقياء بحياة حنه

— هوّن عليك فاني لا اخون بعهدك وسابذل الجهد في نيل رغائبك فاسمع ما اقوله لك ولا تدع الحزن يغشي على بصيرتك

فنكس الفيكونت راسهُ دليل الريب فمال عنهُ شاتوبرن وقال للسائق بعد ان نقده دينارًا

— هل يستطيع الجواد ان يعود بنا الى محلة فارن

— نعم ولا يعثر

— فدونك وجهتها

فاصعد شاتوبرن الفيكونت الى العربة وجلس الى جانبهِ يسليهِ اثناء رجوعهما قائلاً

— انك تخالني اخطات في ما ابديت على انني ما فعلت كان عن فكر ثاقب وراي صائب وستتاكد ذلك متى اطلعتك على كنهي واسراري

اما الفيكونت فكان حزينًا كئيبًا لا يقوى على مبادلة الحديث معهُ فاستطرد الملازم كلامه الى ان سالهُ قائلاً

— قل لي بمن تنيط السوء ومن هو غرض ظنونك

— ليس الا ذلك الشقي دي نوريف

وانا على ما اجبت وتحققت فلذلك قصدت الرجوع عن قصدنا الى الاخذ بالطريق الذي تفضي بنا الى المنزل القائم عند زاوية جادة الانفاليد ومحلة فارن حيث تذهب العربة الآن بمن لقينا

— كيف يكون ذلك وقد عاجت بهما على طريق مخالف

— ان السائق صعد مسرعاً بي ليعطف منه على طريقي « البومب » او « الباس » ناحية قصر دي نوريف ولم يبق علينا اذاً الا الوقوف عند الباب

فاعجب سارتيلي بهذا البيان وارتاح باله قليلاً ولا غروَ فان الحزين يرتاح الى السلوى وان كانت وهماً وبينا كانت تجتاز بهما العربة مدخل الشان دي مارس الى جادة الانفاليد قال الفيكونت للملازم

— اذا وفقنا يا اخي الى اللقاء بمن فقدنا فاياك ان تضيع الفرصة وانا ساستصرخ من حولنا واناديي بالقوم الى نجدتنا

— كن مطمئناً فعندي من المدد ما يغنينا عن كثرة العدد وتيقن انه اذا التقينا بالقوم رميتهم بالرصاص وكتبت لك ولخطيبتك النجاة والخلاص

— آه ثكلتهم امهاتهم

— فاتني ان اسألك هل عرفتك حنة

— انني قدرت وجودها اذ لم يتيسر لي تحقيقها لاشتغالي بما كان من امرك مع السائق

وكان وقتئذٍ قد بلغت العربة بهما حدود الشان دي مارس فسمعا صوت عربة تجري بعيداً الى ان كادت تبلغ سور ذلك المكان

— فقال شانوبرن لا شك ان هذه هي عربة الاشقياء فقد صدق ظني وها هم قادمون الينا من طريق باسي

فما اتم الملازم حديثه حتى مرّت العربة آخذة بطريق يفضي الى جادة الانفاليد فاسف جداً لفوات الفرصة مرّة ثانية و بعده عن ادراكهم لسرعة سيرهم

فصاح سارتيلي بالسائق وقال لك عليَّ خمسون ديناراً ان لحقت بهم فسرَّ السائق بالعطاء وجدَّ ينضي الجواد و يضنيه بضرب السوط دراكاً

كان سيرهم على اثر عربة الاعداء لغرضين إما ان يلحقوا بهم فيدركوهم واما ان يقفوا على معرفة المكان الذي ينتهون اليهِ وينزلون فيهِ . وكانت العربة تجري جريها السريع الى ان هلع الجواد فحاد عن سيره القويم فاطلَّ الملازم من

العربة لينظر في سبب ذلك القلق فقال له السائق

– يا سيدي ان ما رآه الجواد كان نتيجة ما فعلته عصاك في جسم السائق فقد القته هنا على الارض طريحاً

– فلندعهُ الآن حيث استقر ثم نعود مستانفاً

ان سقوط السائق على الارض أحدث اضطراباً في الركب وانقلاباً عظيماً فابطأ سيرهم الى ان كادت عربة الفيكونت تصادمهم واذا بالسائق يصيح

– ها قد رأيت امرأة ساقطة على الارض

– فهتف الفيكونت مندهلاً من كلامهِ . ويلاه من تراها تلك المرأة المطروحة

ثم اطلّ من العربة ليتحققها فرأى ان عربة الاعداء قد توغلت في سيرها وان امرأة عليها حلة بيضاء كانت ملقاة على الحضيض ورآها فصاح من خوفهِ هذي حنة قبل ان يراها

– رباه قد فتكوا بها

– فاجابهُ الملازم . والدليل على ذلك سرعة مسيرهم فاخاف ان يكونوا قد سطوا عليها في الطريق

ان الحادث الذي جرى في تلك المحلة كان غريباً لا يقوى البيان على تعريفهِ ولا غروَ اذا قصر الشاهد البعيد عن ادراك اسراره . فان العربة على رغم ما وقع فيها من النكبات لم يصدها شيء عن الجري في تلك المحلة الى ان عطفت على طريق المدرسة الجندية عندما وقفت عربة الفيكونت والملازم قرب الطريق فترجل الراكبان ودنيا من المرأة المطروحة فما كاد الفيكونت يتاملها حتى صاح

– هذه هي لا ريبَ فيها

ان حديث قلبهِ كان صادقاً فان حنة كانت ملقاة على الارض جامدةً لا حراك لها وكان عليها وقتئذٍ شملة بيضاء صنع الجزائر فعمد الملازم حالاً الى مصباح العربة فاقتلعهُ وتقدم اليها فلما انعكس النور على ذلك الوجه

الجميل تنهدت حنة تنهداً كاد يذهب بروح الفيكونت . وكان جبينها مخضباً بالدم السائل من شجة في اعلاه

— فقال سارتيلي . اسفاهُ لقد صدقت في ما قلت وتحقق وهمي . ويلاه ما رأيك يا اخي اتخالها مائتة

— فجس الملازم نبضها وقال . لا تخف بأساً

— رحماك اني فداها

ثم اخذ شاتوبرن منديلة واراد ان يوّره بهِ الدم الناضح من جبينها فتحركت حنة واشارت اليهِ اشارة من يحاول ابعاده منها

فصاح عند ذلك شاتوبرن وقال علي بالماء ترويجاً لها

فترجل السائق وقال ذلك دأبي ثم دنا من الفتاة وارتد عنها قائلاً لا رجاء لها في الحياة

فاشار اليهِ شاتوبرن ان يقصد آخر الطريق لجهة المدرسة الجندية فيلقى هناك عين ماء واوصاهُ ان يكتم الخبر اذا كان يطمع بالنوال

وقام الملازم الى جانب الفتاة يتامل في وجهها ملتمساً منهُ دلائل الحياة الى ان قال

اني لا اعجب من هذه الشجة في اعلى الجبين ولم استطع حتى الآن تبين السلاح العامل فيها . فلا السيف ولا الغدارة يؤثران هذا التاثير . ولو كان من نية الضارب القتل لما كان من مانع يمنعهُ من إصابة القلب

— فاجابهُ سارتيلي . لا بدّ من ان تكون حنة قد دافعت عن نفسها جهدها والدليل واضح في تمزيق شملتها وثوبها

— فاعترضهُ شاتوبرن اعتراض من اهتدى السبب بقوة البرهان والدليل الصريح فقال لم تكن تلك الشجة من يد قاتل بل على اثر سقطة وهاك الحجر الذي سقطت عليهِ حنة مصبوغاً بالدم

فما صدق سارتيلي الدليل وهزّ راسهُ مرتاباً

— فقال الملازم مؤيدّ بيانه . اسمع وجه الحادثة تماماً كما تصورتها في ذهني . انه لما قصد الاشقياء القصر وطلبوا الى حنة عن اشارتك ان تذهب معهم على العربة الى دارك اذعنت الى الطلب وسارت معاً الى ان بلغت من طريقها محل الظن والريب من نيّة الرفقاء فسألتهم العدول عن الطريق فابوا واصرّوا على غيهم فما كان لها من حيلة للنجاة الاّ انها القت بنفسها من نافذة العربة على الارض فاصابت في سقوطها هذا الحجر فشجّ جبينها . تلك هي الحقيقة لا مراء

— وما تقول في تمزيق ثيابها

— اقول في ذلك ما يؤيد رأيي فان الفتاة عندما ارادت السقوط من العربة تشبثت رفيقتها باثوابها لتمنعها من ذلك إما عن سلامة نية حذر الضرر واما عملاً مع الاشقياء لتمنعها من الفرار

— لكن يا اخي لو كان الامر كما اوضحت لكان الاشقياء اوقفوا العربة وترجلوا لاحتمالها معهم

— انّى يتيسر لهم الوقوف ونحن في اثرهم مجدون أما ترى كيف انهم تخلفوا عن رفيقهم الاول في الطريق فلا بدّ لنا من العود اليه لنقف منه على جلية امرهم

إن الحادثة التي جرت في تلك المحلة لمن اغرب الحوادث التي تروى ولو اتفق لاحد المرور في ذلك الطريق والتامل بما يبدو امامه وسط باريس لبلغ به العجب حد الاعجاز فظن نفسه تائهاً في صحارى افريقيا او فيافي سيباريا بين انياب الضواري ومخالب الكواسر

فشمل السكوت طول ذلك الطريق وانقطعت حركة العربة التي كانت تدوي بعيداً فقام شاتوبرن عند الطريح الى ان وافاهما السائق بدلو ماء وهو يقول :

— قد بتنا يا مولاي في امنٍ من غدر ركاب تلك العربة واخالهم قد

تقلبوا في طريقهم الى جهة المدرسة الجندية انقلابًا سريعًا نشأ عنهُ كما توهمت سقوط عجلة صغيرة في مسيرهم

— بالله دعنا الآن من هذا التنصل وعجل بالماء

فدفع السائق الدلو الى الملازم فشرع يعالج الصبية ويغسل جبينها الدامي سقوطها على الارض الى ان تبين لهُ خلو الجرح من اثر الخطر

فأسفر وجه سارتيلي عن فرح شديد وذهب حسن طالعهِ ببقايا اليأس الذي لابس فؤاده فتفرغ الى بذل العناية اتفاقًا مع رفيقه في شان حبيبته اما شاتوبرن فلم ينكفىء عن انفاد الوسع حتى نقى الجرح من كل اثر غريب فعصب عليهِ ولفهُ بلفائف بيضاء ثم عمد الى الماء فنضحهُ على جبين الجريح حتى انتعشت شيئًا فبسطت كفيها وقالت قولاً اشبه ان يكون هذيانًا وما لبثت ان فتحت عينيها فابصرت ما كان يبدو حيالها ثم ادارتها شان المتأمل في شيء يريد ان يجمع رأيهُ فيهِ قبل ان يبديهِ . او ان يتحقق هيئة رآيهِ وكان وقتئذٍ سارتيلي واقفًا وراء الصبية يأبى ان يبادهها بلقياه قبل ان تمتلك الراحة تمامًا . ولما تأكد انتعاشها وسكون بالها اشار الى شاتوبرن ان يتراجع عنها قليلاً فيقوم مقامهُ فما كاد يجثو سارتيلي امامها حتى اجفلت حنة من مرآه وصاحت ملهوفة :

ادمون ما ارى حبيبي ادمون :

ثم نكست راسها وغضت طرفها فعلت جبينها كمدة الموت وسال منهُ الدم اشد من قبل حتى عاودها الاغماء فنظر عندئذٍ شاتوبرن الى ادمون وقال :

لقد تقدمت يا اخي على الزمان الموافق للقاء فازعجت خطيبتك بمرآك فجأة على حين لم يكن يخطر ببالها ان تلقاك الساعة بعد ان تاكدت فقدك او خاب رجاؤها في الحياة . فقد كان ما كان فالاولى بنا ان نشيعها على عربة الى منزلها

فصوّب الفيكونت راي صاحبهِ فطلبا الى السائق ان يساعدهما على نقلها الى العربة وسالاه ان يجري بهم جريًا خفيفًا

فعقيب ان نقلوا حنة الى العربة ورأوا بالاجماع ان يجلس ادمون الى جانبها حرصاً عليها من السقوط آلى الملازم على نفسهِ ان يتبعها على القدم فيراقب سير الجواد خيفة ان يكبو بها فيتفاقم الخطب و يعظم عليها احتماله. وقبل ان يركب ادمون العربة استلفت الملازم انظاره الى الرجل الذي كان قد سقط على الطريق فغادراه طريحاً ورأى ان يعود اليهِ علهُ يستنبط منهُ سرّ الوقائع التي مرّت بهِ فرأى ادمون رأيهُ فاوصى السائق ان يعني بحنة الى ان يعود قريباً شاتو برن بالمصباح وتقدم سارتيلي الى الرجل الذي كان ملقى على ظهره و يداه على صدره فاقد الحس كأنهُ صريع الصاعقة . فاكبَّ شاتو برن عليهِ وادنى منهُ المصباح فقال . لا ريب انهُ ميت ثم تاملهُ جيداً ناظرًا في انحاء جسمهِ وصاح

ان هذا الرجل مات لا شك على اثر الضربة التي ابتدرتهُ بها عند التروكادبرو ودليلي الشجة في ام راسهِ

ثم نظر فيهِ سارتيلي وهتف حائرًا : هذا هو الرجل لا شبهة فيهِ

— من تعني بالرجل

— صاحب الحادثة التي جرت في غاب بولونيا

ان الميت الذي صادفهُ سارتيلي وشاتو برن كان رجلاً قد اهدف الى الستين عليهِ ثوب اغتم يلبسهُ الحشم وكان وجههُ مشوهاً على اثر ما قاساه من العذاب والالم قبل ان فاضت روحهُ . ان ذلك الطريح عندما استقبل ضربة العصا براسهِ صابرًا على اثرها راح يحاول معالجتها وهو على مقعده قياماً بهنته فلم يستطع جهداً فلوى وانقلب صريعاً على الارض

وكان الرجلان يتاملانه و يحققان النظر فيهِ لاسيما الفيكونت فانهُ كان يلتمس من وجههِ اشارة تصرف عنهُ الحيرة والدهشة وقد سمعناه من قبل هاتفاً ومتوهماً بهِ بطل الرواية التي اخذت بابصاره عند ذلك البراز

ولا غروَ اذا ذهب وهمهُ ذلك المذهب فان ملامح الوجه التي كانت قد بدت لهُ من قبل في موضعين تؤيد ظنهُ الا ان جدة الثوب الذي كان عليهِ

تنفي ما رآه فما زال بهِ محققاً مدققاً يجهد فكرته ويكد تصوره الى ان تمثل فيهِ صورة وكيل دار الروسي دي نوريف ثم هجس في نفسهِ وقال — ربما كان هذا الميت ذلك الرجل الذي لقيتهُ عند غاب بولونيا وهو نفس الوكيل الساعي الآن في اختطاف حنه دي مانسيناك

ثم تذكر ايضاً ما اثر فيهِ مرآه عندما مثل في دار الروسي مع رئيس الشرط ولما كان موقعه والزمان لا يجيزان لهُ مراجعة ما مر بهِ من الحوادث تثبيتاً لظنهِ عاد الى النظر في ما يقتضيهِ الحال. فاعترض هجسة الملازم فسالهُ قائلاً

— هل تاكدت فيهِ صاحب تلك القنة

— نعم وهو نفس الرجل القائم في خدمة دي نوريف على ما ارى بعد تدقيق النظر فيهِ ومعارضة هيئته بالصورة التي رسخت في فكري

— فعليهِ اننا لم نضع الوقت عبثاً في عودتنا اليهِ فلنعد الآن الى تشييع حنه

فأذعن الفيكونت لرأي رفيقهِ ولكنْ اضطراراً لانهُ كان يود ان يقف على حقيقة هذا الميت الذي افنى بفنائهِ تلك الاسرار التي كانت منشأ عذابهِ ومصدر نصبهِ

ثم استطرد الملازم حديثهُ الى ان قال

— لا تخف ياسارتيلي سآتيك باخبار هذا الرجل منصلة تفصيلاً يقضي براحة بالك وازالة وساوسك وبلبالك

— اخاف ان يفوتك العلم بما تتوقعهُ من اخباره اذا غادرناه حيث كان

— لقد اخطأت في وهمك فان العلم يرجى من بقائهِ حيث غادرناه فان الحكومة لا بد ان تلتقي بهِ فتاخذه الى دار الفحص والمعاينة فنسعى برجالها وراء الجاني الى ان نهتدي اليهِ وهناك أُحيط بوجوه المسئلة فاعرف السبب والمسبب

— اتعرض نفسك ياأخي الى البحث والاستعلام وانت السبب في قتلهِ

— صدقت فلا تلمني اذا تعرضت بكلامي الى المظنة لذهولي عما جرى عن

بدي ولكن ما اسفت على ما فعلت فان لم الف على الحال بنفسي انبت عني من يفيدني الامر كله

— وانا كذلك ارغب في ان أكتم الامر فاضرب عن ذكره واطلب اليك ايضاً ان تطوي كشحاً عن كل ما مرّ بك في شان حنة

— تيقن انني لك من المخلصين بل انا اليمين في كل عمل اقدمت عليهِ وخصم من ينيط بك او باحبابك سوءًا

وعندما بلغ بهما الكلام الى حدود العربة قال شاتو برن مخاطباً الفيكونت

— فانني يا اخي ان امعن في تنتيش هذا الشقي علني كنت ادرك منهُ اثراً يفيد ائتماره مع دي نوريف

وكان ثمّ السائق عند باب العربة ففتحهُ وقال :

ان السيدة لم تزل في ذهول ولكن ارى حالها الآن تشير الى قرب زوال العارض لا غروَ اذا طال اغماء حنة وتصرّمت انفاسها حيناً بعد حين لان الدم الذي انهدر من جبينها او بالاحرى من جسمها كان كافياً لان يذهب ليس فقط بجسمها ساعة بل بروحها . فقام الفيكونت عند خطيبتهِ يداريها في العربة وراح صديقهُ يمسك بعنان الخيل ليمنعها من السرعة او السقوط على الطريق

فامر شاتو برن السائق قبل ان يقعد مقعده ان يرجع الدلو الى صاحبهِ فيعود حالاً وكان قد أخذ الملازم بيده ازمة الجياد فساقها سوقاً خفيفاً الى ان عاد السائق فترجل الملازم ومشى قرب الجياد وهو يلاطفها بيده حرصاً على صحة الجريح

وكان سارتيلي اثناء الطريق ينظر الى حنة نظر الاسيف المشفق ثم يغض أبصاره حزناً على الحال التي صارت اليها وكان قد اذكره وجوده معها على تلك الحال وعده لها بالسفر الى ايطاليا قصد التنزه والتجول في انحائها

وكان شاتو برن كلما قطع مسافة رجع الى سارتيلي فسالهُ عن حال حنه فلم يكن يلقى منهُ الا اشارة تفيد اليأس والقنوط

فاتفق انهما طويا تلك المسافة البعيدة دون ان يلقاها في طريقهما احد لان حدود الشان دي مارس كانت في ذلك الحين قفراء لا ينتابها الناس كثيرًا فلم يزالا سائرين سيرًا منظمًا الى ان بلغا باب قصر دي مانسينياك فنفح شاتوبرن السائق بخمسة دنانير ثم دنا من الباب فأطن الجرس ففتح الغلمان وقبل ان يبتدراه بالسؤال قال لهما

ان السيدة حنه لوت عن العربة فاصابها خدر في جسمها فليذهب احدكم بالخبر الى مدبرتها وليتقدم الآخر الى مساعدتنا على نقلها الى داخل القصر

فاسرع الخدم في انفاذ الامر فما دنا المطلوب لمساعدة نقل سيدته حتى ارتد قليلاً مدهوشًا من مرآها على العربة في خلوة مع الفيكونت

ان الملازم الذي كان قد علم بسفر مدبرتها مس جورجينا معها لم يرتب بتواطئها مع الاشقياء على اختطاف سيدتها وبينا كان يحملها مع الغلام سال البواب بعض التفصيل عن سفرهم

فاجابهُ البواب — ان مس جورجينا اعلمتني ياسيدي بما كان وهي وحدها تقوى على انبائك

— هل هي عادت من غيبتها

— انها دخلت الدار منذ برهة وقد انبأتنا بما جرى لسيدتنا وها هي تخطر سراعًا امامك

ان المدبرة كانت تخطي الرحبة بخطوات واسعة وقد لاحت على محياها علائم الكدر والانزعاج تشير بايديها اشارة المصاب خلافًا لما كان يعهد فيها من الرزانة والهيبة . فما بلغت سور الحديقة حتى التقت بالملازم والفيكونت عند الرتاج فرأت حنة على ايديهما وراسها يميل الى صدر سارتيلي كأنّ لا حياة فيه فانحنت المدبرة ملهوفةً عليها وضمتها الى صدرها تقبلها بلا تعداد . ما كان اشد عجب سارتيلي من هذا اللقاء وحيرتهُ من مرأى المدبرة بعد اذ تاكد وجودها على العربة منذ حين بين اشباع دي نوريف . فانّ هذا الانتقال الغريب بلغ

به حد الذهول حتى خانهُ لسانهُ في صدها عن اظهار ما تحتال به عليهم وما تنتحله تمويهاً وتضليلاً . فعرف الملازم ما في صدر رفيقه من الهواجس وما اسرّه اضطراراً عن الغاوية من العتب والملام فاحذ عنهُ بالكلام وقال :

ــ أرى ان تبقي على ما تبذلينهُ الآن من العناية نحو السيدة دي مانسينياك فندخر به الى ان نصعد بها دارها فنلقيها على السرير فاقتصري على ما كان ولا تعترضي دون اهتمامنا في هذا الشان

ــ آه بالله دعني انعشها واداريها فها قد عادت روحها اليها

وما زال الملازم بها حتى صدها عنها فاحجمت مكمدة اللون مرتاعة

ــ فاعترضها شاتوبرن وقال . اسالك قبل ان تبيني الطريق الى الدار

فعادت المدبرة اليهم فتقدمتهم وهي تروي الارض بدموعها

فدنا حينئذٍ الملازم من سارتيلي وهمس في اذنهِ قائلاً لا يغرنك سكب هذه الدموع فلن تغنيها عن العقاب شيئاً

وعند ما بلغا بالطريح اسفل الدرج استقبلتهما جارية المنصورة وكانت فتاة ذكية عرفها سارتيلي بخلوصها وامانتها نحو حنة . فهذه الامينة كانت قد اعدت المضجع وهيأت معدات الراحة لاستقبال سيدتها

ولما انتهيا بحنة الى داخل الغرفة القياها على السرير رهن عناية جواريها وقبل ان يهما بالرجوع لاحت لسارتيلي اشارة على وجهها افادتهُ العدول عن عزمهِ فتربص في مكانهِ ينتظر معنى تلك الاشارة . وكانت المدبرة قد جلست وقتئذٍ من جهد الحزن والغم على متكإٍ في ناحية الغرفة فما طال وقوف سارتيلي والملازم برهة موقف الانتظار حتى تنهدت حنة وقالت بصوت وقعتهُ على حركات صدرها الحرج

ــ ادمون ما الذي جاء بك الى هنا وقد كنت كتبت اليَّ تدعوني الى منزلك

ــ لقد نزل بك يا اخت الوفاء بلاء اجاركِ الله منهُ بحكمتهِ وقدرتهِ

— ماذا دهاني ما اصابني حتى اذهلني عن معرفة مكاني و يلاه انني اشعر بألم مبرح في جسمي . . .

وكان وفتنذ سارتيلي يعير حديثها اذنًا صاغية اما شاتو برن فكان يرمي بالحاظه النافذة صدر تلك المدبرة الخائلة الى ان استانفت حنة الحديث فقالت

— لقد خطر لي الان ما علمته عنك من قبل يا ادمون ان الطبيب كان قد حظر عليك مزايلة المضجع فبعثت اليّ بكتاب تدعوني فيه اليك قصد مكاشفتي ببيع القصر

— هل وافيتني اليه

— نعم على عربتك وطوبيا كان السائق

فتخالس الملازم والفيكونت النظر وقبل ان يتبادلا الراي في شان الافادة التي وضحت لديهما اعترضتهما حنة بقولها

— فما انتهى اليّ كتابك حتى قمت اليك مع مس جورجينا

— لكن ما جرى لك في الطريق

— اعترض لنا رجال اثناء مرورنا على العربة فارتعت جدًّا وتولاني الخوف الشديد فهاجت الجياد واضطربت فشملتنا ظلمة مدلهمة لم نتبين لي من ورائها حقيقة الحادث

وكان الرجلان ينتظران الايضاح بذاهب الصبر الى ان انقطعت الصبية عن الكلام برهة ثم استانفت الحديث فقالت:

— لقد اغفلت كل ما مرَّ بي وما نالني

فتنهد سارتيلي وتأسف ثم قام عندها لا يبدي مقالاً

فلما رأت مس جورجينا ان سيطول بينهما الكلام فيؤول الى ما لا تسرها عقباه نظرت الى سارتيلي وقالت

ان حنة في حاجة قصوى الى الراحة والعلاج فاطلب اليك ان تذهب في استدعاء الطبيب

— فاعترضها شاتوبرن قائلاً · اننا أرسلنا تدعوه قبل الوقوف هنا فلا يطول الزمان حتى يقبل الينا فلا حاجة اذاً من ذهاب سارتيلي في طلبهِ ولكن ارى ان ننتظره حيثما نطالبك بتفصيل الحادثة التي علمت بها

— وأيد سارتيلي طلب رفيقهِ بقولهِ · أصبت يا اخي ولها ان تستنيب عنها جوليا جارية الغرفة الى ان يقدم الطبيب

فما انكرت المدبرة عليهما الطلب وأحبت ان تشفي رغبتهما بما عندها من العلم في تلك القصة فتقدمت وفي اثرها سارتيلي الى الردهة اما شاتوبرن فتاخر عنها برهة دنا فيها من اذن الجارية وهمس قائلاً لها

— اتحبين سيدتك

— الى حد التلف

— فعليك اذاً ان تعني بها كل العناية فتلازمها دائماً وإياك ان تدعي المدبرة تخلو بها دون ان يحول وجودك بينهما الحذر كل الحذر من انفرادهما ولا اكلفك ذلك عفواً بل اني اكافئك عليهِ كل المكافأة ثم انصرف شاتوبرن يتخطى الى الردهة بسرعة تنفي عنهُ كل شبهة في الابطاء فقام يناظر المدبرة ويصغي الى حديثها

فما استقر بهم المقام حتى ابتدأتهما بهذا الكلام

— عليَّ بما عندكما من القصص فاني اليكما

— فاجابها سارتيلي وقد اخذتهُ الحيرة من اقتراحها انا خلونا بك لنسمع ما وعيت من وجوه تلك الحادثة التي مرت بك

لا اروي منها فوق ما اتصل بكما عنها فان جياد العربة جمحت جموحاً أدى بالسيدة حنه الى السقوط ولكن قل لي ايها الفيكونت ما كان غرضك في دعوتها اليك دعوة ترتب عليها هذا الاثر المفجع

— الى اية دعوة تشيرين خالك تهزئين بي وتسخرين مني

— الم تبعث الى حنه بكتاب تدّعي فيهِ عجزك عن مزايلة البيت واضطرارك للاجتماع بها فتطوحت بدعواك الى ان سقتها بعيدًا بين مريديك فنابها من الخوف والقلق ما نابها

— كيف تدّعين علي ذلك ولا علم لي بما تروين فانّى لرجالي ان ياتوا حيلة دونها حيل ابليس ودواهيهِ

— فاعترض حينئذٍ الملازم بينهما وقال . اراكما قد اضرمتما في نفوسكما نيران الحقد والغضب فاخشى ان يبعد بكما عن محجة الصواب الى الغي بعد اللتي فاسمح لي ايها الفيكونت ان اناظرها بما نقترحهُ عليّ علني اصيب الغرض

— فاجابتهُ المدبرة قل ما بدالك فاني اذا احدثت كلي مسامع

— فقال شاتوبرون اعلمي ايتها المدبرة لا ريب ان السيدة حنه قد اخذت بحبائل الكتاب وقد كنت شاهد الحادثة ساعة جاء الرسول

— فضحكت مس جورجينا من خطابهِ وقالت . هب ان المرسل قد بهرج الكتاب فاني لهُ ان يبهرج العربة فياتي باخرى تشبه عربة الفيكونت بشارتها وسائقها طوبيا

— ذلك ما يزيد الامر اشكالاً وهل كان السائق وحده على العربة

— لم انتبه لرفيقهِ فلم اعرف سواهُ

— لا بد ان اعلم بمن كان معهُ لانهُ ربما كان صاحب النعلة التي ساءك وسأَنا اجراؤها

فامعنت المدبرة الفكرة واخذت تجهد نفسها استنباطًا لحديث يدفع عنها مخاطر السقوط فقالت

— ربما كان لهُ رفيق ومما يتجلى لي انهُ كان مجالسًا اخر

— لا بد لنا من الوقوف على تحقيقهِ وبيان علائمهِ

— قلت لك انني لم انتبه لذلك وجل ما علمت وما تبينت خصوصًا عندما ترجلت السائق طوبيا لا سواه

— كيف تنكرينه علي وقدراته السابلة فضلاً عن ذلك ارجوك أن تنبئيني عن المكان الذي غادرت فيه العربة فاذهب بنفسي باحثاً عن ذلك الشاب رفيق طوبيا

— ان طوبيا اوقف العربة عند باحة الانفاليد حيث اكتريت عربة للعود الى القصر

— انني اشكرك على بيانك واثني كل الثناء على ذكائك وتوقد جنانك فعودي الآن الى حنه وهي في حاجة الى عنايتك وهمتك ونحن ذاهبون الى دار سارتيلي لنتاكد امر العربة فلعلها عادت الى الموقف

فقبل ان ياخذ شانوبرن بطريق الباب اعلن الخادم قدوم الطبيب وكان من عائلة مانسينباك صديق سارتيلي فعاد به الى مقصورة المريض فاشارت اليها جوليا اشارة تفيد ان سيدتها في راحة تامة لا يقتضي ازعاجها

فدنا الطبيب من السرير واجلى عن جرح حنه فقال بعد تدقيق النظر ان الجرح ليس هو الا خدشة لا حاجة الى ازعاج الصبية فانه اذا لزمتها الراحة نحو عشر ساعات كفى بها علاجاً انجع من عقاقيري وحيلتي · واما ساوافيكما غداً ولا ازال آكرر عليكما بالمحافظة على راحتها

— فسالة شانوبرن قائلاً · — ألا يكفي ياسيدي ان تقوم جارية الغرفة ممرضتها

— كلما قل عدد الناس في مقصورتها كلما زاد ذلك الخلاء في راحتها

— فنظر شانوبرن الى جوليا وقال لها · اياك ان تغفلي امر الطبيب فحافظي على ما اودعه اذنك

ثم انصرف الطبيب ومن ناظره وقبل ان ينفصل الملازم عن المقصورة دنا من جوليا وهمس في اذنها قائلاً لها. لا تذهلي ايضاً عن الوعد فاني انقدك آخر الشهر نحو دينار ونصف اذا تمت عليه حتى القيام فوفيتي بكلما دار بيننا من الكلام

وتبع الطبيب شاتوبرن وسارتيلي الى سور الحديقة حيث ودعهما وسار لشانو اما الملازم فنظر عندئذٍ الى رفيقو وقال

— تيقن يا اخي ان قد ادركنا اشباح الغادر دي نوريف فلنذهب الآن لنتاكد حقيقة ما عرَّضت بهِ مس جورجينا في حديثها ولندخل دارك لنحقق بنفسنا عود طوبيا بالعربة

الفصل الثاني عشر

سرُّ المركيز

ولما كان الغد خرج الفيكونت في صحبة الملازم صديقهِ شاتوبرن الى التنزه في حديقة (التويلري) وكان الجو صافيًا والنسيم عليلاً شافيًا يتأرج بانفاس ذلك الرياحين على اختلاف انواعها فطابت نفس سارتيلي بعد انزعاجها وكأن صحتهُ قد وقفت في ذلك اليوم الرائق عند علاجها فالتفت الى رفيقهِ وقال لهُ

— لقد اصبحت يا شاتوبرن في التنزه اليوم ماشيًا واراني اشد ما كنت سرورًا وفرحًا بين هذه الازهار ومناغاة الاطيار

فاجابهُ الملازم — قل يا صاح ما البون بين امس وهذا الصباح فلا غروَ اذا اثرت تنزهك اليوم على تجولك امس تحت جنح الدجى أليس ان مثلك مثل من نال العسر بعد اليسر

— صدقت اذ تاكدت من كلامك غاية سروري وابتهاجي فاعلم يا شقيق الروح انني ما سررت بصفاء الجو و بدائع الربيع انما كل سروري مما اتصل بي من البشائر عن صحة حنة . فان الطبيب قد اثبت لي صباحاً زوال الخطر وقرب الشفاء . واذ كان الحظ ياتي غالبًا اثر الحظ قد لقيت ايضاً كتاباً بعث اليَّ بهِ احد باعة الكتب الذي كنت قد كلفتهُ البحث عن نسخة من تاريخ نورمانديا ينبئني فيهِ عن وجود نسخة في احدى المكاتب على رصيف الارسنال فمن عزمي التوجه اليهِ حالاً حتى اذا احرزت الكتاب عمدت غدًا الى تصفحهِ بغية الوقوف على اسرار روجه دي مانسينياك

— اني اليك ايها الحبيب فاعتمد عليَّ في هذا النهار لانني قد استاذنت رئيسي بالعطلة

— باي لسان اقوى على شكرك ام باي سبيل اهتدي الى مكافأة فضلك وقد كنت لي دليلاً راشدًا اوضح لي نهجًا قاصدًا توصلاً الى انقاذ حنة ونجاتها من شر الاشقياء

— كفى كنى ما كشفت لي من محبتك وما اظهرت لي من خلوص مودتك فلا اطلب اليك الاَّ ان تستزيدني اقدامًا على خدمتك وعزيمة على قضاء ما فيهِ نجاح مصلحتك فهاتِ ما ارتايت عملهُ اليوم فاسعى معك على قضائهِ عند رغبتك ووفق ارادتك

— غناماي ان اشتري الكتاب فاطلع منهُ على مفتاح سر الكنز المخبوء المتوقف عليهِ غنى حنة وسعادتها لانها لم تزل حتى الآن تلج في بيع القصر لتؤدي ما لزم ذمة روجه من المال

— لا شك ان الامر معجل يقضي ببذل الهمة في شراء الكتاب لكن اطلب اليك ان تعدل خط طريقك الى المكتبة

— اي خط ترغب في اتباعه

— ساشرحهُ لك في مسيرنا على حدود الرصيف استقبالاً لنور الشمس

ثم قص عليّ تفصيلاً ما لعل طوبيا قد اجراه من الحيل توصلاً الى ما كان منهُ

— ان هذا السائق كان قد خرج مرارًا في ذلك اليوم على رغم الاوامر التي تنهي عليهِ بملازمة الموقف ولا بد ان يكون قد ائتمر مع انداده فتواطئوا على البغي معًا

— ان الساعة التي قدموا فيها الكتاب الى السيدة حنة كانت نحو الرابعة

— اصبت لانهُ عاد الى القصر نحو الخامسة فزايلهُ عند السابعة وبدل أن ينطلق اثناء تغيبي لبث في مكانهِ خلافًا لمالوف عادتهِ ولما كان ايذان التاسعة اقبل على خادمي الشيخ رسول في يده كتاب مفتعل قد انتحل فاعلهُ خطي حتى عصب على عيني خادمي انطوان بسالة فيهِ ان يقرن الجياد على عربتي الجديدة فلباه مطيعًا واوعز الى طوبيا السائق ان يجري الى قصر دي ماسينياك فكان من امره بعدئذٍ ما كان وما اتصل بك نبأوه وعلمهُ

— كان اذن طوبيا من مريدي دي نوريف واشياعهِ فمن الذي قدم بهِ اليك

— ان روجه دي ماسينياك وكل امره اليّ فاوصاني بهِ منذ ثلث سنوات

— لا بد من سرّ في الامر ينكشف معناه مستانيًا ومن مكاشفة طوبيا نطلع على اسرار زعيم البغاة ونبتلي صدورهم

— أنيّ نتوصل الى ادراك السر

— ربما كان طوبيا لم يزل على عربتهِ ... ر دي نوريف حتى الساعة فادخل عليهِ واطلب اليهِ القصة بوجوهها

— فاتني ان اخبرك ان العربة قد ارجعت الى داري صباح اليوم وقد لقيها الشرط عند زاوية جادة الانفاليد فعرفوها من الرقع التي كانت في حقة العربة

— لقد وضح لي الان شيءٌ من السر الغامض وهو ان طوبيا عندما تاكد نهاية مهمتهِ في سقوط حنة على شفا الموت غادر مس جورجينا في المجال

ولجأ الى دار دي نوريف ليستر فعله

— ربما صح ما تدعيه اما انا فآبى ان اكل امري الى الشرط او ان اقبل على طوبيا فاسالة بيان الحادث . واذا شئت فاعدل عن هذا الطريق الى ما كان اوضح واجلى

— وانا انكر ايضاً المثول لدى الشرط لان الضربة التي ابتدرت بها السائق قصد تدويخه كانت القاضية فاخاف ان اطالب بها على حين غفلة فتخونني الحيلة في التنصل من تبعتها فاسقط تحت ثقل العدل

— فلنعدل اذن للبحث عن الكتاب الذي سلبنيه ذلك الشقي فنقصد الكتبي المقيم على رصيف الارسنال فلعله قد وجده فنسترده منه بثمنه

— اني اليك ولكن اسالك بعد ان نفرغ من انجاز هذه المهمة ان ترافقني الى حيث اسير وقد طاب لنا المسير في هذا النهار الرائق الصافي

فمشى الصديقان قاصدين محلة الكتبي وما زالا يتخطيان محلة بعد محلة الى ان انتهى سارتيلي الى الرصيف فاخذ ينظر في البطاقات المناطة في اعالي المصانع ابتغاء عدد الكتبي المقصود حتى مرَّ بها كلها دون ان يدرك غايته فقال في نفسه . اخشى ان يكون الرسول قد اخطأ الغرض فخدعني بنقله

فاعترضه الملازم بقوله — عجباه اليس لهذه المكتبة من علامة او بطاقة

— ربما كان هذا الكتبي لا يبيع الاّ كتباً خاصة فاقام في مكان لا يدري به الاّ روّام الكتب واصدقاؤه

— فابحث اذن عنه ولا تملّ

فاستمرّ سارتيلي يتخلل السوق وقد عدا كله عيوناً تبصر يمنة وشمالاً الى ان ادرك العدد فوق باب دارٍ ابلاها القدم فتداعت جدرانها وضعفت اركانها فوقف مبهوتاً لا يدري بما يفعل لانه ابى ان يتعرض للدخول الى الدار قبل ان يتاكد حال ساكنيها

فحضه الملازم على الدخول بقوله — تقدم ولا تخشّ معترضاً لكن اسالك

العجلة في الوقوف عند صاحبك ثم قل لي بما اتيت لنقل المؤلف الضخم المتفرّق الاجزاء

— ان من عزمي ان انقده الثمن كلهُ فابقيه عنده الى الغد حيث ابعث بطلبهِ فلا انقل الاّ الجلد السابع بدعوى انني اريد ان اتصفحهُ اختبارًا

— اتريد ان تكلفني ايضًا حمل هذا الجلد الذي ابهظني يوم نقلتهُ معك الى حومة البراز وقد اصابتهُ تلك الآفة . آه ما كان اسعدني عندما عثرت على تلك الرقعة التي بقيت من آثاره وقد تضمنت الدلائل الواضحة على ما تروم ابلاغه لخطيبتك حنة فخنق سعيهم وبات سبيلهم عبثًا

— كنت لم ازل حتى امس في امن من شر السارق ولكن قد تبين لي الآن انهم تمادوا في السرقة حتى سلبوني تلك الرقعة من محفظتي فبت من جراء اغتيالها في همٍّ شديد

— ذلك ما يقضي عليك اذن بالعجلة فتقدم

ثم فتح شاتوبرن الرتاج ودخل مع رفيقهِ الدهليز فكان داجيًا فابصرا كوة في ناحية فاطلّ شاتوبرن منها فاذا هي تشرف على كن البواب فسالهُ منزل الكتبي فاجابهُ البواب ان اصعد الدرج الى الطبقة الثالثة ولكن اياك ان تتوسط في صعودك الدرج

ان هذا التنبيه كان عن اخلاص لان البناء كان قد درج الى ذلك المنزل فابتدأ بالدرج صعودًا الى طبقاتهِ وبينا كان سارتيلي والملازم يتوقلان بكل احتراز وسط تلك الظلمة المدلهمة عثرت رجل الملازم برجل يحدر على الدرج فصاح به صيحة هزأت اعضاءه فلم يلقَ شاتوبرن جوابًا منهُ واستمرا صاعدين الى ان وقفا عند باب المكتبة فاصاب نظر سارتيلي لوحًا كتب عليهِ (ادخل دون باعث) فدخلا سواء الى المكتبة وقد تراكمت فيهـا الكتب حتى تعذر عليهما التقدم فيها فاستقبلهما شيخ شخت الخلقة رث السربال فابتدره سارتيلي بهذا الكلام بعد السلام

— اني جئت ابتاع منك تاريخ نورمانديا بقيمة اتفقت عليها مع الوسيط سهنبوري

— صدقت فلا انكر مقالك وقد عقدت البيع واستوفيت القيمة

— مع من عقدت البيع

— مع الذي استوفيت القيمة منهُ

فاستولت الحيرة على سارتيلي حتى اذهلتهُ عن نفسهِ فقال وهو لا يدري أأخطأ ام اصاب

— اي بيع عقدت ومن المشتري

— ذلك الرجل الذي ربما صادفتماه عند صعودكما الدرج فقد اتى اليَّ فطلب ان ابيعهُ الجلد السابع بقيمة ٢٦٥ فرنكًا فدفعتهُ اليهِ للحال فتأبطهُ وسار دون مهل

فقال سارتيلي مخاطبًا زميلهُ — سر بنا عجلاً نقتص اثره قبل ان يفسح بيننا وبينهُ المدى

— ما الفائدة من لحاقهِ هب انك لقيتهُ فبأي حق تعترضهُ ام بأية دعوى تدعي عليهِ باسترجاع الكتاب وقد ادى ثمنهُ حقًا ذائبًا

— ان الذي تسنى لهُ التقاط هذا الكتاب لا يعدم فرصة الحصول على غيره فاذا شئتما سعيت بايجاد مؤلف آخر من مثلهِ

— ليس الغرض مني الحصول على الكتاب ولكن اعجب من سيرتك واخلالك بالعقد الذي عقدتهُ معي فانيَّ اجزت بيع شيءٍ اشترك فيهِ حق الغير

— اعلم يا اخي ان نظامي ليس كما اوضحت وادعيت ولكن عندي ان من بدا بالنقد وجب لهُ العقد

فاجابهُ شاتوبرن وقد اشار الى زميلهِ ان يعرض عن المناظرة — صدقت ايها الشيخ المهيب لكن ارجوك ان تفيدني اسم المشتري علني اتوصل اليهِ فابتاعه منهُ بعد الاتفاق عليهِ

— لعمري انني لا اعرفهُ وجل ما اذكر من امرهِ انهُ ارسل لي السنة الماضية رسولاً المانيًا قال انهُ يتوسط بين تجار البلاد واصحاب سوق ليبسك فطلب اليَّ ان ابيعهُ الكتاب فساومني فيهِ ثم انصرف ولم يعد بطلبهِ الاَّ اليوم فنقدني الثمن واخذ فقط الجلد السابع وموعده غدًا لطلب البقية

فسالهُ سارتيلي — في اية ساعة يعود

فاعترضهُ الملازم بقولهِ — انظنهُ يعود ثم خاطب البائع فقال لهُ . ما هيئة ذلك الرسول

— ان الرسول كان رجلاً قد تجاوز الخمسين ابيض شعر العارضين اما الذي جاءني اليوم فكان شابًا ما خلتهُ الاَّ خادمًا

فاجابهُ شانوبرن - انني اثني على معروفك فقد عرفت الرجل ولا بد ان التقي بهِ في السوق فاحدثهُ بحاجتي ثم اخذ سارتيلي بيده وقال لهُ . هلمَّ بنا يا صاح نسعى في غايتنا

فنصل الصديقان الملازمان عن دار الكتبي الى الرصيف دون ان يتبادلا الحديث وكان الملازم لم يزل كما كان بصفاء هيئتهِ وبشاشتهِ اما سارتيلي فقد كاد الهم يمزق احشاه ضنىً وحزنًا فقال

— لا اعلم بسر هذه الحوادث التي تمرّ بي فتتناوبني لقد تبين لي الآن ان المشتري ليس بدي نوريف وما حاجتهُ الى شراء الكتاب وعنده مثلهُ

— اخطأت يا صديقي انني لم ازل على يقين مما رأيت ولا ابرّىء دي نوريف من التهمة فلا ريب انهُ هو الذي جاء او بعث رسولاً من قبلهِ لشراء الكتاب اذ اتصل بهِ ما كان من عزمك ومرادك

— ما الذي الجأه على ارجاء العقد حتى اليوم

— قل لي متى فطنت الى فتح سحابتك واغتيال الاوراق منها

— صباح اليوم

— لقد وضح سر الرجل ببيّنات ياخذ بعضها برقاب بعض فان دي

نور يف لما كان لا منفعة له بالكتاب الذي اغتاله في غاب بولونيا لضياع مفتاح سره تواطأ مع طوبيا على تدبير الحيلة توصلاً الى حد النجاح فسعى للحال طوبيا الى النظر في اوراقك الليلة التي عمد فيها الفتك بك واغتيال حنة دي مانسيناك واذ كنت تتقلب ثمّ على سريرك تعذر على سائقك انجاز المهمة فاقتصر منها على سرقة الكتاب

— صدقت يا اخي فواأسفاه لقد ضاع سر روجه وذاع باهمالي

— لا تاسف يا سارتيلي فان الايام لا بد ان تاتيك بنتيجة ما اغمض عليك حتى اليوم واعلم ان شؤون الحياة والمقامرة في التقلب سواء . فكم من مرة يتفق للانسان ان يمنى بالخسار اياماً طوالاً متوالية ثم يتسنى له بعدها الربح فيتواصل ويتتالى حتى يملّه . وما قلت ذلك على سبيل الحكاية بل جرى معي شاهد الحال

اما سارتيلي فكان يصغى الى زميله دون ان يفقه معنى الماعه وتلميحه لاشتغاله بهمومه وغمومه فاستانف شاتو برن خطابه فقال

— ألا تذكر اللقاء امس واعتراضنا في طريق عربة حنة فذلك فاتحة النجاح اي الربح الذي نوهت عنه وغداً نعثر على الكتاب بلا شك ولا ارتياب

فسأله سارتيلي وقد حاك في صدره القلق — بالله ارشدني سبيل النجاح قل لي ما الحيلة

— قلت لك بالنجاح فلم تقنع او بالاحرى لم تصدق فان الخط الذي وضعته كان لا ريب سبيل فوزك بمرامك

فطال بالسائرين الحديث وسارتيلي وراء الملازم الى ان تخطيا باحة (نوتردام) الى الرصيف الذي انقلب اليوم قفراً بعد اذ كان مثابة تزدحم فيها اقدام الباريسيين وكان على طول المدى بين مجاز اوتيل ريه ومجاز سان ميشال ابنية معروفة يأوى اليها كرام الناس فاندثرت اليوم وقام في موضعها ثكنة لاغراض البلدية وكان في جيرة تلك الابنية ماوى الطيور على اختلاف انواعها يناظره بناء ضرب على جدته القدم فحار رائيه بمعرفته وكان في جدار

ذلك البناء ثغرة تسترها سجف خلقة والى جانبها باب لا يقفل ليلاً نهاراً

فلما بلغ السائران على مسافة من ذلك البناء اشار اليهِ شاتوبرن باصبعهِ قائلاً للفيكونت — مسيرنا يا اخي الى حيث اشير

— أ الى كنّ الخفراء

— كلاّ انا نسير الى معرض الجثث

— اتريد الدخول اليهِ

— نعم حيث اريد الوقوف على ما انتهت اليهِ حال الطريح في محلة الشان دي مارس

فاربد عندئذٍ وجه سارتيلي عجبًا واكمد حيرة فاعترضهُ شاتوبرن بقولهِ

— انني لا اخاف ان اتعرض للبحث عن حال هذا الشقي ولا الوم نفسي على ما بدا مني فان كنت قد قضيت عليهِ بتلك الضربة كان ذلك جزاءه ومع ذلك فاننا لا ندخل المحل بل نقف بالباب باحثين خفية عن امره

فما ابى سارتيلي ان يجري على هوى زميلهِ فسار معهُ الى ان لاح لهُ ازدحام الناس وحشدهم قبيل المعرض والخفرا. يحاولون تبديد شملهم فلا ينجحون . فقال الملازم — لا بد من سبب يدعو الناس للتالب عند باب المكان واخال ان صاحبنا اللص بينهم فثار هذا الكلام الحمية في نفس سارتيلي فامعن في السير وجد في توسيع خطاه

ان ظاهر المحل كان دليلاً صادقًا على داخلهِ فان جدرانه الندية كانت مضرجة بالدم ومبلطة مفروشًا بالجثث والاطار والمضارج . وكان الشرط يجولون في وسط الزحام حرصًا على الراحة والسكينة . فما زال الملازم وصديقهُ يجدان الى ان بلغا نقطة الزحام فامعن سارتيلي في التقدم جهة الباب لينظر ما في داخلهِ فابصر في الارض ذلك الشيخ الذي موّه على بصره يوم تبارز مع دونا الروسي فكان سبب اندحاره وقد عرفهُ بدليل تلك الهيئة التي جمعت حركات الحيل والمكر . فما لبث سارتيلي برهة الى ان عاد الى رفيقهِ فقال لهُ — صاحِ

سر بنا عجلاً فان الناس يتقوّلون بينهم اقوالاً لا تسرنا

— عما يتقولون

— ان قد صادف القتيل الشرط عند محلة الشان دي مارس

— هل تحققوا نسبة

— كلاً بل سمعتهم يقولون انهُ انكليزي راح قتيلاً على اثر البراز

— اما رأوا الشجة في رأسهِ

— بلى وقد توسعوا في نقلهم الى الكلام عن لباسهِ فمنهم من انكر عليهِ النسب ومنهم من صحّحهُ لحسن بذته

— فاية حلة عليهِ

— لم يذكروا الزي بل رأوا عليهِ ساعة ذهبية

ان نطاق تلك الاقاويل كان يتسع فيتاول كل من الحاضرين معناه وما زال سارتيلي ورفيقهُ في وسط الزحام يتقدمان باندفاع الناس حولهما الى ان لاح للملازم فتى يضطبن كتاباً بين ذالك الحشد فضغط على كتف سارتيلي يريد ان يستلفت انظاره اليهِ فما كاد يرمقهُ الفيكونت حتى كان الفتى قد همّ بالانصراف من وراء الشرط الذين كانوا ثمَّ قائمين بينهُ وبين سارتيلي

فصاح الفيكونت ملهوفاً مدهوشاً — هذا طوبيا . ثم اسرع يريد القاء القبض عليهِ فاعترضهُ الجند بقولهم الزموا حدودكم اما سارتيلي فلم ينثنِ عن محاولة الوصول الى سائقهِ ولكن طال بهِ الزمان حتى كان طوبيا قد اخترق الصفوف وراح متوارياً عن العيان مغادراً سيده ضمن تلك الدائرة

ولما توصل ادمون الى التنصل من ضيق الحلقة التي توسطاها همَّ بمطاردة سائقهِ فاوقفهُ الملازم عن عزمهِ وقال لهُ

— من الراي ان تعدل عن لحاقهِ لاسباب وجلّ ما يصدك عنهُ التعرض لهُ في الطريق ومناظرتهِ في مسئلة اخشى ان يدري بها الناس فتنقلب علينا

— صدقت وانهُ لاكره على قلبي السقوط بين ايدي الشرط بعد اذ تبرأت

منهم مرارًا

— لكن عندي حيلة اخرى آخذ بها خفية توصلاً الى ادراك المنى

— بالله وضح مقالك وزدني من بيانك ما يفيدني الراحة والسلام

— هو ان نقصد معًا قصر دي نوريف لعل طوبيا انصرف اليهِ فنقف له في المرصاد عند الباب حتى اذا خرج خلونا به واستطلعناه خفية طلع الامر كله

— ما اخالهُ يعود الى قصر دي نوريف

— لا باس اذا طفنا في انحاء القصر فاطلعتني على مداخلهِ ومخارجه لانني لم ازل اجهل موقعهُ حتى اليوم

فاكتريا عربة الى الاسبلاند وسارا وكان سارتيلي واجمًا كئيبًا لا يلذ له الكلام اما الملازم فكان هاشًا باشًا يزداد ذهنهُ توقدًا كلما ازدادت العقبات في مسيره او تناوبتهُ الهموم على ان سارتيلي على رغم ما كان نازلاً بهِ من الاشجان لم يلبث شجاعًا بصيرًا اشد من شانوبرن ولولا ان هذه الحوادث فاجأتهُ وهو على غير الحال التي كان عليها لاستظهر على زميلهِ وفضلهُ بسجاياه لكن تدرّب شانوبرن على الحرب واختباره اساليبهِ المتضاربة جعلتهُ في مكان اسمى من مكان النيكونت ولا سيما لخلو فؤاده من اثقال الهوى واشغال الغرام . فان سارتيلي لم يكن ليبالي بشيء مما اعترض له من النوائب لولا ان حياة حنة اعترضت بينهما فباتت هدفًا لسهامها

وبينما هما على الطريق افتتح الملازم الخطاب بقولهِ — لقد استجليت الآن في ذهني وجوه الحادثة التي مرّت بنا امس فاعلم انهُ لما اخطأَت مس جورجينا مرماها ففازت حنة بالفرار من العربة خال للانكليزية وللسائق انهُ قد لقت حينها في تلك السقطة وعند زاوية الاسلاند اختليا ليضربا الراي في امرها فارتأيا ان يرسلا العربة والجياد فيعولا على الانفصال كل لشانهِ اتقاء الغوائل فعادت المدبرة الانكليزية لتنظر في ما عسى ان يطرأ بعد وفاة حنة وراح

طوبيا ينقل الى دي نوريف تفصيل ما وقع لهُ في بعثتهِ

فقال لهُ سارتيلي — بيان لي يا اخي انك لم تزل على اعتقادك في تواطوء المدبرة مع الاشقياء

— وقد قدمت لك دليلاً صريحًا على اعتقادي بسوء نيتها باشارتي الى جوليا ان تلازم المضجع فتعترض دون اختلائها مع حنة اذ لم ارَ في ابعادها سبيلاً فضلاً عن ذلك ان لي حاجة عندها اقتضيها منها استئنافًا

— وما قولك في القتيل الذي غادرناه في معرض الجثث ألا ينوبنا منهُ شرّ

— ان وجوده في المعرض يدلنا على خلو القتيل من بينة تشير الى القاتل وهب ان دي نوريف قد عرف الجاني فلا يسعهُ لاسباب شتى ان يعرّض باسمهِ او ان يحمل الشرط على اقتصاص اثره وقد يرشدنا الى اعراض دي نوريف عن هذا الغرض ارسال طوبيا خصوصًا الى المعرض ليتأكد لهُ جهل الناس بالقتيل والقاتل . بل ربما كان مسرورًا باغتيال ذلك المسكين الذي كان يخشى منهُ اذاعة امره . وآخر ما انتهى اليهِ الراي ان نقف موقفًا يسعدنا على العلم بما يدبره اولئك الاشقياء . ثم امر السائق ان يعدل عن اجهاد الجياد الى الوقوف بهما عند جادة الانفاليد حتى اذا بلغاها انتبذا فيها مكانًا قصيًا جانب مهيع فارن . وقد احسن شانوبرن في وقوفهِ حيث اشار لتمكنهِ من مرأى القصر تمامًا ومراقبتهِ المارين في طريق فارن وجادة الانفاليد

فما استقر بهما المقام حتى نظر الملازم الى صديقهِ وقال لهُ

— عجبًا ما لي ارى نوافذ قصر دي نوريف مقفلة هل سبق لهُ بذلك عادة

فاجابهُ الفيكونت — كلاَّ فانني عند ما ازرتهُ المرة الاخيرة مع الثقاف كانت النوافذ كلها مفتوحة

— ان هذا التقفيل مما يدل على ان هذا الروسي قد هجر المنزل

— لا اصدق رأيك في هجرانهِ لانهُ من كان كثير الرياش مثلهُ لا يقوى على نقلهِ في يوم واحد فضلاً عن كل ذلك ان مريديهِ كانوا قد عزموا على احضار حنة اليهِ

— لقد اخطأ ظنك في الوجه الذي قدمت ومن كان مثل صاحبنا الروسي كثير الخداع لا يتقاعد عن تدبير الحيلة في سرعة الانتقال والتحول من وجهة الى اخرى فرارًا من التبعات وقد اتاه الزمان امس لتمهيد الذرائع التي تسعده على الانتقال خفية فلنتاكد ذلك بنفسنا

— كيف يكون ذلك

— انني ادخل القصر كزائر يريد ان يتفقد معاهده دون حذر ولا احتراز لان الروسي لا عهد لهُ بي من قبل ثم انني لا ارى حاجة الى مراقبة طوبيا اذ تاكدت تغيبه وعدوله عن الرجوع الى هنا

وقبل ان يتلقى الملازم جواب زميلهِ على استحسان رأيهِ او انكاره ترجل وسعى الى ان وقف قبيل سور الحديقة فارسل انظاره تتفقد انحاء القصر فتبين لهُ حقيقة ما رآه وتاكد ان لا نامج في الدار فاطنّ الجرس وانتظر مجيبًا فما طال بهِ الانتظار حتى توهم خلو المنزل من السكان ثم سمع بعد برهة وقع اقدام رجل يتقدم داخل الحديقة فانتبه اليهِ واتبعهُ النظر الى ان وقف بهِ عند السور كانهُ يريد مشافهته من خلال الشبيكة

فابتدأه شانورن بهذا السوال — جئت اطلب الموسيو دي نوريف

فاجابهُ البستاني بكل سكينة — انهُ متغيب

— فمتى كان عهد غيبتهِ وقد رأيتهُ من قبل امس

— انهُ زايل البلد الى روسيا بكل رجالهِ

— ايطول زمن تغيبه فيها

— لا اعلم اذ لست من اهل الدار بل انا بستاني قد استدعاني خصوصًا للعناية بحديقتهِ

— لا باس فاني اكاتبه بشان ما جئت اخاطبه بهِ شفاهاً

ثم قفل راجعاً الى العربة حيث كان سارتيلي ينتظر عودته جازعاً ولما اقبل عليهِ سالهُ الفيكونت قائلاً

— ما رأيت يا اخي

— ما اكد اعتقادي بجلائهِ عن القصر

— يا للغرابة

— لا تعجب من كل ما رأيت وسمعت وقد كنت تاكدت امس ما اجراه دي نوريف اليوم لانهُ كان قد اخذ الاهبة للسفر بحجة الى خارج فرنسا

— أليَّ سافر وترك طوبيا عندنا

— لقد غادره جاسوساً يسعى تحت امرة الندية الانكليزية

— صدقت يا اخي وها انا اكل منذ الآن امري اليك فدبر ما تشاء على هواك ومرادك وارحم صباي فقد حملتني هذه الحوادث نصباً ذهب برشدي وتيه عقلي

— لا تخف يا اخي فاني ساعيد اليك الراحة التي فقدتها واشفي نفسك من اوصابها فاتكل عليَّ واتبعني الآن نقصد دارك حيث ابسط لديك الخطة التي اقصد انتهاجها في السعي وراء غايتك

فركب الرجلان العربة وقصدا الرجوع الى محلة استوربج فدخلا قصر سارتيلي فاستقبلهما انطوان بكل لهفة واحتفاء وما كاد يستقر بهما المقام حتى افتتح الملازم الخطاب بقوله

— انني اثني عليك لاحراز هذا الخادم الامين انطوان فلا شك ان الله جعلهُ لديك رحمة بك من شر السائق طوبيا

ثم نهض سارتيلي بريد التحول في قصره ليتفقده دأب العائد من سفر بعيد وغادر الملازم في الردهة يتلهى بما يجول في خاطره من الخواطر التي ينظمها اتماماً للحيلة التي دبرها في نجاح زميلهِ فكان سارتيلي قد انتهى الى مخدعهِ فارتد

عنهُ حائرًا مكمد لون الوجه واجفًا من الرعب والقلق اذ ابصر على طاولتهِ كتابًا مجادًا فاخذه بيده للحال وعاد الى الملازم فطرحهُ لديهِ قائلاً

— هذا هو الكتاب الذي طوبنا البلد من اجلهِ هذا هو الجلد السابع من ذلك المؤلف الضخم

فاجابهُ الملازم — اما قلت لك يا اخي ان لا بد من لقاء الراحة والطمانينة

— لكن يا اخي أنىّ وجدت هذا الكتاب على الطاولة وقد كنا رأيناه على كف طوبيا الشقي

— لا بد ان يكون انطوان قد علم بشيء من ذلك فاسالهُ عن سبيل وصول الكتاب الى المخدع ولا ريب ان الرسول قد اودعهُ كفه

واذ كان قد عوّل سارتيلي على طلب الخادم انطوان القى نظره على الكتاب فصاح — ان هذا السفر هو غير الذي اشتراه طوبيا

— أنىّ يكون ذلك وهل كثر طبع هذا السفر

ان الكتاب الذي لقيهُ سارتيلي على طاولتهِ كان قديم العهد قد حال لون جلده وذبلت اوراقه فاخذه الملازم بيده وقال

— ارى ان هذا الكتاب قد غمس في الماء فنشر ولعلهُ ذاك الذي تابطناه في رحلتنا الى اوتيل يوم البراز فاغتالتهُ الاشرار

— بالله ارجوك ان تؤكد فيهِ شارة مانسينياك

— هو رسم التاج المركيزي الاحمر

— اذن هو ذلك الكتاب لا ريبة فيهِ

— اني لاعجب من ارجاعه بعد اغتيالهِ منذ اسابيع وقد التصقت اوراقهُ بعضها ببعض كانهُ قد طرح في السين ثم نشر فجيء بهِ الى هنا . فلا بد من مراجعة انطوان في هذا الشان

فدعاه الفيكونت اليهِ وسالهُ قائلاً

— من وضع الكتاب على طاولتي

— انا ياسيدي وقد جاء بو اليك رجل اوجب عليَّ بالحاحهِ مزيد الاحتراز عليهِ وعرضهِ لديك عند عودتك

— من هو ذلك الرجل

— انني اجهل اسمهُ وقد تبين لي جسمهُ بين العمرين شديد البنية واخالني قد رأيتهُ في دارنا من قبل

— متى كان عهد لقائهِ عندي

— من قبل البراز ببضعة ايام يوم كان طوبيا السائق يتمشى في محلة استورج فاستدعاه سيدي وامرني ان احجر عليهِ في السقيفة

فصاح سارتيلي عند هذا البيان — هو جوترا الثقاف . ثم استانف حديثهُ مع الخادم فقال لهُ

— هل تحققت هيئتهُ كما فصلت

— نعم يا سيدي هو الرجل بعينهِ ولكنني قد رأيتهُ على حال من الشقاء والفقر تدمى لها الاجفان اسفًا وقد ظننتهُ مسكينًا جاء يسال سيدي النجدة

— هل وعد بالعود الينا

— كلاَّ يا سيدي انهُ ما كاد يسلمني الكتاب حتى انزاح عني كما ينزاح الخجل اذا دهمهُ العي

— احسنت يا انطوان واعلم انهُ لا اجيز لك مذ الآن ان تدخل غريبًا الى الدار الاَّ من كان رسولاً من قبل حنة دي مانسينياك

فاطاع الخادم امر مولاه وانصرف تاركًا الصديقين في خلوة يتخالسان النظر يلتمس الواحد من عيني الآخر سرًّا . اما الملازم فكان ادهى وادرى في حديث العيون من زميلهِ فقال

— ان الثقاف جوترا الذي دار ذكره بينكما اما هو ذلك الرجل الذي قدم امس قبل ان تاتي اليَّ

— نعم

— اما هو الذي نزح عن داره منذ ثمانية ايام بعد ان وعدك بالعمل معك على دي نوريف

— هو هو دون ارتياب

— واخالني قد بلغت الغاية وادركت من سؤلي النهاية

— بالله اكشف عن سرائرك وافدني المرام

— ان هذا الثقاف لاجدر رجل بمساعدتنا وليس لنا من دونه عضد في بلوغ المنى وقد تراءى لي انه انصرف من عنده فتوارى في الحجاب ليترصد اعمال الاشقياء مريدي دي نوريف ولا ريب انه سيتراءى لك في ساعة لا نتوقع حلولها والذي تسنى له ان ينتزع الكتاب من كف دي نوريف يتوفق ايضًا الى نجدتنا عليه

— اتخالة ادرك سر هذا السفر وما انطوى عليه فرأى ان يتحفني به للفائدة

— هذا غرض جوترا لا ريب فيه وقد ارشدتنا اليه الحوادث التي تاخذ بعضها برقاب بعض . فاعلم انه لما علم دي نوريف باغتيال السفر من داره سعى في اشتراء آخر من مثله واذ كان لا يقوى على استبطان السر دون تلك الرقعة التي علقها عليه روجه بات عمله عبثًا . فاتصل بجوترا ان دي نوريف قد توصل بمساعدة طوبيا الى احراز نسخة اخرى من ذلك التاريخ فعمد للحال ان يضع الكتاب بين يديك لتقابل بقوته عدوك وقد الحّ على الخادم ان يضعهُ على طاولتك الخاصة فينبهك اليه عند عودتك لينبذك بذلك سرعة الاخذ بالاهبة وينبئك ان دي نوريف يعمل على هلاكك فتكمّ واحذر بطشهُ

— لكن دي نوريف قد نزح به

— انني تاكدت جلاءه عن داره ولكن من يثبت لنا انتزاحه عن باريس فمن الراي ان نبادر للعمل دون تاخير .

— اني اليك بما تقضي

— فلنبادر اولاً الى الاطلاع على ما يقتضي اجراؤه توصلاً الى صيانة مال المركيز دي مانسينياك ثم نعمد الى تدبير الحيلة في الفوز بدي نوريف والاستظهار عليهِ وقد استاذنت رئيسي في عطلة طويلة اشغلها في خدمتك ولو دعتني الحال للسفر الى سيبيريا

ان الملازم كان قد ازال بغيرتهِ على مصلحة سارتيلي وامتزاجه معهُ كل ريب واشتباه حتى افتتح قلب الفيكونت واستنبط منهُ كل اسراره لا سيما عندما رأى منهُ تلك العناية في الوقوف عنده في حومة البراز والتجول ليلاً في احياء باريس حباً بادراك السؤال والمرام . فقال لهُ سارتيلي — من الواجب ان اتلو عليك كتاب روجه وعمد الى سحابتهِ بريد اخراجه

وبينا كان سارتيلي آخذاً بتصفح الاوراق توصلاً الى رسالة صديقهِ المتغيب جلس الملازم على الطاولة يقلب اوراق التاريخ عن اذن صاحبهِ الى ان وجد الفيكونت الكتاب فشرع يقراه همساً حتى انتهى الى هذه العبارة من الكتاب الذي نشرناه قبلاً وهي :

« افتح الجلد السابع واقرأ السطر التاسع عشر من الصفحة التاسعة عشرة بعد « المائة بكل دقة وامعان . حتى اذا اتيت على ذلك كلهِ فهمت المراد فاعمل « بما تطالبك بهِ المحبة وما تفرضهُ عليك سنة الولاء والاخاء »

فسالهُ الملازم قائلاً — أَذلك كل ما انطوى عليهِ الكتاب

— كلاَّ وهذا ما جاء بعده وهو :

« انك تذهب بنفسك الى الموضع المخبوء فيهِ كنز حنة فانتزعهُ وعد بهِ « اليها لتقترن بها »

فاعترضهُ الملازم عند ذلك قائلاً — لما كان يا اخي قد فرض عليك صديقك الذهاب بنفسك فما الحاجة اذن الى ساعدي خلاقاً للاشارة

— لا تابي يا اخي مساعدتي وما اخال روجه ينكر عليَّ الاتفاق معك

على السعي في اجراء مقاصده

— فعلينا اذن ان نكاشف السفر بسرنا لنعلم ما يكون من انبائهِ

اشد ما كان هول تلك الدقيقة التي وقف فيها سارتيلي ازاء الكتاب ينتظر بقلب خافق انباءه فلبث برهة لا يفوه بشيء الى ان اعترضهُ الملازم قائلاً

— لا شك ان هذا الكتاب قد غاص في لجج البحر حتى انني لا استطيع ان اقلب صفحاته دون الحذر من تمزيقها لانها متلبدة متلاصقة واخذ ينشره شيئًا فشيئًا حتى انتهى الى الصفحة المقصودة فهتف مسروراً

— ها قد بلغنا المراد يا صاح فانتبه . اما سارتيلي فكان ذاهلاً يتوقع نتيجة البحث . وما زال الملازم يقرأ ما دوّن في تلك الصفحة حتى وقف عند السطر الذي اشار اليهِ كتاب روجه فقال مخاطبًا سارتيلي

— اسمع يا اخي ما اقراه عليك بالحرف الواحد

« في عام ١٤١٥ لما اوجس قسيس سان ميشال خيفة من سطوات

« الانكليز احتفر في صخر على الجانب الشمالي من جزيرة طومبلان غاراً اودعه

« ثروة الدير ولم يزل ذلك الغار حتى اليوم

« ولئن كان قد وصد باب الغار للحال فقد جعل القسيس على ظاهر

« الصخر علائم يستدل بها على مدخل الغار »

فلما بلغ الملازم حدّ ما قرأه عن الغار ومدخلهِ صد عن اكمال ما تلاه من الحديث امل ان يتلقى من زميلهِ رأيهُ اما الفيكونت فلم يرَ شيئًا قبل ان يسمع حكم القارىء في ما وعاه

فقال الملازم — لا اوضح مما قرأت وتبينت

— فما الحيلة اذن في ما تدبرت

— أتحسب ان الغار لم يزل ثابت الاثر فوق ما اودعه على ما جاء في الاثر

— كلاً كلاً وهاك ما ينكر عليّ تاكيد الخبر في ما يلي الاسطر التي قرأتها

على سماعك

« وعقيب ذلك بخمسين عامًا اي على عهد لويس الحادي عشر اعيدت « الثروة الى الدير بكل احتفاء في عيد سان سيمون في الثامن والعشرين من « تشرين الاول وقد انهدر منها على اثر الثورات الدينية »

— وما المراد من كل ذلك الكلام

— مفاده ان الثروة قد انتقلت من الغار الذي لم يزل ثابتًا حتى الان

— قطنت البلد وترددت كثيرًا فلم يتفق لي ابدًا ان سمعت بذكر هذا الغار

— ربما كان معروفًا عند المركيز دون كل الناس فاختاره مستودع ماله

— بالله يا شاتوبرن لا تمازحني الآن فالجد الجد في كلامك

— انني لا انطق الأ بالجد المؤيد بالبرهان واسمع ما ابديه لك تأ ييدًا لما قدمت

« قال صديقك في كتابهِ اليك انني قد حولت مالي لاجعلهُ في حمى عن « عيون الناس وذلك لاسباب تتصل بك مستانفًا »

ثم جعل بعد ذلك الاشارة الى الموضع مع الرجاء في ان تقصده بنفسك لتنتزع منهُ المال المخبوء وما اظن في كلامهِ تعقيدًا

—لقد اطلت الفكرة في تدبر حيلة روجه وصرفها الى وجهٍ يرتاح العقل اليهِ فلم يتهيأ لي ذلك وما كنت لاصدق عمري كلهُ ان روجه الرجل الباريسي البحت قد جعل تلك الصخرة مستودع مالهِ

— واني لاعجب من ترددك في استجلاء حقيقة امر الرجل وقد سمعتك شاكيًا من الغموض في سيرتهِ خلا ما شهد بهِ انداده عنهُ وفضلاً عن كل ذلك ان مانسيناك كان يكثر المطالعة ويطيل الفكرة في توجيه الامور وجهة غريبة حتى ان من راى هذا الكتاب في خزانتهِ حكم دون شك بغرابة مذهب المركيز

فتململ الفيكونت جزعًا وفضى ضجره وحزنة على الملازم ان يحوّل عن نهجهِ في الخطاب فقال

— انني آتيك بالنتيجة التي اخذتها عن قصة المركيز وهي انهُ لما كان روجه يود ان يودع مالهُ موضعًا خفيًا اتفق ان وقع نظره على الصفحة التي قرأتها عليك في تاريخ نورماند يا فسكن الى الحيلة المثبتة فيها فقصد الغار المنوه عنهُ واذ كان قد وجده حسب اشارة القسيس اتخذه مطمورة دفن فيها مالهُ

— لا ازال في ريب من هذه الحيلة على رغم اعتقادي بصحة مقالك

— قل لي يا سارتيلي اما كان المركيز يتغيب مرارًا

— نعم وكان تغيبهُ في زمن معلوم ربما كان ثلاثًا في السنة

— هلاَّ علمت بغاية ذلك التغيب

— كلاَّ

— هل كان يتعهد جون مون سان ميشال

— كان لوالدي عقار في تلك الانحاء وقد باعه اخيرًا فكان روجه يتردد اليهِ في صباه ومما اذكره ايضًا انني قصدت مرة مع روجه تلك الناحية فعجنا على طومبلان ايام العطلة المدرسية

— لقد صحصح الحق وبان الريب فقم بنا الى الرحيل

— صدقت ولكن . . . .

— ما في الامر لبسة فخلِّ عنك المطل واذهب

فوجم الفيكونت مفكرًا . فاستانف الملازم حديثهُ قائلاً

— اخاف ان يكون الموسيو دي نوريف قد نظر في الامر من قبل فسعى اليهِ

— ما تقول ادرى بو الروسي

— ذلك الظن الراجح وما اخالهُ حاول اغتيال الجلد عبثًا ثم انهُ لم يجد في شرائهِ رغبة في الاطلاع على تاريخ فرنسا وقد تاكد لديَّ ادراكهُ السر

دون حاجة الى مفسر يفسر رموزه

— فعلى ما قدمت انهُ تقدمنا الى الموضع

— لا بدع في ذلك وسفره العاجل دليل بيّن على ادراك الغاية من الكتاب

فقد رمى الملازم بحديثهِ كبد الغرض فدبه خاطر الفيكونت واثار حفنده فاجابهُ

— اصبت يا اخي ولا بد ان يكون طوبيا قد نزع اليهِ ولكن ربما اقعده بعد المدى عن الوصول اليهِ الآن

— أنى يذهب الى طومبلان وعلى مَ يركبون اليها

— على المجد (الدليجانس) في سان مالو

— ما اخال دي نوريف قد ركب المجدّ ليبلغ طومبلان في اربعين ساعة

— ان المسافر ينتقل في الطريق الى عربة البريد في بريست عند رباط يبعد نحو ميلين من المون سان ميشال

— فما هي المسافة اليها من باريس

— لا اقل من اربع وعشرين ساعة الى الرباط

— ما اظنهُ اتخذ هذا السبيل في سفره

— لماذا

— لانهُ لا بد للمسافر ان يشهر اسمهُ عند اخذ الجواز وذلك ما يأباه دي نوريف حرصًا على كتمان امره

— فما رأيك اذن وما ظنك فيهِ

فان سارتيلي كان قد زاد ثقة في الملازم لما تبينهُ من اصابتهِ في الراي وحذاقتهِ في تدبير الامور فقام ينتظر من كلامهِ هدى

فقال الملازم — ان ما توهمت في سيرة دي نوريف وقدرت هو انهُ اخذ

الاهبة للسفر الى طومبلان على الجياد فقام ينتظر حيث انتهى الآن وفود الاعوان عليه بعربة خاصة يركبها بهم الى المدينة فيبلغها ساعة وصول البريد اليها فيتقي بهذه الحيلة شرّ الثقاف والشرط معًا

— فما يقعدنا عن اتخاذ حيلته واللحاق به

— من الراي ان نبعث الى الموقف في محلة جان جاك روسو بطلب محل في الجدّ مساء اليوم فندع ركوب الجياد الى ما بعد الجواب عن طلب السفر مع البريد وعسى ان نصادف الرجل في الرباط على طريقنا

— تلك امنية اقتضيها من ودادك واعتمد في نيلها على اجتهادك

— ما الغرض يا اخي من الالتقاء بدي نوريف باعظم من الاهتداء الى ثروة حسة . فمن الحكمة ان تلزم السكون والسلام الى ان تاتيك الايام بالمرام حتى اذا بلغت المامول في استنباط الثروة من تلك المطمورة سهل عليك الاخذ بسبيل الانتقام لنفسك ممن تناوىء وتعادي . اما الآن فالغاية طومبلان

— انني اكل امري اليك لتصرفهٔ بدرايتك وتدبره برصانتك ورزانتك

— لا تخف يا سارتيلي فاني سابذل الوسع في خدمتك واؤيد مقامي في حسن قضاء مهمتك . فاعتمد عليّ بعد الله . وليس لنا من مرشد حكيم سواه

فمد اليه الفيكونت يده ايذانًا بالسلام ثم اطنّ الجرس يدعو اليه الغلام لينفذه الى ادارة البريد

فسالة شانوبرن — هل يطول بك زمن التاهب للسفر

— كلاَّ لكن استاذنك في الذهاب الى دار مانسينياك

— ان الساعة لم توذن باكثر من الثانية فمن اللازم ان نذهب سواء الى الموقف في محلة جان جاك فننظر كلانا في الامر حتى اذا بدت لنا بعض العراقيل ازلناها للحال ومتى عقدنا النية على السفر مساء اليوم رحت تقضي حقوق الزيارة لآل مانسينياك وعمدت انا الى محلي لارصاد عدتي

وفي اثناء هذا الخطاب دخل الغلام انطوان فابتدر سيده بهذا الكلام

— مولاي ان السيدة حنة تشكو ألمًا مبرّحًا اشد من قبل فبعثت الى سيدي بطلبهِ اليها

فنظر سارتيلي الى الملازم يلتمس منهُ الجواب على خطاب الغلام فاقتصر منهُ على النظر اليهِ نظرًا يغنيهِ عن البيان فقال الفيكونت موجهًا الحديث الى الغلام

— من المرجح اني اسافر الليلة فاعدّ ما احتاج اليهِ في سفطي وانا منطلق فاعود حنة قبل عودتي الى هنا

فركب الرفيقان العربة الى محلة البريد فدخل سارتيلي محل الكاتب وفؤاده يخفق بين الامل واليأس فتقدم من الكوة وقال

— اطلب اليك جواز محلين في المجدّ الى بونتورسن

— لا محل في المجدّ اليها اليوم

فاجفل الفيكونت يئسًا قانطًا من جواب الكاتب السديد فحوّل نظره الى الملازم ليكاشفهُ الراي وقبل ان يبدي شانوبرن اعتراضهُ على الجواب راجع الكاتب نفسهُ فقال

— ان احببت السفر الى برست فلك ذلك ولكن ليس قبل اجتماع الركب كلهِ

فارتاح سارتيلي من غمتهِ وقال — اردت ما يكون فهات الجواز الى برست ودونك المال

فقال الكاتب — سيكون لك المحل الثاني والثالث

فاعترضهُ شانوبرن قائلاً — وهل في العربة اكثر من محلين

— نعم فان المحل الاول قد اصابهُ صباحًا رجل يدعى كرمتي ربان سفينة

وبعد ان اخذ الملازم الجواز ودع رفيقهُ على امل اللقاء مساء فسار الفيكونت الى التروكاديرو وراح شانوبرن في العربة وهو يهجس قائلاً — ما

هذا الاسم الذي طرق مسمعي لا شك انه غريب ولم اعهد برجل يلقب في هذا الاسم في تقويم البحرية

الفصل الثالث عشر

الوداع

ان غوائل البراز التي حلت بسارتيلي كانت قد اقعدته عن السعي في انجاز مواعيده ازاء خطيبته فخانه الجد في توفير المال الذي يدفع به عن شقيقها . اما حنة فلم يفتنها امر عن الاخذ بالاسباب التي تذود بها عن شرف روجه ومكانته . فعوّلت على بيع القصر فداء حبه وابتغاء رضاه لان المسجل كالمت الذي كان قد اطلعه سارتيلي على دخيلة العدو وسوء نيته لم يستطع على رغم دفاعه ان يثني الفتاة عن عزمها وقد كان اجمع بعض التجار على ابتياعه بغية ان ينشئوا فيه طرقًا حديثة تزيد الاهلين رغبة في سكنى تلك المحلة

ومن الاسباب التي كانت تحمل حنة على الالحاح في بيع القصر لجاجة الخصم في تقاضي شقيقها كل يوم وعزل وكيله كالمت عندما آنس منه الحلم في دعوى روجه

فسر المسجل ببعده من دي نوريف واعتزاله عنه فانضم الى من بوائم آل دي مانسيناك وامعن في الذود عن حقوقهم ما استطاع قيامًا بعهود الولاء والوفاء . لا سيا بعد ان رأى من عزم حنة وتفانيها على حب شقيقها ما رأى .

فخطر له بعد اطالة الفكرة ان يبادر الى ملافاة الخطر السريع فيداوي المرض العاجل واشد الامراض عاجلها . فصوّب بيع القصر لاسباب منها ان لافائدة منه للفتاة على عظمهِ وسعة ارضهِ فبثمنهِ تفي حنة ما كان رهن ذمة اخيها وتبقي لديها ما يغنيها الحاجة مدى العمر . على ان الله اذا وفق زواج سارتيلي بها عوّضت منه ما فقدت

اما سارتيلي فكان يرى خلاف رأي المسجل فيابى ان يصدق بيع القصر عش تلك اليامة وقد بلغ بهِ الامل حد استنباط المال الذي ادخره روجه في نورماندیا فوعد نفسه بارجاعه الى حنة في عودتهِ من سفر لم ينبئها بهِ . وكان قد انتذر على نفسهِ ان يرهن عقاره وما ملكت يداه وفاء عن حب حنة له اذا قدِّر فخاب امله وحبط عمله في سفره الى نورمانديا . ثم يدعي ان قد اصاب ذلك المال في مطمورة كتب له عنها روجه قبل تغيبهِ فيتلافى بذلك انكارها تادبًا ويعجل زمان الزفاف

فلما وصل سارتيلي الى القصر خفق قلبهُ جزعًا وطار الى لقاء حنة ذاهلاً عما نابهُ من حوادث الامس فما مثل امامها وتامل حزنها وهزالها حتى عاودته تلك الخواطر المزعجة فتوسم في هيئتها دلائل داء يقرض حبة قلبها ويذيب مهجتها . فابتدأها بهذا السؤال

— ما حلَّ بكِ يا حنة وما شأنكِ الآن

فتقدمتها المدبرة بالجواب فقالت — ليس الأضعف طارىء ثم يزول وقد زادنا الطبيب راحة في اشارتهِ

— حنة اني اوجه اليكِ الخطاب دون غيرك فاجيبيني عن الألم وموضعهِ

— ان الألم في القلب يا ادمون اما الآن فليس لي ان اشكو منهُ وقد زال عني

— ما حاجتكِ اليَّ

— اريد ان اكاشفك بما كان من امرنا مع المسجل فقد ضرب اليوم موعدًا

لتوقيت اجل البيع

— هلاً زلتِ على عزمك

— وهل من سبيل للتخلص غيره . فضلاً عن الحاجة الى الوفاء بحق الدائن فان القصر اصبح في عينيَّ موبقًا اطلب الفرار منهُ وقد دلتني المدبرة على برج قائم في احدى الديار الايرلنديزية فاذهب اليهِ وانزل فيهِ قريرة العين ناعمة البال . وهناك توافيني فارحب بك وتسرُّ بي

فايدت المدبرة كلام سيدتها بقولها — وليس لسيدتي غير ذلك المنزل يصلح لسكناها من كل قبيل

— لا ريب عندي في ما تقولين . ولكن اخاف ان لا يطول زمان تنعمها بهِ

ثم حوَّل حديثهُ الى حنة فقال لها

— اعلمي يا عزيزتي وتيقني انني خطيبك وشقيقك شاهد علينا . فجئت الآن اودعك قصد التغيب عنكِ في سفر يدعوني حالاً فلا اقيم بعيدًا منك اكثر من ثلاثة ايام . فعديني بحبك وعمرك ان لا تجزي امرًا ما دار بيننا الحديث عنهُ قبل عودتي . ولا يخفى ان سعادتنا رهن وعدكِ وتصديقهِ

— آه يا ادمون اين انا من السعادة التي تتصورها ولكن اذا كان ذلك من مرامك فلن ابرح من مكاني قبل لقائك فيهِ

— فاني اجزل شكركِ ما استطعت واطلب اليكِ ان تزيدي رجاءك بي فعسى ان يتحقق قريبًا . واسمحي لي ان ادخل الخزانة مرة اخرى قبل ان اودعك

فهلعت الفتاة عند سماعها ذكر الخزانة وخفق قلبها حزنًا لما ثار في ذهنها من اثارها المفجعة فقالت — ان المفتاح في يد جوليا فاذهب معها اليها

ان المدبرة كانت تتخطى في المضجع تارة ترشق سارتيلي بانظارها وتغض اخرى الى ان اتاها الزمان بما كانت تتمناه عليهِ وكذلك ادمون كان يود ان

بخلو بجوليا التي كان يعتقد بصدق حبها لسيدتها . وبينا هما في الرواق ابتدأها سارنيلي بهذا السوال

— ما يجري في القصر يا جوليا

فاجابتهُ الجارية بكل خلوص — ليس غير ما اراه وهو اعتلال صحة سيدتي حنة

— هل غادرتها مع الانكليزية اثناء قيامك عندها

— لم يطرق جفني الكرى منذ لزمت سيدتي الفراش

— فما دهاها اذن اليوم وقد رأيتها منهوكة مجهودة

— ربما كان ذلك على اثر احلام مزعجة دارت في خلدها

— اما كاشفتك بما طرأ لها

— ليس الاَّ ما سمعتهُ عند انتباهها من رقادها فانها كانت تهذو باسم امرأة لم انتبه جيداً

— اسمعي يا جوليا ما اودعهُ صدرك واعلمي ان لا ثقة لي الاَّ بكِ فقومي على وعدكِ للملازم شاتوبرن في السهر على راحة سيدتك ومراقبة المدبرة وهو يكافئك بما هو اوسع لهُ واطول اما انا فاعاهدك ايضًا على ذلك واعدك انهُ متى تمَّ لي حظ الاقتران بها جعلت لكِ راتبًا جزيلاً محسوبًا عليَّ في جملة ما يعقد عليهِ الراي في صك الزواج . بحيث لا يستطيع احدٌ انتزاعه وابطاله . فراعيها وارقبي حركات العذول

فقالت جوليا براسها ما اعرب عن اخلاصها وصدقها في خدمة سيدتها وقفلت راجعة مع الفيكونت الى المضجع حيث اراد ان يقضي سنة الوداع قبل سفره فاتفق ان الانكليزية تحولت عن المكان لغرض من الاغراض . فتقدم ادمون من سرير حنة فاستلم يدها قائلاً بكل ايجاز حرصًا على راحة خطيبته

— انني على سفر فاثبتي على وعدك

— ادمون لا تطيل هجرك فعد اليَّ عجلاً لان الاخطار تحدق بي

— اذا كان ثمَّ من خطر فلن ابرح من هذا المكان وقد كتب عليَّ الذود عن حوضك

— كلاّ اذهب يا اخي فلا فضل لك لمناصبة الاوهام التي تكتنفني والاشباح التي تتشاجر في عيني ولا مشاجرة الرماح ساعة الكفاح

— فما تكون تلك الاشباح

— لقد زارني الليل الماضي شبح تلك المرأة المغراء

الفصل الرابع عشر

الركب في العربة

كانت محلة جان جاك روسو لعهد لويس فيليب ساحة تغص بالعربات على اختلاف طرزها فيتالب اليها الناس بين ساكب دمع الفراق ومكفكف عبرة التلاق . يخترق صفوفهم السائقة بعرباتهم ينادون هيّا على الرحيل . فتكرّ عجلاتهم عند المساء زرافات تضيئها المصابيح كأن بها رجمًا تتهاوى في عرض الفلوات

فقام سارتيلي ورفيقه الملازم تلك الليلة التي حشدا فيها للسفر في معزل عن الناس ينتظران الساعة التي تؤذن لهما بالرحيل . اما الفيكونت فكان شديد الحزن مرتبك البال يعمل الفكرة في تاويل حديث حنة له عند الوداع ويحاول جهده ازالة الوهم الذي خبط في صدره على اثر تلك الرؤيا التي

ترآءت لحنة المرة بعد الاخرى فخاف ان تكون تدبر سوء بدام حياته . لكن الملازم كان واقفاً خالي البال يسرّح النظر في ذلك الحشد شأن المتلهي وبينا هما على هذه الحال من التباين والتضارب في سرائرها اخذ شانوبرن باطراف الحديث فقال

— لو كنت تعلم يا اخي بمشاغلي للحال

— قل الله اعلم

— انني ارسل الانظار في هذا الحشد ملتمساً وجه الرفيق

— لقد ذكرتني بثالث بيننا لم يخطر على بالي ولكن ما ضرنا لو جهلناه الآن فعرفناه آن الرحيل

— لا خفاك ايها الفيكونت ان احسن انسان نتقيه من لم يدر برقيبه ولذلك تراني اراقب الجمهور علني اقف على من يصلح ان يكون في رفقتنا

— ما همني شانه ومكانه

— لا تقل بذلك ايها الفيكونت فكم من فائدة يستفيدها الانسان عرضاً دون ان يتطلبها ولا سيما في الاسفار

فاتفق ان العربة التي اعدت لنقل الركاب الى جهات بريطانيا كانت قد تاخرت في ذلك اليوم عن ساعة سفرها لتاخر جمع الرسائل في البريد فاخذ الملازم يتململ ويضجر من الوقوف في تلك الساحة موقفاً لا يرجو فيه فائدة كبرى بل ربما كان باعثاً على الاضرار بمصلحتها وغرضها من الرحلة واذ كان يهجس في باله بما يرى من اسباب الوصول الى الغاية نفر صاحب البريد او السائق يدعو الركاب الى السفر في عربة يجرها خمسة من جياد الخيل

فطلع من سواد ذلك الحشد رجل طويل القامة حسن البنية والهيئة فتقدم الى العربة وجلس موضعهُ ثم تبعهُ سارتيلي وشانوبرن فاخذ كل منهما موضعهُ بحيث جلس الملازم في زاوية العربة قبالة الراكب الغريب ولما تبوأ الركب

مكانهُ سارت العربة على خط الرصيف مارة بساحة الكونكورد (حاجز باسي) عند اول هزيع من الليل وكان الركب سائرًا يشتغل كلٌّ منهم في حديث نفسهِ

ولما كان الملازم يود ان يستطلع طلع الغريب فيجم عوده رأى ان يتخذ من دخان سيكارتهِ موضوعًا للكلام فافتتحهُ بقولهِ

— اخشى ان اكون قد ازعجتك بدخان سيكارتي فعفوًا انني لم اتأخر عن طلب العذر اليك الاَّ عن وهمٍ مني ان من كان جنديًا مثلي لا يابى التدخين بالتبغ

فاجابهُ الغريب — ليس ما يزعجني منك يا اخي اذ كنت نوتيًا

فالتمس الملازم من جوابهِ الموجز سبيلاً للحديث الذي كان قد تمناه عليهِ فخاض عبابهُ وقال

— لقد تعارفنا اذن بالمهنة قبل ان نتعارف بالوجوه فجمعنا الآن بين البحرية والخيالة وقد اقمت في كل خيام المعسكر التي ضربت في برست زهاء ستة اشهر فعرفت الجميع واخص منهم بالذكر كرڤال ولوكنوري وبنوهيل وغيرهم ممن آلفتهم وحالفتهم طويلاً

فاجابهُ الغريب وقد احب ان يقاطعهُ ذكر اشخاص لاغرض لهُ عندهم

— انني هجرت برست منذ عشرين عامًا فلا اذكر احدًا منها وانا من جملة نواتي اسطول طولون قد انتدبني الرئيس في مهمة على ثغور المحيط

ولما كان الغريب لا قصد لهُ في الاسهاب ولا ارب اقتصر على ما تبادلهُ مع الملازم اجمالاً واستند الى الزاوية شان من امالهُ النعاس

اما شاتو برن فامتعض من اضراب رفيقهِ عن الحديث فاخذ ينفر نفرًا لطيفًا موقعًا على لحن غناء يتغنى بهِ القناص ويجس في الحيلة التي يتدبرها لحل عقدة لسان النوتي الى ان اعياه الهجس فمال الى سارتيلي فالفاه مجهودًا فراى اخيرًا ان يرتاح الى النوم شان رفيقيهِ فنام حتى نخر وكان قد جرت بهم العربة قبيل

فرسايل جري الرياح بين الاشجار المغروسة على مداها كانها اشباح تمرُّ بهم مرَّ السحاب . وكان يلوح من خلالها حيناً بعد حين ضوء مصابيح بعض الحانات فيحاكي البرق شاقاً بوميضهِ افق تلك البطاح فما زالت تومض وتظلم الى ان ارفت النوتي ببريقها فارتهُ بكل وضوح وجه رفيقيهِ

. . . .

ثم نبه السائق اليهِ بقولهِ لهُ – اني ارى الجياد بطيئة الجري فاخاف ان اتاخر عن الموعد فارفع الامر الى رئيسي

فاجابهُ السائق – ما ذنبي يا سيدي فالذنب كل الذنب على آمري الذي جعلها امس في خدمة احد نبلاء الانكليز فاغرى السائق على اجهادها فاضناها حتى انضاها

ولما كان قد اثر في السائق اعتراض النوتي اخذ يكد في سيره ويدفع الخيل جهداً بالسوط . فانتبه شانوبرن على اثر المناظرة وحوَّل انظاره الى رفيقيهِ فوجدهما نائمين فارسل انظاره الى خارج العربة فاصابت بعض الناس واقفين قبيل مربط على الطريق . فسال السائق قائلاً

— اين نحن يا صاح من طريقنا

— انَّا بلغنا (كورتان) فاذا شئت ان تنزل رغبة في الراحة فلك ذلك

— كيف لا وقد اعياني الجلوس الطويل كما اعياك السوق المتواصل فقد آن ان ترتاح من جهدك

فسر السائق بحديث الملازم ورقة خطابهِ فاخذ يتجاذب اطرافهُ معهُ فقال

— لقد طال يا سيدي قيامي في الخدمات المجهدة فتحولت من الجندية الى هذه المهنة التي لا ارى فيها الاَّ المتاعب والملامة

— صدقت فان جيادك على ما تبينت انها تحف من الجهد فلا بد ان تكون قد جرت امس في خدمة احد الاعيان

— كلاَّ يا سيدي ان الساقة لا يغرمهم الجلاء بل الدينار على كف الجميع من رفيع ووضيع فمما اتصل بي ان هذه الجياد قد قرنت بالامس على عربة جرت باحد الانكليز الى برست فاستزاد السائق جهداً بديناره

فانتبه الملازم الى الكلام فقال — وما كان الداعي الى هذه العجلة

— لا اعلم واني لاعجب من شخوص الانكليزي الى تلك الناحية

— هل يتقدمنا بعيداً

— لا اقل من سبع ساعات وربما يكون قد بلغ غايتهُ الآن

فتكدر شاتوبرن من جواب السائق وامتعض فاستانف السوال قائلاً

— في اية ساعة نبلغ غداً مساء بونتورسون

— عند الساعة السابعة فاذا شئتم النزول فيهما قصدت برست سريعًا لان من عزم رفيقكما ان يترجل في ساحتها

— انني لا استطيع الجواب على بيانك فالامر في ذلك الى رفيقي ربما انهُ يترل قبل الوصول الى الموضعين

— يتعذر عليكما ان تصادفا في طريقكما محلاً غير الرباط للنزول فيهِ

— قلت لك ان لرفيقي الراي في ذلك

— تري أتقصدان في سفركما المونسان ميشال

— نعم لنشهد المدّ وكان الجواب رمية من غير رام

— صدقت فان غداً موعده

ثم صعد شاتوبرن وجلس مجلسهُ في العربة التي جرت فيهِ سريعًا سرعة الخواطر التي دارت في خلده على اثر حديثهِ مع السائق فلابس اعتقاده ان الرجل الانكليزي الذي مرَّ بالامس على طريق برست باذلاً الدينار بكف سخية لم يكن الاَّ ذلك الروسي دي نوريف وقد جدَّ بهِ الحرص على استنباط الثروة من الموضع الذي اشار اليهِ كتاب روجه . ثم توهم في النوتي الذي جالسهُ احد انداد دي نوريف واشياعهِ فابى الاسهاب معه ولا غروَ اذا طاف في

الوهم حولهُ فقد استوحشني انسهُ فما اظنهُ الّا جاسوساً بعث بهِ الينا ليقف على حديثنا والغرض منهُ اثناء الطريق

وكان النوتي اثناء هجس شاتوبرن واضطرابهِ يوهم انهُ في سبات عميق لم يبدِ حراكاً طريقهُ كلهُ حتى حار الملازم من امره فقال في نفسهِ — اني لاعجب من هذا النوتي وامعانهِ في الرقاد فلا بد ان يكون لهُ شان معنا لانهُ من كان نوتيًا مثلهُ لا يستغرقهُ النوم الى هذا الحد . فالاليق بي ان انبه خاطر سارتيلي الى ما جال في خاطري

ولما مال اليهِ يريد تنبيههُ رآه مزعوجًا فرثا لحالهِ وحوّل عنهُ فاشعل سيكارة وعاد الى حديث نفسهِ موجهًا انظاره الى ما يبدو لديهِ ظاهر العربة على طريقهِ الداجية . وبينما كانت العربة تستوي حينًا في سيرها وتلتوي حينًا آخر شعر شاتوبرن بزلزال حاد بالعربة عن نهجها القويم ثم عقب الحيد رجل يصيح من خلال الغاب (الوقف او الحتف) فلم ينتبه السائق الى ندائهِ واستمرَّ آخذًا بطريقهِ على رغم ما اعترضهُ فيهِ من العقبات التي لم تخفَ على شاتوبرن لانهُ لم يبعد عن موضع الصوت قليلاً حتى حال دون جري العربة اصل شجرة ضخم كاد يقلبها بمن فيها اما السائق فعرف كيف يتجنبهُ بحذاقتهِ ودهائهِ وبينا كان هذا المشهد يستلفت انظار السائق كان شاتوبرن قد نبه باعتدائهِ رفيقيهِ في العربة

ان الملازم لما كان قد حاك في نفسهِ الوهم حتى آكد لهُ الخطر في وجه جليسهِ انتهز فرصة الايقاع بهِ عند حيد العربة فوثب عليهِ يريد ان ياخذه بتلابيبهِ فما كان من النوتي الّا ان صدمهُ بذراعهِ صدمة القتهُ على الفيكونت فانتبه من رقاده حائرًا من امر النزاع الذي حدث بين جليسيهِ . فقال الملازم للنوتي بصوت تهدج من الغيظ والحنق

— واحرَّ قلباه ممن قلبهُ شبم

— أتزعم ان تفتك بي وانا جليسك

— كلاَّ اني لم افعل ما فعلت عدواناً بل كان مني بحكم الخطر الذي دهمنا على الطريق فقد كادت العربة تنقلب بنا سواء

— كنت قد ظننتك تريد الايقاع بي لولا انك جليت عن السبب

فقال سارتيلي — وعمري اني لاعجب من جراءة الاشقياء في بلد عرفت اهلهُ بنزاهة الطبع وشرف السليقة

فاجابهُ شاتوبرن — لا تعجب يا اخي اذا جرى بنا ما جرى ونحن على مقربة من ألنسيون

— هب اننا على مسافة عشر ساعات من باريس ألا يعد الاعتداء غرابة في زمن توفرت فيهِ اسباب الراحة والامن . فلا ريب ان المعتدين لم يتعمدوا الاَّ تاخيرنا في الطريق فانتبه

فساء شاتوبرن اسهاب رفيقه في الحديث الى حد الافصاح على ادق اسراره فلكزه قصد الاضراب عنهُ فاعترض النوتي على خطاب سارتيلي بقولهِ

— ما غرض الناس من تاخير سفركما في الطريق وما اخالك يا صاح قد صدقت في بيانك اما انا فليس لي ان اخشى معارضاً في طريقي الى الثغور عن امر الحكومة

فمال عندئذٍ الملازم الى سارتيلي وقال لهُ

— صدق رفيقنا في ما قال وهل لمن كان مثلنا ان يخشى اللصوص في هذه الناحية

اما سارتيلي فلم يأبه بما اسرَّه الملازم تحت عرض الكلام بعدما الظن واستانف استعلامهُ بقولهِ

— لكن لا بد لهذه الوقيعة من سبب

فقال النوتي — لئن يكن لما نابنا من سبب فما هو الاَّ اثر الازمة الممتدة الآن في ارجاء فرنسا عن غلاء الحبوب . فربما خطر لبعض ذوي الفاقة والمعوزين ان يتدثروا الليلة بدثار اللصوص علهم يصيبون شيئاً يعالجون بهِ

جوعهم

—لا غروَ اذا نشأ الامر عن السبب الذي بينت فان هولاء الاشقياء لم يقصدوا في قلب العربة او جيدها الاّ ارهاب الركاب فانتزاع ما لديهم من المال شبعاً من جوع وريًا من ظمأ

اما سارتيلي فهز راسهُ استخفافًا بحديثها شأن من لم يبعد بهِ البرهان عن حقيقة دعواه . واستمرت العربة تجري سريعًا الى ان جازت بين الرباطين باسرع ما كان قد قدره السائق قبلاً . وكان اذ ذاك قد لاح فرق الصباح فانتشر اهل تلك القرى المتأخمة يسعى كل منهم الى عملهِ وكان في جملتهم شرطي واقفًا عند باب الرباط لم يتصل بهِ شيء من اخبار تلك الحادثة التي مرّت بسارتيلي ورفيقيهِ . فخفض شاتوبرن اذ ذاك زجاج العربة واطلّ منها يريد ان يصغي الى الحديث الذي دار بين السائق والشرطي واوّل عبارة طرقت اذنهُ فقضت لعجبه هو ان السائق قال لمناظره

— ان الراكب الانكليزي لم ينجُ من شر اللصوص الذين تنصلنا من ربقتهم اثناء مرورنا على هذا الطريق . فاني اراه قد ترك اثرًا من نكبتهِ في عربتهِ

فما كاد شاتوبرن يعي هذا الكلام عن دي نوريف حتى ترجل للحال يريد مزيد البيان لكن السائق كان قد خاض في عباب المسئلة من وجه لم يفد الملازم شيئًا جديدًا فما اكتفى حتى القى في كف السائق دينارًا بغية ان يوافيهِ بالمقصود دون التواء فسالهُ قائلاً

— ان العربة المحطمة التي استودعتها الرباط اما هي التي كنت تجري بها امس

— نعم وهي من الطرز الذي لا يتيسر احرازه في هذه البلاد

فتقدم شاتوبرن الى العربة المعطلة فنقب فيها مقلبًا انظاره في ادواتها التي تبين لهُ منها انها قد صنعت خصوصًا لرجل يتطلب الاسفار البعيدة فقال

— لا يتسنى احراز هذه العربة الاَّ لمن كان روسيًا مولعًا بالاسفار

و بينا كان في شاغل من بحثهِ دنا منهُ الفيكونت فسمعهُ يقول — لقد ادركت الآن الغرض وفزت بالمرغوب لانهُ كان قد قرأ على ظاهر حقة اللولب اسم الصانع المعروف في النمسا . فقال الفيكونت

— ألا تتأكد الآن ما كنت قد اعلنتهُ قبلاً وهو ان دي نوريف يتقدمنا في الطريق الى غايتنا

— لكن أنى لهُ ان يبلغ الموضع وقد رأينا تعطيل العجلات

فاجابهُ السائق — ان هذا الانكليزي لا يعترض دون مسيره شيءٌ من ذلك

فسالهُ شاتوبرن قائلاً — وما الحيلة التي اتخذها آكالاً لسيره بعد ما حدث لهُ

فقال السائق وقد غرّه على البيان الدرهم الوضاح الذي لمع بريقهُ في كفهِ — اعلم يا سيدي انهُ بعد انكسار العجلة سمعت الرجل يتكلم مع خادمهِ بلغة ما طرقت اذني عمري كلهُ . ثم نظر اليَّ وقال بالافرنسية الصريحة . هل من عربة للبيع في هذه الضواحي . فاجبتهُ نعم . ان لدى المسجل عربة يريد بيعها باربعين دينارًا . فقال لك دينار ونصف اذا جئتني بها الساعة فاذهب مع خادمي لعقد البيع ونقد الثمن للحال . فرحت الى المسجل فساومتهُ بها بثمن عدل ثم قدمت بها الى الراكب فحباني ما وعد بهِ وسار

— هل قرن بها الرباطات (جياد الرباط)

— نعم وسار باسرع من البرق الخاطف

فعندئذٍ تبادل الملازم وسارتيلي انظار الحيرة والدهشة واذ كان يخشى شاتوبرن ان يبوح صاحبهُ بنجواه قسرًا عن اثر في النفس مال بهِ الى العربة وقال

— لا تيأس ولا تجزع فقد كنت امس في ارتباك اشد مما انت عليهِ الآن

قبل الحصول على الكتاب السري

و بينا هما في جدال صاح بهما السائق – هيا بنا ايها الركاب قبل ان يفوتنا الزمان

فقال لهُ شاتوبرن – ما اجريت بشأن اللصوص الذين اعترضونا في الطريق

— انني اخبرت الشرطي بما فعلوا فوعدني بنقل الخبر الى الرئيس وهو يبادر الى اقتصاص اثرهم

ثم استانف سوالهُ عن سير الرجل الانكليزي فقال – هل صحب خادمة معهُ

— كيف لا فانهُ جعلهُ عن يمينهِ

وكان النوتي اثناء تلك المناظرة في زاوية العربة لا يبدي حراكًا فساء شاتوبرن التزامهُ تلك الحال وضنهُ بحديثهِ فاضرب عنهُ واخذ يفكر بامر دي نوريف ورفيقهِ طوبيا و يود لو يعلم بما كان من غرضهِ في تعجيل سفره . فقال في نفسهِ . أنىّ يتسنى لي ان اخوض مجاهل هذه الارض ولم تجبهرها قدمي وقد كان لا بد لمن اراد ان يختط خطة لنفسهِ في مكان ان يحيط علمًا بارجاء ذلك المكان فيبتلي منهُ الباطن والظاهر فمن اين لي ان اعلم بما يجري في مون سان ميشال وطومبلان وفي الجون وغيرها من الاماكن التي اجهلها فياليتني اخلو بسارتيلي برهة اكاشفهُ بما احتاج اليهِ من البحث في هذا الشان ولكن يعزّ علينا ان نعرّض بذكر هذه الاماكن على مسمع من النوتي الذي ما اراه بيننا الاّ رقيبًا ولما كان لم يرَ شاتوبرن بدًّا من الانتظار ارجأَ المكاشفة الى حين ومال الى الراحة او تميل الشمس الى الغروب

اما سارتيلي بعد اذ وعى في ذهنهِ ما دار من الحديث بين السائق والشرطي عن الرباط وما اجلت عنهُ مناظرتهُ مع الملازم عاد يئسًا كئيبًا لا يعي من شدة الاوهام والقلق فاستولى عليهِ النعاس فنام

فطال رقاد شانوبرن الى ان تصرّم الشنق وخيم الغسق فانتبه من نومهِ حائرًا من ذهولهِ حتى تلك الساعة خلافًا لمالوف عادتهِ فاطلّ من نافذة العربة فرأى الجياد تتوقل بهِ طريقًا صاعدًا بين سورين من اشجار والى جانبها السائق يمشي الهوينا . فسرّح الملازم نظره يمنة فانبسط لديهِ منظرٌ قد دبجتهُ الطبيعة ببرقها فلاح لديهِ اجمة مختلفة الاوضاع تتخلل اشجارها رياض يسقيها نهر يتلاعب في وسطها تلاعب الارقم على الرمل من حول بناء محكم البنيان حسن الانقان . فاعجب الملازم بحسن هذا المشهد الرائع وكان يود لو يعلم باسم ذلك المكان لولا ان صديقه ورفيقه لم يزالا راقدين لا يزعجهما من سيرهما مزعج فما طال صبر شانوبرن على هذه الحال حتى ابتدر السائق بهذا السوال

— اين نحن من الطريق يا صاح

فبادر اليهِ السائق ملهوفًا مبادرة الخادم الى تلبية امر مولاه اذا طمع منهُ بجدوى واجاب .

— انا على مسافةٍ قريبة من الغاية فهلاّ يقصد سيدي الترجل قبيل بونتورسون

— ترى هل دنونا من الرباط

— لا تجاوز نصف ساعة للوصول اليهِ ولكن ما الحاجة يا سيدي الى تبديل الجياد وما زال عزمهما شديدًا وقدمهما ثابتًا في السير . ولا يخفاك يا مولاي انهُ متى بلغنا قنة هذه النجوة رأينا مون سان ميشال

ثم مال شانوبرن عن السائق الى رفيقهِ فوجده في ذهول اما النوتي فكان رامقًا فرأى عندئذٍ ان يضرب عن زيادة الاستعلام بحضرة رفيق لا يأمن شرهُ فاقتصر من خطابهِ على هذه الجملة

— اننا نترجل عند الرباط وهناك نتدبر الامر على مهل

— لا يشغلنك يا سيدي من امركما شاغل في هذه المجاهل فانني اعهد بكما الى غلام خبير يهديكما من طريقكما الغاية

فما زال شاتوبرن يتجاذب والسائق الحديث حتى بلغت بهما العربة لجوة يشرف منها على ضفاف بحيرة هادئة مطمئنة تحاكي بجمال منظرها بحيرة نوشاتل في سويسرا تحدق بها الاشجار من كل جانب وكان على شاطىء تلك البحيرة صخرتان منقطعتان الواحدة منها هرمية الشكل والاخرى افقية كانهما قد نشأتا حدًّا فاصلاً بين ثغر نورمانديا ومجمع جزر جرسي

فلما وقف السائق بشاتوبرن عند تلك الرابية نظر اليه وقال مشيرًا بيده الى الصياء

— دونك مون سان ميشال

— وما هي تلك الجزيرة السوداء

— هي طومبلان

ثم لج السائق في السير فعطف بالعربة سريعًا حتى توارى عن عيان الركب مرأى تلك الجهات واذ كان قد طال الحديث بين السائق والملازم تنبه سارتيلي من رقاده يلتمس بانظاره خلاصة ما دار عليه الكلام ثم نهض يهم في ارصاد متاعهُ للنزول اما النوتي فكان ملتزمًا السكوت لا يشغلهُ شاغل من مظاهر الطبيعة ومناظرها البديعة . فخطر اذ ذاك لشاتوبرن ان يطارحه الكلام ليستنبط ما كمن في ضميره فقال لهُ متادبًا

— عفوًا يا اخي اذا طارحتك الكلام فازعجتك به قبل ان نتعارف ولكن لا بد لي من التماس العذر منك قبل ان افصل عنك على ما بدا مني الليلة خطأً عن غير عمد . فانا الملازم شاتوبرن ورفيقي الفيكونت دي سارتيلي نرغب في مواصلتك والتقرب منك فلا تضن علينا بانسك حيث حللت

ان هذه الحيلة التي دبرها الملازم لمعرفة اسم النوتي حسنت في عين الغريب ولكن رأى صرفها بطريقة مشتبهة فقال

— كنت اود ان آنس بكما لولا ان العيش الذي قضى عليَّ ان اقضيه حياتي كلها يمنعني من انتياب المحافل ومع ذلك انني ارقب الفرص التي تأتيني

بحظ الاجتماع بكيا

فلما سمع شاتوبرن خطاب النوني آنس منه لينًا وعطفًا فاستانف الكلام قائلاً

— أنا سنترجل عند الرباط الآتي واخالك تقصد قصدنا فعسى ان نوفق الى الاجتماع معًا في المون سان ميشال

فاضرب عندئذٍ الغريب عن اكمال الخطاب في معنى بريد اغماضة فاخذ يحدث شاتوبرن عن حوادث الليل حتى ملة الملازم فانقطع الى زاويته يضرب الراي في حيلة جديدة . وما لبث على هذه الحال مع رفيقهِ الى ان طوت بهما العربة طريقًا بعيد المدى كثير العقبات افضت بها الى مربأة يشرف منها على قرية حقيرة ثم غوّرت العربة لتصعد نجوة ازاء الاخرى التي جازتها وبينا هي في صعود وهبوط ابصر شاتوبرن على اعالي تلك الهضبة الآخذين اليها عصابة سوداء تحيط بها الجياد وسط طريق ابيض . فقال لرفيقهِ سارتيلي

— اخال يا صاح اننا على مقربة من الرباط وقد رأيت عصابة تحشد اليهِ . ولكن تجاه لا ارى في هذه الناحية كنًا ياوي اليهِ الانسان . اما كان الاولى بنا يا اخي ان ننزل ضيوفًا على تلك القرية التي جزناها

— لا تخف يا صاح فاني خبير باحوال هذه الجهات ولا بد لنا من ان نجد مبيتًا هذه الليلة

— اني اليك

ان الملازم كان قد اصاب نظره المرمى في الدلالة على الرباط لان الجياد اخذت تجد في سيرها للوصول اليهِ فطوت تلك المسافة طي السجل حتى ادركته فوقفت اختيارًا

فترجل عند ذلك السائق وهمّ بتسليم الركاب متاعهم قائلاً — قد بلغنا يا سادتي المحل المقصود فتبادل الركاب تحية الوداع وفصل سارتيلي وشاتوبرن عن العربة تاركين النوني في مكانهِ على الحال التي التزمها في رفقتها اثناء

الطريق

ثم دعا السائق احد الغلمان الواقفين في خدمة الرباط وقال لهُ

— سر يا يوحنا في خدمة هذين الكريمين الى المون سان ميشال

فاجابهُ الغلام — لا يسعني ان اسير بخدمتهما الليلة والبحر ثائر

— لا باس تقدم وتعاقد معهما فستلقى من جودهما ما يسرك

ولما لم يبق على السائق من امر يطالب بهِ لدى الراكبين ودعهما وسار قرير العين مسرورًا بنوالهما بعد ان طلب اليهما النجدة لدى الحكومة اذا سألتهُ تقرير حقيقة ما جرى مع الركب اثناء الطريق

فاستانف البريد سيره الى بونتورسون وقد غادر الملازم والفيكونت عند الرباط والى جانبهما الغلام ينظر اليهما نظر الحائر

فسال شانوبرون زميلهُ قائلاً — قل لي يا صاح اين استقرَّ بنا النوى

فاجابهُ الدليل — انكما في محل يدعى بواشيكو

— أ في قرية نحن ام في بادية

— كلاَّ انكما على مسافة نصف ساعة من القرية

— وما هذا البناء الذي يبدو لنا في هذا المكان

— هو قصر

— فهلمَّ بنا اذن اليهِ نتعرف باهلهِ فننزل عندهم الليلة

— لا ياوي اليهِ في الشتاء الاَّ بستاني يعني بحدائقهِ

— فدونا اذن محلاًّ آخر فهل يشط عنا المون سان ميشال

— اما على مسافة ساعة ونصف من الفرضة وعلى مسافة ساعة منها الى الموضع المقصود

— ما لنا الآن وللسوال عن المسافة فقل لنا متى يكون المد

— نحو السابعة وموعدنا بهِ الليلة

— ومتى تجزر مياه البحر

— لا يستطيع ان يصحبكما احدٌ الى المون سان ميشال قبل الصباح

— متى يكون سفرنا غدًا

— اننا نبلغ الفرضة صباحًا فنقف عندها الى ان ياتي الجزر فنجوز العباب الى المحل المقصود فنبلغهُ عند الظهيرة

فسالهُ الملازم قائلاً — هل ناتي مطعمًا او نزلاً عند الفرضة

فضحك الغلام واجاب بعد امعان الفكرة

— ليس الاَّ مستودع البضاعة وادارة المكس

— فبالله اهدنا اليهِ الليلة ولك منا دينار

فغرَّ الغلام النوال ولكن ما لبث ان تردد في اجابة السوال فقال

— ليس لي من استخلفهُ على مأ واي فضلاً عن ذلك يتعذر علينا ان نجتاز المسافة والليلة حالكة الاديم والسبيل وعرٌ ضيق المسالك

— أتخشى السراء وانت فتى حاذق نشيط فسر بنا اليهِ ولا تبالِ فانني استخلف من مالي على كنك من يرعاه الى ان تعود

فما زالا بهِ حتى اذهبا بنوالهما من فوادهِ كل خوف وابطلا بوضوحهِ كل عذر فعيد الغلام الى الاسقاط فاحتملها الى بيتهِ

فقال شاتوبرن الى صديقهِ — ما رأيت يا اخي في ما دبرت

— خير رأي فلنلبث اذن الليلة على الفرضة وغدًا نقصد طومبلان فننقلب عنها قبل المدّ

— احسنت فدونا المسير للحال دون تاخير وما اخال دي نوريف قد تقدمنا بعيدًا

فسار الدليل يتبعهُ الملازم والفيكونت تحت درع الظلماء في طريق احدق بها السنديان وما تقدما قليلاً حتى شعر الملازم انهُ يطأ بوغاء لان اقدامهُ كانت تغور في الارض وقبل ان يشكو من انزعاجهِ عثر رفيقهُ بحجر وسط الطريق فصاح شاتوبرن عندئذٍ بالدليل

— ويحك يا فتى ما هذا الطريق الذي اخذت بنا نخبط فيهِ خبط عشواء وعلى ما ارى اننا قد تهنا السبيل وحدنا عن الطريق الذي يفضي بنا الى الغاية

— ليس غير السبيل الذي سلكناه الى المون سان ميشال . ولا تهم يا مولاي في وعره وصعوبة السلوك فيهِ فان المطر الذي هطل في هذه الايام قبل ان يوثر اضرَّ بهِ فعطلهُ

فاعترضهُ سارتيلي بقولهِ مخاطبًا صديقهُ — لا تعجبنَّ من وعر الطريق الى بريطانيا فذلك معروف في هذه الجهات ولا سيما في الشتاء

— لكن يا اخي اخشى ان نبقى على الطريق اذا طال بنا المطال على هذه الحال

— لا ريب ان دي نوريف يكون قد تقدمنا فبلغهُ الآن

— ما اخالهُ فاز بهذه البوغاء بل ربما لقي من العناء ما لقينا فوهى فيها

— تلك ظنون لا استنيم اليها بل ارى الجد في السير بنا اولى

لا عجب اذا اجهد سارتيلي وشاتوبرن السير في ذلك التيه ليلاً وهما من باريس لم تطأ اقدامهما وعرًا اعضل بالعقبات مثل الطريق الذي سلكاه ولا سيما عندما توغلا في تلك المسالك بين البساتين

ان اكار بريطانيا ونورمانديا كان قد آلف ان يبني حول بساتينهِ سورًا من حجر يعلوه اشجار باسقة فيجعل في اصول تلك الاشجار شيئًا من العوسج يمنع اعتداء السابلة وكان يتخلل تلك الاسوار طرق حرجة لسير العجلات الصغيرة فقط ففي الشتاء كانت تتحول تلك المضائق الى مستنقعات يتعذر السير فيها . فادرك الملازم العي وما عتم ان باح بهِ قائلاً

— ويحك يا غبي الى مَ تلج في السير بنا على طريق لم تطأها قدم انسان

— وهل من سبيل غيره الى المون سان ميشال

فهمس سارتيلي في اذن رفيقهِ قائلاً — لا تعذل الغلام فيغادرنا وسط الطريق

— صدقت ولكن ما الوسيلة للنجاة من هذه الورطة الوبيلة فقد غدونا الآن في مضيق لا نامن فيهِ شر الكوارث

— من الراي ان نعدل عن هذا السبيل الى التوغل في البساتين عسانا ان ننجح

— احسنت فهيا بنا يا غلام في الطريق الذي اشار اليهِ صديقي توصلاً الى الفرضة

— اخاف يا مولاي التيه ليلاً

فقال لهُ سارتيلي — تقدم ولا تخف باساً فاني اجزل لك النوال

— لم انكر يا مولاي السير طمعاً بالنعمة ولكن اخاف ان يلمّ بكما ضرٌّ فاؤخذ بهِ

— بالله لا تتردد وما اخال تلك العقبات التي تهابها شرًّا من التي لقيناها فسر بنا حيث شئت شرط ان نتملص من هذه الموبقة

— فاصبرا اذن هنا لاتقدم فاخبر الطريق قبل ان ناخذ بهِ

فتوارى الغلام عنهما يسعى في نهج سبيل اوضح من الذي انتهجهُ قبلاً

فقال الملازم لرفيقهِ — اخاف ان يغادرنا حيث وقفنا فيلتوي علينا الامر فنجلب على نفسنا الضرر من حيث رجونا الخير

— لا تجزع فان المال الذي وعدتهُ بهِ يقيدهُ بخدمتنا وقلما يغنم اهل هذه الضواحي مثل العطاء الذي سمحت بهِ شهرهم كلهُ

فما كاد يتم سارتيلي حديثهُ حتى عاد الغلام وفي فيهِ غصن النجاة يدعو الراكبين الى السير معهُ على طريق اكتشفها وسط البساتين

ولكن لم يكن ذلك الطريق اقل وعرًا من الذي هجراه لما اعترض فيهِ من النجوات والمستنقعات التي ذهبت بقوى المدلجين صعودًا وهبوطًا الى ان ضاق شاتوبرن ذرعًا عن السير فصاح غضباناً

— لله ما هذه البلية يا اخي فلا ريب ان دليلنا قد تاه هداه

فشق على سارتيلي غضب الملازم وعناه في مسئلة كان عنها في غنى لولا انه كان شديد العناية بامره وحريصاً على نجاحه فنبه الغلام قائلاً

— اين نحن الان من مسيرنا

— انّا صرنا على مقربةٍ من الفرضة ولكن اخشى ان نكون قد تعدينا ادارة المكس في ادلاجنا

ثم دنا سارتيلي من الملازم فاخذ يلاطفهُ ويؤانسهُ طالبًا اليهِ ان يهجر الحدة عند انس الشدة وقد انتهيا منها الى حد الفوز بالامنية لان الاشجار التي لاحت لديهما كانت تشير الى قرب وصولهما الى البحر وما فرغ الفيكونت من حديثهِ حتى صاح مسرورًا

— ابصرت في الحي نورًا

— فلنقصدنَّ مناره

فنهجا اليهِ يتبعهما الدليل حزينًا من خيبتهِ وقبل ان يبلغاه ابصرا عن بعد رجالاً ينهزأون حولهُ وسط تلك الظلماء فقال شاتوبرن مذهولاً

— لقد كذبتني عيني فما ذلك النور الاَّ نار تضطرم لكن ما يصنع الناس حولها

— لا اتبين من شغلهم شيئًا

— فما لاحت النار لعيني الدليل حتى استضاء جبينهُ واستهل بشرًا فسالهُ شاتوبرن — ما تلك النار يا غلام

— مولاي ان المكان المضيء مملحة ياوي اليها رجال الفرضة فيصطنعون الملح فيها

— الحمد لله الذي هدانا الماوى

— حمدًا استفيض بهِ في السير والمثوى

فقال سارتيلي — ترى هل نجد عندهم محلاً ياوينا الليلة

— نعم يا سيدي فانزلا على الرحب والسعة

فدخل المسافران ذلك المصنع فالقيا التحية على اهلهِ وجلسا بينهم فابصر شاتوبرن في جملة الجمع جنديًا ولعلهُ كان وليًا من قبل ادارة المكس فدنا منهُ وكشف لهُ نفسهُ فلاطفهُ الجندي وقربهُ منهُ ثم طلب اليهِ ان يشرح هواه وقصده في الزيارة

فاجابه الملازم — ليس غير التجوّل في هذه الضواحي ولكن اتمنى عليك ان تساعدنا عند اصحابك فتهيء لنا زاد الليلة

— اني لاسف جدًا من عجزي عن اجابة سو لك وما ذاك الّا لان اهل المنزل من البائسين الذين لا يملكون جرعة وليس لهم ما يسترهم دون الروافد ولا ما يتوسدونهُ دون الصعيد

— بالله يا صاح فقد فتك بنا الجوع والعياء فمن لنا بقوت ليلتنا لقاء ما يبغي من المال

— هل تقصدون المون سان ميشال

— نعم غدًا بعد المدّ فاذا كان لديك من يهدينا السبيل اوليناه المال بعد شكرك الجزيل

— فلاً نعم يا صاح ان ابغي بما عندي من الزاد كفاء ايام عطلتي بدلاً ولكنني افعل ذلك اجتناب الملام في صدّ الكرام

— بارك الله فيك يا خير نصير

ثم دعا الجندي الغلام وقال لهُ — اذهب الى كي القائم على مئة خطوة من هنا فاطلب الى رفيقي ان ياتي بما لديهِ من الزاد والدُر

فلبى الغلام الامر على عجل ثم استانف الجندي حديثهُ مع الملازم فقال لهُ

— ارجوك ان تصفح عن قصوري في القليل الذي اقدمهُ بين يديك ولكن ربّ قليل خير من العدم لاسيما اذا دعت الحاجة اليهِ

فلما سمع سارتيلي الجالس جانبًا خطاب الجندي رأى من الواجب ان يتقدم اليهِ بالشكر عما اصابهُ من فضلهِ وهجس في بالهِ ايضًا ان يستنبط من صدره

بعض العلم بما فيهِ نفعهُ فقال بعد السلام

— ترى أنبلغ ايها المضياف المون سان ميشال وطومبلان صباح الغد باكرًا

— اما الى المون فالسبيل سهل اذا انجزرت المياه اما الوصول الى طومبلان فممتنع عليكما في مثل هذا الابان

— ما المانع من ذلك

— نهران عظيمان يتعذر على الراكب فيهما الاجتياز لطغيانهما في هذه الايام ولا سيما ان المضاحل بين المون سان ميشال وطومبلان كثيرة الرمال تغوّر فيها الاقدام

فاعترضهُ الملازم بقولهِ — انني كثيرًا ما جزت المضاحل آمنًا اخطارها

فرد الجندي عليهِ قولهُ معترضًا — لا خفاك يا مولاي ان الاضحال تتباين كل المباينة في هذين النهرين اللذين ذكرت فلما ينجو راكبهما من الخطر

فقال سارتيلي — لا بد لنا يا اخي من الشخوص غدًا في خلال المدّ الى طومبلان

فاندهل الجندي من توطيد عزمهِ فقال لهُ — وما الغاية من شخوصكما الى تلك الصماء الجرداء وليس من ياوي اليها الاّ الارانب

فسرّ الملازم باعتراض الجندي عليهما بطريقة أنمت بريبهِ وظنونهِ واباتت لهُ وجه التنصل من مراميها فاخذ الصيد حيلة يكفر بها حقيقة غرضهِ فاجاب

— ليس الاّ ما اوضحت غرضًا لشخوصنا الى تلك الناحية فانا قد سمعنا في باريس عن كثرة الارانب فيها فجئنا نتاكد الخبر بالخبر

— اذا كان لا بد من الذهاب الى الموضع فانا رفيقكما غدًا اليهِ وكفاكما باختباري دليلاً حاذقًا فضلاً عن ذلك انني قد عرفت صاحب الموضع فسمعتهُ يكاشف الناس في مواجرتهِ فما ضربا لو اجبنا طلبهُ فاستاجرناه الى حين

فاجابهُ سارتيلي — لا ننكر رأيك بل نعتمد عليهِ شاكرين ما اصطنعت

عندنا من الجميل في كل حال

ففي اثناء هذه المناظرة عاد الغلام وحده وبيده قفة الزاد والدثر فالقاها عنهُ واعتذر للجندي عن امتناع رفيقهِ من الحضور معهُ فجلس الملازم وسارتيلي على الطعام يلتهمانهِ بكل لذة لما بلغ منهما الجوع . وبينا هما على المائدة اخذ شاتوبرن يسرد ما مرَّ بهِ من الحوادث الغريبة ايام حرب افريقيا ويدل بما عنده من الاساليب والحيل في اقتناص الطريدة

فقال الجندي — اني لاعجب من كلف الباريسيين في القنص واراهم قد هووا كلهم التعاسة في هذه النواحي

— هل مرَّ بك ركب قبلنا

— قد مرَّ بي هذا الصباح باريسي لديهِ خادم فاتصل بي من سائق العربة التي اكتراها في بونتورسون انهُ من المثرين وقد افعم جيوب من أمهُ مالاً

فخفق فؤاد سارتيلي جزعًا حتى خانهُ الكلام

فسالهُ شاتوبرن قائلاً — من تراه ذلك الرجل . اما مجمتهُ عينك

— ان الرجل صحيح البنية اهدف الى الستين اما الغلام فمراهق

— متى كان اوان سفرهما الى المون سان ميشال

— نحو العاشرة

— ألم يعودا منهُ

— كلاَّ وقد تاكدت ذلك من نفسي لانني لبثت امس بياض النهار في مرقبتي دون ان ابصره

فهمس سارتيلي في اذن الملازم قائلاً — لنخرج قليلاً خارجًا لان انفاسي قد تصرمت

فخرجا سواء ولما بلغا السد قال شاتوبرن لرفيقه — اتخال الرجل الذي رآه الجندي دي نوريف

— وما اراك ترد عليَّ ظني فيهِ .

— هب انه دي نوريف فاننا نفاجئة في مكانهِ فتزهق روحه

— صه ان خيالاً يهوي الينا

وكان الجندي قد وافاها الى السد فقال — لو سرحتما الانظار نهارًا في هذه الجهات لابصرتما المون وطومبلان على مسافة قريبة من هنا ولكن دون الوصول اليها مشاق واهوال

فما كاد يتم الجندي بيانه حتى ابدى عجبًا من حادث طرأ فسالهُ الملازم

— ما بالك دهشت يا صاح وعما تعجب

— لقد ابصرت شيئًا لم ابصره حياتي كلها . ان نارًا تضطرم على طومبلان

فهجس الملازم في ضميرهِ قائلاً — لا ريب انهما قد بلغا الموضع فاقاما فيهِ

فقال سارتيلي — ويلاه لم يبق في الكنانة من سهم نرمي بهِ عدونا

فاستانف الجندي عجبهُ قائلاً — كلاَّ ما رأيت اثناء خدمتي في خطتي نارًا تتقد في طومبلان قبل الآن لان الموضع عراء لا يصلح للمبيت

فقال شاتوبرن — لا بد من يد تصلي هذه النار

— لا ريب في كلامك

— فلربما كانوا لصوصًا قد اتخذوا الليل مجنًا يسترون بهِ فعلتهم

— وهذا سبب آخر يقضي عليَّ برفقتكما غدًا

— لكن بدا لي فكرٌ آخر يبطل الاول وهو ان من كان ناقبًا لا يجعل النار على منار

— انني اخالهم قد قدموا على سفينة خاصة مشحونة بالبضاعة فالقوها على طومبلان حيث اقاموا ينتظرون المد لنقلها الى البر

— اين يودعون البضاعة وقد قلت ان الجزيرة جرداء

— لقد كلفتماني ان ابوح بسر كتمتهُ الناس حتى اليوم فاعلما ان في الجزيرة اسرابًا جعلها قسيسو دير المون سان ميشال دفائن

— هل تفقدت تلك الاسراب

— لم انعهدها من قبل ولكن غدًا احيط علمًا بما فيها فلعلنا نصيب منهـا حظنا من المال الذي استنبطه اولئك اللصوص

فقال الملازم ملاطفًا الجندي — ونحن لك اعوان نجدك على الفوز بمرادك فلنذهب الان نلتمس الراحة حتى الصباح

فتقدم كلهم الى المطحة وفي نفوسهم من مشاغل الغد آمال فنام الملازم والجندي بكل سكينة . اما الفيكونت فابت عيناه الغمض الى ان لاح الصباح فايقظ رفيقه والجندي فاديا ما عليهما من حقوق الضيافة مالاً وشكرًا وسارا جهة السدّ حيث اقاما ينتظران عود الجندي الذي تخلف عنهما قليلاً ليستخلف آخر على كوخه . ولما التأم جمعهم واجمع رأيهم على السفر قال الجندي

— ارى ان نقصد اولاً الموں سان ميشال فنتفقد ما وعى من الآثار البديعة فنتبطن ثم الارض ونجول في عرضها منعمين الانظار بحسن تلك الابنية التي افرغت الصناعة في اتقانها غاية الجهد

فاجابه شاتوبرن — ارجوك ان ترجىء هذه الزيارة الى حين فنبدأ أولاً بزيارة طومبلان ثم نعوج على المون وهناك نختار مقيلاً

— اصبت يا سيدي فانه اذا ادركنا المد امتنع علينا العود الى هنا واذا صادفنا في المون محلاً نأوي اليه ذلك خير لنا من ان نبيت على صخور طومبلان الجرداء

— ألا تريد مطاردة اللصوص

وهنا خفق قلب سارتيلي جزعًا بروم الاطلاع على سر الجندي من جوابه وهذا مؤداه

— لا بد ان التقي بهم عند عودتهم الى البر ولكن ما أهذا الزورق الذي اراه بعيدًا في عرض البحر فلا ريب انه زورق اللصوص وقد اتخذ في جريه طريق جرسي وهو الذي قدموا منه

فدفع اليه شاتوبرن نظارته وقال — حدّق ياصاح جيدًا بركاب الزورق

ونبئني بحالهم قبل ان تقبل عليهم

وعندما صوّب الجندي نظارتهُ الى جهة الزورق قال — انني ارى رجلاً وسط الزورق يجد في التقرب من طومبلان فيدفعهُ المدّ وما اخالهُ يقوى على الدنو من غرضهِ

— من اين آتٍ

— يتعذر عليّ ان اقطع بذلك ولكن الظن الراجح يدلني على انهُ قادم من بونتورسون

فنظر اذ ذاك شانوبرن الى سارتيلي وقال

— ان الرجل هو رفيقنا في السفر

وكان الجندي اثناء مبادلة الراكبين النظر يتنقل بلحظهِ بين الزورق وطومبلان فقال

— ها انني ارى لصين واقفين على مرآة صماء يشيران بمنديليهما الى صاحب الزورق

فداخل شانوبرن وسارتيلي القلق مخافة ان يذهب عناؤهما سدًى فقال الملازم للجندي

— اخشى يا صاح ان يحبط سعيك في ادراك غرضك من اللصوص وقد جاءتهم النجدة

— لا تخف فان البوني لا يستطيع ان يدنو بزورقهِ من البر ولو صرف كل الجهد واستنفذ غاية الوسع فلا بد اخيرًا من ان يتيه بهِ في عرض البحر فيغادر اللصوص في طومبلان حيث اقبض عليهم غنيمة باردة .

فقال الملازم — هيا بنا اذن نبلغ المكان

فاعترضهُ الجندي قائلاً — دعني اذهب فاستاذن رئيسي في السفر

— خلِّ عنك التاخير ولا تخش الملام فانني التمس عنك عذرًا لديهِ عند عودتنا ظافرين بالسلب

وهبَّ يعدو مع رفيقهِ على الرمل بريدان اجتياز المسافة بسرعة الطائر

الفصل الخامس عشر

الغبيط

ان طريق طومبلان كانت تقضي على الشاخص اليها ان يلتزم في سيره شاطىء البحر المرمل والكثير الاخطار لان الغبيط يتوعده بالسقوط خطوة بعد خطوة . فلما ابصر الجندي سرعة جري رفيقهِ على تلك الخطة اشفق من الوقوع فاعترضها قائلاً

— خففا السير واتئدا فان الرمل يستر حفائر لا ينجو منها الانسان اذا مني بالسقوط فيها

— لئن مشينا بضراء فغايتنا الوصول قريباً الى طومبلان

— وللوصول اليها طريق يقتضي علينا الاهتداء اليهِ

— فلمَ لا نسعى دون ادراكهِ

— اننا نبغيهِ بالتؤدة حذر الوقوع في المهاوي التي يجهلها سيدي في سبيل غرضهِ لا سيما عند تجاوز المد حده في هذه الايام

فقال سارتيلي — لقد علمنا باوانهِ فلا نبالي بهِ

— صدقت ولكن اخاف ان تظللنا الغمامة فتغشي على ابصارنا فنهوي في الغبيط ونحن عنهُ غافلون . وما ارويهِ كان شاهد العيان

— ذلك ما يدعونا الى الاسراع في طريقنا

— لا انكر وجوب السرعة ولكن فلندع الآخرين يتقدموننا فنجري على قدمهم

— ومن تعني بالآخرين

— اريد بذلك القناصين الذين آلفوا انتياب هذه الضواحي وقد تقدمنا منهم اثنان يقصدان طومبلان فلنقتفِ السير على اقدامهم

— ولكن اخاف ان يمعن اللصوص في الفرار قبل ان نصل اليهم على الخطة التي ازمعنا نهجها

— لا يستطيعون ركوب البحر ولو اتفقوا كل حيلة

ان ما رواه الجندي عن اخطار الطريق وما كشفهُ لشانوبرن وسارتيلي عن المصاعب التي تعترض دون فرار اللصوص بحرًا كان صحيحًا لا ريبة فيهِ وقد تأكد لهم ذلك مرأى العين فان الزورق الذي قدم بهِ الدوني الى جهة طومبلان لنقل اللصوص عليهِ لم يتيسر لهُ سبيل الدنو من الجزيرة فانقلب راجعًا تتلاعب بهِ الامواج ولا تلاعب الارياح بالريشة . فاشتدت اذ ذاك رغبة الركب في السير على غير سير وهما يحدقان في تلك الصماء التي اخذت تتعاظم في عينيهما كلما تقدما في الطريق الى ان بدا لهما ظاهر الجزيرة وما عليها من الآثار بكل وضوح لكنهما لم يبصرا اثر اولئك اللصوص الذين كانوا يخطرون فيها . فتبادلا النظر خلسة وقد عمَّ صدرهما الحرج والقلق فما زالا يتقدمان في السير الى ان ارتد البحر عن نفناف الجزيرة وبان الرمل المتراكم حولها يعلوهِ بعض الصيادين المنتشرين في تلك النواحي

فقال الجندي — ها ان الصيادين قد كشفوا لنا عن المحل فلنتتبع آثارهم

فتلاه شانوبرن بقولهِ — سيروا بنا سيرًا سريعًا لندرك غايتنا عندهم فيبلغ صاحبنا غرضهُ من القدوم معنا قبل ان يركن اللصوص الى الهزيمة

ان الرغبة التي كانت تحدو الراكبين كدًّا الى غرضهما الخفي لم تنعل في

نفس الجندي لخوفهِ من المهاوي التي تعترضهُ في الطريق فطلب اليهما ان يتبعاه فيجريا على خطواتهِ وما زالوا سائرين سير الحذر الخائف الى ان بلغوا ضفاف نهر صغير تمتزج ماؤهُ بالبحر فقضي عليهم ان يجتازوه وكان قعر ذلك النهر موبقًا لكثرة الغيط فيه فاقتحم الجندي السير فيهِ منقبًا بعصاه وهما يتبعانهِ الى ان جاز بهما الماء دون الخطر فعندئذٍ صاح مسرورًا

ــ لقد فاتنا بعون الله الخطر وامنا الحذر فدونكما الاسراع الى طومبلان ،

فما كاد يتم نداه حتى فرّ ساوتيلي يتقدمهما الى تلك الجزيرة الشماء فتسلق على الصخور المحدقة بها وفي اثره رفيقاه الى ان استووا على صخرة عالية يطل منها على ظاهر الجزيرة فبعثوا الانظار تنقب في تلك السهول فلم تقف على اثر البغاة وابصروا ذلك الزورق تديره المياه على هواها دون ان يستقر من اضطرابها على حال

فقال الجندي ــ عجباه مالي لا ارى اثرًا لاولئك اللصوص

ــ ألا تنظر الزورق في انتظارهم

ــ لا ريب انهم لم يزالوا منتشرين على هذه الجرداء

ــ بل قل كامنين وقد علمت يقينًا ان في الجزيرة نقبًا

ــ لكن ما السبيل اليهم وقد اتخذوا شقوق الارض لهم مأوى

ــ علينا بالبحث والتنقيب

وكان الفيكونت في اثناء هذا الجدال يتقدم برفيقيهِ نحو الجزيرة وهو يكرر همسًا ما حفظهُ عن الجلد السابع من ذلك التاريخ وهو:

«ان مدخل النقب عند العلامة الحادية عشرة الواقعة نتاق الجبل»

فيهوي الى الارض باحثًا عنها . وبينا هو ينقب لاح للملازم اثر بيّن على ظاهر الصخر فاشار لزميلهِ عنهُ فسر الفيكونت بتلك الهداية وبشر نفسهُ ببلوغ الوطر . لكنّ الجندي عندما ابصرها يهويان الى الارض فينقبان في شقوق

الصخور اعتقد فيها انها من روام الآثار الى ان اومى اليهِ الملازم فدنا منهُ فاذا هو ينتزع امامهُ الشوك المعقود على مدخل درج ثم قال لهُ شاتوبرن

— هوذا النقب

وحاول الانحدار منهُ دون مهل فاعترضهُ الجندي قائلاً

— مهلاً يا سيدي لا تقتحم النزول اليهِ فاخاف ان يلقاك اللصوص فيهِ

— حبذا اللقاء

— بالله يا سيدي لا تفعل ودعني اقابلها بغداريني وحسامي

فانثنى الملازم على شجاعتهِ واقدامهِ واصرَّ على الانحدار قبلهُ لكنَّ سارتيلي أبى الاَّ ان يتقدم الاثنين فابعدها عن المدخل وتقدم . فقال لهُ شاتوبرن

— انني لا اصدف عن النزول في مقدمتنا ولكن لا ارى من الحكمة ان تنزل قبل ان نتهيأ لملاقاة الخطر بما لدينا من اسباب الدفاع . فهل عندكم نور

فاجابهُ الجندي — نعم يا سيدي لديَّ مصباح اجري على ضوءه ليلاً في خدمتي

فقال لهُ شاتوبرن — اجزل الله خيرك فاعلم انني سابلغ الوزير ما شهدتهُ فيك من البسالة والاقدام فاطلب اليهِ ان يرقيك الى ما انت جدير بهِ

فقال سارتيلي — عليَّ بالنور عجلاً لاتبين الدرج

فتلاه شاتوبرن قائلاً — فلننظم حملتنا يا اخي قبل الهجوم فكن في مقدمتنا وانتضِ الحسام بالواحدة وخذ المصباح بالاخرى وانا اسير وراءكم لكن اين الغدارة فهل هي محشوة

فاجابهُ الجندي — نعم يا سيدي منذ الصباح

فعندئذٍ شرح شاتوبرن لرفيقهِ طريقة الهجوم والوثوب على اللصوص اذا قدّر فكانوا لم يزالوا كامنين في زوايا النقب فانحدر سارتيلي في طليعتهم على ذلك الدرج الضيق بين الاشواك التي لاح لهُ من النظر اليها انها قد انفرجت حديثًا فتكسرت تحت اقدام الداخلين الى النقب . فاعترض الجندي سكوتهم

بهذا الكلام

— انني لم اعهد بهذا النقب من قبل ولذا تراني الآن في عجب مما يفعل هولاء الاشقياء

فقال له شاتوبرن — صه يا صاح فقد بلغنا اسفل الدرج

ان اصحاب الغارة لم يلبثوا ان دخلوا النقب وكان منحوتاً في صخر متبلور تبرق صفحاته بانعكاس اشعة المصباح عليها فتقدموا على هذا النور منقبين في انحائه تارة يقفون علهم يختلسون حركة تنم بالكامنين وتارة اخرى يهوون الى الارض ليتحققوا اثار خطواتهم فما زالوا على هذه الحال الى ان تاكد الملازم ان النقب يخترق عرض الجزيرة كلها فاسف وقال

— اعلموا يا اخوان انه لا بد ان يكون الاشقياء قد سمعوا رجع اقدامنا وهمسنا فولوا هاربين . ثم استانف السير حتى افضى به الى غرفة حرجة حيث اتخذها ذلك الدبر الذي ذكرنامطمورة لثروته فرفع الجندي المصباح فابصروا جدراناً غير نافذة فتاوّه سارتيلي وتاسف

فصاح الملازم — لقد ابطأنا في الهجوم الى ان ركن اللصوص الى الهزيمة

— ولكن أنّى لهم ان يفروا ولا ارى مخرجاً في النقب كله

— انهم خرجوا من حيث اتوا بعد اذ كنا قد توغلنا في مسيرنا داخل هذا السرداب الطويل

— ربما صح برهانك ولكن لا اقطع بعدهم من الجزيرة لامتناع السبيل عليهم فلا بد ان ندهمهم فنبطش بهم

اما سارتيلي فكان قلقاً كئيباً لا يحلو له الكلام لا سيما عندما تغلل خفية بشاتوبرن في وسط تلك المطمورة فاراه الموضع الذي انتزع منه الكنز فقطع السالب بآماله وآمال حنة خطيبته

فحزن الملازم جداً لحبوط آمال صديقه فحاول ان يسكن ثائرة همه وبينا هما في همّ من الخيبة دعاهما الجندي اليه وآلى على نفسه ان لا يبرح من تلك

الجهة قبل ان ياتي بالخصم ثم صعد بهم الى خارج النقب فاعتلى مربأة وسط الجزيرة وهناك اخذ يرسل انظاره باحثًا في ارجائها علهُ يعثر على اثرهم فلم ينجح ولم يكن الّا القليل حتى انتشر الضباب على جهة المون سان ميشال فغشى على ابصارهم وحجب عنهم مشهد تلك الناحية فقصر نظرهم على مرأى ذلك الزورق المضطرب على متن العباب . ولما كان البحر قد اخذ يتعاظم شيئًا فشيئًا وكانت قد باتت حيلتهم دون جدوى رأى الجندي ان يزايل المكان فدعاهم اليهِ قائلاً

— هلموا بنا الآن الى العود من حيث جئنا قبل ان يمتنع علينا الخروج من هذه الجزيرة . فتقدم قليلاً ثم وقف وقفة من يريد ان يزود المكان الذي آلفهُ نظرة قبل الانفصال عنهُ فبعث الحاظهُ الى ضفاف النهر رسلاً ترتاد الاخبار فما طال بهِ الوقوف حتى اشار بيده الى رفيقيهِ وقال مدهوشًا . بشراي لقد ادركت كبد الغرض

فسالهُ الملازم قائلاً — بالله فاين استقر بهم الفرار

— انهم على بعد خمسمائة باع من هنا

— ربما كانوا صيادين

— كلاً فان الصيادين لا يعرضون انفسهم للخطر في اليم وقد انصرفوا قبلاً ومما يثبت عندي انهم لصوص تقدمهم وجهة الزورق

لقد اصاب الجندي في ما رآه لان النوتي الذي كان في انتظارهم اخذ عندما رآهم يتقدمون اليهِ بموافاتهم على رغم معاندة الماء

فاستانف الجندي كلامهُ قائلاً — ولا عجب اذا كانوا قد بلغوا الموضع الذي رأيناهم عنده فان هولاء اللصوص امعنوا في الفرار بعد اذ تغللنا في النقب

وليزداد شانوبرن تاكيدًا في ما رآه الجندي صوّب نظارتهُ الى ناحية البحر فاعترضهُ الجندي بقولهِ

— خلِّ عنك النظارة فلا حاجة لي اليهـا في تبيانهم فها انني ارى رجلاً

يمشي معتمداً على عصاه وفي اثره فتى قد ابهظ ظهره الثقل

فصاح عندئذٍ شاتوبرن وقال — لا ريب ان ذلك الثقل هو الصندوق فهلموا بنا اليهم لنلقي القبض عليهم

وانحدر مسرعاً يعدو على غير هدى يريد اقتصاص اثرهم

فاعترضهُ الجندي قائلاً — مهلاً يا سيدي لا تعجل في السير فان البحر باخطاره يحول دون الوصول الى مناك

اما سارتيلي وشاتوبرن فلم يعبأا بتحظيره وتحذيره وجدّا في طريقهما فلم يسع الجندي حينئذٍ التخلف عنهما عند اشتداد الخطب فاخذتهُ الشفقة عليهما وراح يعدو وراءهما الى ان ادركهما على مسافة قريبة من السالبين وهم في حيرة من السير على تلك البوغاء التي غارت اقدامهما فيها

ولما كان اللص لا يأمن شر من اصابهُ فيكثر حذره وخوفهُ منهُ كان الفارين كلما تقدما خطوة تفضا الارض الى ان تبينا اخيراً من سرعة عدو سارتيلي وزميله انهما في خطر من اللحاق فاومى الكبير الى الصغير ان عجل بالسير ولكن أنى لذلك الفتى ان يجدّ في حملهِ على تلك الرمال فكان يضطر ان يقف قليلاً ليتنفس الصعداء . وبينا هما على تلك الحال ثارت نار الغضب في راس سارتيلي فاخذ الغدارة من الجندي فحشاها واراد ان يستهدف بها اللصوص فاعترضهُ الجندي فردّ شاتورن اعتراضهُ عليهِ بقولهِ لهُ . دعهُ يفعل ثم نظر الى سارتيلي وقال

— اطلق على دي نوريف غدارتك ولا تخف واشفِ نفسنا من شرّ ما سامها منذ شهر وانا القي القبض على سائقك فانتزع منهُ الصندوق

فقبل ان يطلق سارتيلي النار سمع انيناً يصعد من جهة الضفة المحاذية فاوقفهُ عند ذلك الجندي عن اطلاق النار وقال لهُ

— ما الفائدة من النار فقد تقدمتكما اليهِ المنية

ان ذلك الرجل الذي رأيناه يتقدم الفتى كان قد هوى في الغبيط فتخللت

اقدامة على مسافة عشرين خطوة من سارتيلي ورفيقيهِ فحاول التملص من المكة فلم يستطع فأنَّ يئسًا يتململ من شدتهِ كالنضناض

فلما ابصره سارتيلي ورفيقة على هذه الحال اخذتهما الحيرة واستولى عليهما الذهول لجهلهما بالسبب الذي ثبطهُ في مكانهِ . فلم يخفَ امرها على الجندي فقال

— لا تعجبا مما بدا لكما من حال الرجل فانهُ قد ساقهُ القدر الى الغبيط فلجَّ فيهِ

وكان الرجل يصيح مستجيرًا برفيقهِ طوبيا ولكن ليس من يسمع ولا من يدفع لان سائق سارتيلي الغادر كان قد امعن في الفرار متجهًا جهة الزورق بما كان على ظهره . اما دي نوريف فكان يزداد توغلاً في الغبيط كلما حاول النجاة منهُ الى ان علا الرمل حتى النطاق فاستنجد الله لاوَّل مرة في حياتهِ ثم رفع الحاظهُ الى جهة اخصامهِ وقال

— بعمرك يا ادمون لا تتقاعد عن نجاتي وانت قادر . اتوسل اليك بجامعة الحب بينك وبين حنة ان تصد عني غارات المنون . ولك مني اجرٌ غير ممنون . بالله انجدني وخذ ما لديَّ من المال . يا سيدي خذ بيدي قبل ان تطبقني الرمال

فلما سمع سارتيلي هتافهُ ونداه . أوى لحالهِ ورثا لبلواه . فهمَّ ان ينقذه فاعترضهُ الجندي قائلاً

— لا تفعل يا اخي فان الخطر الذي اودى بهِ اذا دنوت منهُ لايهابك فيبقي عليك ولا تخالني ممن اصمَّ اذنهُ عن نداء الرحمة او احجم عن الدفاع عند حلول النقمة ولكن لم ابغِ نجاة من لا اعادل الآن حياتك بحياتهِ

وفي تلك الاثناء كان الرمل يعلوه شيئًا فشيئًا الى ان اطبق ساعديهِ فغمر طوقهُ وهو ما زال يصيح من فؤادٍ جريح مستصرخًا بسارتيلي هاتفًا

— رحماك يا اخي عجل بخلاصي واغفل ما جنيت بهِ عليك . لله رفقًا بي

خفف عذابي . انجدني فاكشف لك ما انطوى عليهِ صدري من الاسرار واطلعك على مقرّ روجه فادفع عن حياة حنة . ابقِ عليّ يا سارتيلي ان كنت تضن بحياتها فان بقاءها رهن بقائي وفناءها متصل بفنائي · نعم نعم ان بانصرام اجلي يهي سلك عمرها لان العدو ما برح كامنًا لها يتربص بها شرًّا . . . . او يذيقها الموت مرًّا . . . .

فما انتهى دي نوريف من حديثهِ حتى عفاه الرمل كانهُ كان في ضمير الدهر سرًّا ضاق بهِ فاودعهُ بطن الارض فشكر عندئذٍ سارتيلي ودعا · وقال ليس للانسان الّا ما سعى

وتلاه الملازم قائلاً — ان ربك لعلى الظالمين فلا يغض طرفهُ عن فعلاتهم فيأخذهم بها ولا بد ان يصيب طوبيا ما اصاب زميلهُ . فلنجد في اثره قبل ان يدهمنا الزمان فننتزع منهُ الصندوق اذ كان ذلك بالامكان

وهبا مسرعين لا يلويان على شيء فحاول الجندي الاعتراض دون المسير فابيا الّا ادراك الناد · ولما لم يجد من اتمام مقصدهما بدًّا قال عليكما اذن بالسير ناهجين نهج السفح لئلاَّ تسقطا حيث لا نجاة ولا خلاص

وبينا هما في طريقهما كان طوبيا قد شطَّ عنهما بعيدًا فوصل البحر وجاز فيهِ بعزم الركوب لكنهُ قد ضلَّ في ما بغى وغوى اذ لاح لشاتوبرن دليل حبوط املهِ في الصندوق الذي كان يطفو على الماء

فقال سارتيلي — هيا بنا يا اخي نتلافى ضياع ثروة حنة قبل ان يغمب الغسق·

فامعن الباريسيان في السير وفي اثرهما الجندي يصيح بهما الحذر كل الحذر دونكما الخطر

فلوى سارتيلي الى الوراء فرأى ضبابًا كثيفًا قد تلبد في الجو فانتشر على تلك الضواحي فحجب عن عيونهما طومبلان والمون سان ميشال والبحر بطوبيا والزورق والصندوق

فقال حينئذٍ الجندي – اربأا بنفسكما واعملا على نجاتهمـا من خطر هذه الغمامة

فسالهُ شاتوبرن قائلاً – ما العمل يا اخي وما هي النجاة

— ليس الاّ العود على الاثر الى طومبلان

— لا اسهل مما رأيت ونحن لم نزل على مقربة منها

— اسأل الله ان يسدد رأينا فيهدينا طريقها دون عارض

فقاطعهما سارتيلي الحديث بقولهِ – ما ضرنا اخواني لو سعينا في انتشال الصندوق الثمين من البحر ويقيني ان فيهِ مالاً جزيلاً

فاجابهُ الجندي – لا اثمن من حياتي فلا اعادل بها كنوز الارض كلها

فقال الملازم – انا اليك ايها الخل الامين فسر بنا على هواك وتمام مرادك

فعوّل الركب اذن بعد ضرب الراي واطالة الفكرة على العود الى طومبلان اذ لم يكن لديهم من سبيل سواها للنجاة لا سيما في مواضع غدت مكامن المنية لما فيها من المهاوي الذي تغور فيهِ اقدام السابلة تحت جنح الظلام فامسك الركب بايديهم سائرين خيفة التيه الى ان طويا شقة بعيدة في زمان يستغرق ضعف المسافة التي كانت بينها الى طومبلان

فافتتح شاتوبرن الكلام ضجرًا بقولهِ – اين غارت الجزيرة فلم نهتدِ اليها ترى أُلحقت بذي نوريف فطواها الغبيط كما طوى ذلك اللص

فاجابهُ الجندي كنت منذ خمسة دقائق املت بالدنو منها اما الآن فثبت عندي تجاوزنا عنها

— فما علينا اذن الآن نعود على الاعقاب باحثين عنها يمنة وشمالاً

— ان البحر يحول دون بحثنا

— لقد وهى جلدي وقل عزمي فصرت اهوى السقوط بين انياب المنية فرارًا من الموبقات والعقبات التي تتهدد نفسي بالهلاك في كل طرفة عين . بالله يا صاح اهدنا طريقًا امينًا وإن فاتنا الوصول الى الجزيرة فدوننا اذن البرّ

— عفوًا يا سيدي وتكرمًا . اني لم امل الحياة في هذه الدنيا وفي ظلي عيال لا نصير لهم الاَّ الله ولا من يشبع جوفهم بعده الاَّ يميني العاجزة فلا يمكنني ان اخوض هذه المواضع على غير هدًى وقد صرت الآن كالاعمى وسط الفيافي لا اعثر على دليل استرشده في طريقي الاَّ الصدفة

— اذا لم يكن الاَّ الصدفة لنا هداية فلمَ لا نتبعها ونجري عليها فسيروا اذن بنا مع المنية فلا اخاف نبالها

— ما حيلتي يا مولاي الاَّ ان اتبع خطواتكما اضطرارًا

— لكن اذا تابعنا السير على هذه الخطة فالى اين يكون المصير

— اذا ساعدنا المقدور بلغنا الشاطىء

— لا نخشى باسًا في مسيرنا على مسافة من البحر واذا قضي علينا ان ننقلب اليهِ بحكم الضلة صدنا عنهُ اضطراب الماء

— لكن من يضمن لنا تحوّل الضباب عن سمائهِ

فقاطعهما سارتولي الحديث قائلاً — اسمعا اخواني ها انني سمعت باذني نقس جرس

فقال الجندي — ان هذا الجرس ينقس من اجل هداية التائهين

فتلاه شاتو برن قائلاً — ربما كان جرس المون سان ميشال ينقس هنا كما ينقس عندنا جرس دير سان برنار ليهدي السابلة سواء السبيل فلنتبع اذن وجهة النقس كما يتبع الجندي قصف المدافع في حومة الوغى

— كلاَّ انهُ لا يمكننا ان نتجه جهة النقس فيلقانا اليم في طريقنا فلنستمر سائرين برهة على نهجنا ثم نعطف قليلاً فناخذ بمسلك يؤدي بنا الى الفرضة

— الحمد لله اذن على هدايته وشكرًا على مزيد عنايتهِ فلنتقدم مسرعين

فاستانف الركب السير هازجين من شدة الفرح بعد الضيق الى ان افضى بهم المطاف الى جانب البحر وهم عنهُ غافلون فتنبه الجندي اذ طرق اذنهُ اضطراب الموج الخفي كأن بهِ خرير ماء شلالة يخترق حجاب الضباب الكثيف

ثم اسفتْ بجانبهِ طيور الماء تزجيه قوة عنيفة . فما لبث ان صاح عندئذٍ الجندي انا على جانب البحر فالفرار الفرار محاذرة قبل ان يدركنا العباب ففرَّ الركب للحال اتقاء شرّ المياه الى ان انقشع الجو شيئاً عن جانب البر فهتف الملازم فرحاً مسروراً

— انّا قد بلغنا السد فسنشاهد تورتوني

اما الجندي فقال همساً — اين نحن من البر

ان الرمل الذي وقفوا عليهِ كان على بعد مئة خطوة من البحر العجاج وبينا هم على تلك الحال من الحيرة لا يدرون وجه الهدى صرخ الجندي فجأة صراخ من اصابتهُ السهام

فتلاه شانوبرن يصيح بهِ — تقدم يا اخي واحذر الماء

فتفرق الركب ذات اليمين وذات الشمال لان البحر كان قد بغى بينهم على الرمل يجرفهُ من تحت اقدامهم كما جرف السيل الثلج من اعالي الهضاب فهتف الجندي يئساً

— اسفاه لقد ادركنا البوار وحان التلف

فاعترضهُ الملازم بقولهِ — لا تجزع ياصاح ان من كان مثلك شديد البأس لا يهي اذا ناظره الخطر وحدّثهُ الحذر بل يتهيأ للافلات بما استطاع فهلمَّ بنا اذن نعارضهُ بالسباحة

فقال الجندي — سادتي ما الحيلة! الاّ ان نركب اليمّ فعساه ان يقذفنا الى السد حيث نلقى سبباً نعتصم بهِ

— احسنت فما رأيك يا سارتيلي في ذلك

فضغط سارتيلي على كتف الملازم وقال — عاهدني يا اخي على حفظ الوصية التي اعهد بها اليك اذا قطع بي السيل عن قضائها . عاقدني على القيام مقامي لدى حنة بما تطالبني بهِ من العهود والمواثيق

— لا اخون لك عهداً يا ادمون ولن اخفر ذمتك ولكن ما رأيت

حاجةً الى المعاهدة فتأكد بقاءك واتكل على الله وهو خير ملجأ ونصير

و بينا هما يتداولان الخطاب انقضت عليهم المياه كانها جبال فغشتهم واذهلتهم عما جرى لهم في ذلك الموقف وما زالت تدفعهم بعزمها الشديد حتى ساق الملازم حسن الجد الى اصل شجرة فاعتصم بهِ وتشبثت ايدي سارتيلي بحجرٍ كبير فامتنع بهِ مع الجندي ولما فتحوا اعينهم ابصروا انفسهم ازاء السدّ فقال الجندي

– اعتصموا اخواني باسباب النجاة التي مدّها الله لنا و باذنهِ نبلغ الخلاص

– فصاح الملازم وقد تصرّمت انفاسهُ من شدة ما عاناه : ويلاه ما الذي صدمني فالمني شديدًا

– فاجابهُ الجندي ذلك الصدوق يا سيدي وقد قبضت عليهِ

ان الصندوق الذي كان السيل قد القاه عن ظهر طوبيا جرفتهُ المياه فدفعتهُ لجهة الشاطىء

فقال سارتيلي . تبارك الله القدير المنان . وسمت احكامه . فقد جعل لنا بين المد والغبيط الفوز والنجاح فامر الغيط ان يفني الظالم خصم حنة واوحى الى المدان ياتي آل دي مانسيباك بثروتهم وذخيرة مجدهم فلهُ الحمد والشكر سرًّا وجهرًا



الفصل السادس عشر

الخيال

في ليل اليوم الثالث من الحوادث التي مرّت بنا في ساحل طومبلان كانت الفتاة حنة دي مانسيبناك ملقاة على سريرها في غرفة مضاءة نحيلة البدن ضئيلة تحالفها الهواجس وتتناوبها الحمى الشديدة فتبسط حيناً ذراعيها على غير هدى لتستجير بها من ضارب تتوهمه واونة تهذي بما لا يدرك معناه . وكان الى جانبها امرأة تحدق فيها تحديق المشفق فتستقري حركاتها بامعان ومزيد انتباه . وبينا هما على هذه الحال التي مثلما أذنت ساعة الدار فانتبهت حنة من غفلتها فنادت جوليا بصوت السقيم

فبادرت ممرضتها الى الجواب ملهوفةً وقالت — لبيكِ سيدتي عسى ان تكون الراحة قد اثرت في صحتك

— عليّ بالماء

فناولتها للحال جوليا الكأس فبردت حرّ ظماها وارتاحت قائلة . .

— اشعر بنار تضطرم في الحلقوم فيتأجج ضرمها في صدري

— عسى ان يحقق يا مولاتي امل الطبيب بشفائك القريب

— آه اخاف يا جوليا أن يكون شفائي بمنيتي

فأضربت جوليا عن الجواب على مفاد معنى حنة اليئسة وقالت : — أشد ما يكون سرور الفيكونت غداً بلقياك على فراش الراحة والعافية

— كنت أودّ ان لا يراني ادمون على هذه الحال . بل ان استقبله وانا من العافية بمكان

— اظنه يتقاعد عن القدوم طويلاً

— لقد استبطأته وموعدنا غداً فاذا تأخر عن المجيء عهدت اليكِ باستدعاء المسجل بغية ان اكاشفه بما بدالي

— مولاتي أنّى لكِ ان تنزعي الى الاعمال وقد نهاكِ الطبيب عن الاشتغال بما يذهب براحتك

— لا بأس فافعلي حسب الاشارة

ثم وجمت برهةً تخاطب ممرضتها مخاطبة الجذلان . —

— لقد اعوزتكِ الراحة فبادري الى اغتنامها فحسبكِ ما عانيتهِ من اجلي طول ليلكِ ففارقيني واستخلفي عليّ مس جورجينا

— مولاتي لا يسعها القيام بخدمتك لانزعاجها فمالك وراحتي الآن فلا يشغلنك من امرها شاغل فاني البث لديك ما نشئت دون ان تطارف عيني

فلم تحر حنة جوابًا واغمضت جفنيها بحكم الكرى فقامت عندئذٍ الممرضة وانزاحت الى غرفةٍ مجاورة يضيئها مصباح ضئيل النور ويصل بينها و بين مضجع حنة بابٌ قد رفع ستاره فجلست الصبية جانبًا وهي من الحيرة عند حد الشدة تطاير انظارها حيالها اضطرارًا دون ان تدري لاضطرابها سببًا بينًا . فاشتد عليها الجمود المنذر بخطر يفاجىء فلبثت على هذه الحال نحو الساعة الى ان طرق سمعها همس ظاهر الغرفة في الرواق فاجفلت وقامت تختلس السمع فوعت من الكلام ما فاه بهِ احد الخدام وهو —

— ان الفتاة راقدة فلا بدّ ان يكون لديها من يرعاها . واذا شئت ايها الفيكونت فادخل الى المخدع

فعند هذا الخطاب توهمت جوليا انه سارتيلي فصاحت فرحةً : بشراي لقد نجونا . ثم تقدمت الى الباب واطلت فتحقق وهمها برأي سارتيلي في ساعةٍ

كان قد خاب امل حنة بلقياه عندها فدنت منه وقالت

ـ يا لسرور سيدتي براك

ـ اين هي الان

فاشارت جوليا الى المضجع وقالت - انها راقدة

ـ ماذا كان راي الطبيب

ـ قد استبهم اسباب الداء فلا يعلم من اين يأتي الدواء واعجب ما رأيت يا سيدي في حال سيدتي انه بينا هي في عافية و راحة يطرأ عليها عوارض تذهب برشدها فتلقيها على سريرها عياء وضنى من شدة الحمى

ـ هل تتناوبها كثيرًا

ـ نعم يا مولاي ولم ترعني قبلها عليلاً يعاني من وطأة الحمى ما تعانيه سيدتي على فراشها فتلقاها تهتز من الالم اهتزاز الارشية لتطاوح الارجاء فتناديني من حر انفاسها واضطرام صدرها لانقع غليلها بالماء العذب وذلك صباحًا كأن نوبة الحمى تشتد عليها ليلاً

ـ يا لك من غبية أأغفلت ما عاهدتني عليه فتخلفت عنها

ـ لم اتخلف عنها ليلاً نهارًا منذ تلقيت اشارتك فلا يدانيها الأمس جورجينا فتقوم لديها بضع ساعات في النهار حين اكون قربها وما من احد يستطيع ان يتغال اليها ليلاً

ـ انك توهمين يا جوليا وما اخالك تقوين على السهاد طول ليلك فلا بد ان يغض جفنك لحظة يسترقها الكامن لها في المرصاد فيدخل اليها وانت غافلة عنها

ـ آكد يا سيدي انني لا اكرى الليل كله من شدة الخوف

ـ وما الباعث عليه وما الخوف يا جوليا صرحي باسبابه للحال

ـ لا ريب انه يجري في هذه الدار من الامور التي تشيب من هولها الصغار فخطر للفيكونت ان يسكن بالها ويهدىء روعها قبل ان يسألها البيان فقال لها :

– لقد زال بوجودي عندك كل خوف فتقوي واشرحي ما في ضميرك دون حذر

– صدقت يا سيدي فها ابثك بكلما رأيت . – ففي الليلة الاولى التي قضيتها لدى سيدتي حنة كنت قد اختليت في هذه الغرفة على هذا المتكأ بعد انصراف المدبرة الى حجرتها فجافى عيني الرقاد فاشعلت المصباح وجلست الى الطاولة اقرأ في كتابي الى ان انتصف الليل فقمت الى سيدتي انظر علها تطالبني في حاجةٍ لها . وبينا انا قافلة من عندها لاح لي ان نارَ المضجع تزداد ضرماً فينفجر نورها متعاظماً وابصرت عندئذٍ . . .

– ما رأيت عجلي بالايضاح

– ابصرت في خلال الحاجز على نور المستوقد عيناً برّاقة

فاكمد وجه سارتيلي ونظر الى الجدار حيث اشارت الصبية . فاستانفت حديثها وقالت :

نعم انني لا اكذب عيني عما رأتهُ ولن استطيع الذهول عن اثار الخوف التي اعترتني تلك الليلة فاستلقيت عن المتكاه متغافلة عن الرائي فما طال بي الزمان حتى انتبهت فلم اجد اثرًا بعد تلك العين ولكن تكرّر لديَّ ذلك المشهد كل ليلة

فوجم سارتيلي برهةً يحاول فيها صد الخوف الذي عراه من تلك الرواية الى ان تمكن تبديده بحكمتهِ ورشده فقام الى الجدار ينقب عن اثر تلك الرويا فلم يعثر على شيء منهُ فهجس في نفسهِ وقال : – ربما كانت قد رأت احلاماً ولكن ما ضرني لو راقبت الامر بنفسي . فحوّل نظره الى الصبية وقال لها . – انني اقضي الليل رامقاً في مضجع حنة فالبثي هنا الى ان ادعوك

وقبل ان يتلقى جوابها خرج سارتيلي من عندها متخطياً الى خطيبتهِ فالفاها ضئيلة ذازلة يخفق صدرها خفقاناً شديداً ويلوح على جبينها اثر المنون فخاف سارتيلي جدّاً من هذا المشهد وقد زاده اضطراباً حديث دي نوربف له قبيل

ابجلبة الرمل . فقال في نفسهِ . — من تراه الجاني . ثم نفض الغرفة فلم يبصر احدًا فقال . لا بد لي من الاهتداء اليهِ

فقام مختبئًا وراء سجف النافذة في مكان يرى منه ولا يرى و يو يرّ من قصد الخزانة فما طال احتجابهُ مدة حتى فتح باب الغرفة بلطف فطلت منهُ امرأة تسير سير الاشباح قد اشتملت بشملة حمراء وتقنعت بقناع على زي سيدات اسبانيا فما زالت تتقدم في سيرها الى ان وقفت على بعد خطوتين من سرير حنه فنفضت الغرفة ولما لم ترَ احدًا بسطت يدًا قبضت راحتها على شيء لم يتبينهُ سارتيلي . فلبث الكامن في مكانهِ يحاول اخماد ضربان قلبه حذر ان يتمّ بهِ صابرًا على تلك الحال التي سلبت رشده ليعلم بما يكون من نتائجها

اما المراة فاخذت المنقع «اناء من خزف» الموضوع على الطاولة حذاء السرير وألقت فيهِ ما قبضت عليهِ وكان ذرورًا ابيض اللون فتحقق عند ئذٍ سارتيلي ان العوارض التي كانت تتناوب صحة سارتيلي لم تكن الاَّ عن سم مدسوس في كاس العلاج

وعقيب ان فرغت المراة من قضاء حاجتها وقفت في الغرفة تدبر انظارها في ارجائها لتتاكد انفرادها عن كل رقيب فتنازعت سارتيلي الخواطر فحدثتهُ نفسهُ ان يثب عليها فيفاجئها وهي في مكانها فانكر عليهِ قلبهُ المفاجأة لما ينال صحة خطيبتهِ من مغبتها . و بينا هو في نزاعٍ من امره قفلت المراة راجعة من الباب الذي ولجتهُ تريد الرواق بكل خفة . وكان الليل شديد الحلك يتعذر على الغريب الساري فيهِ الاهتداء الى غايتهِ فتبعها سارتيلي على الاثر وفي نفسهِ من قصص حنة الخرافية اشغال يبقبض منها الصدر فثبط قدمهُ عن الجري برهةً ولكن رشده ابى الاَّ الفوز بما داخل قلبهُ من الاوهام وثبت لديهِ ان الجاني لم يكن الاَّ بشرًا لا خيالاً . فراح يسعى وراءه وهو يقول في نفسهِ : اين المفرّ فلا بد ان اتلي الليلة اسرار اذاد دي نوريف وما من سبيل الى غايتي الاَّ اقتصاص اثر ضالتي . و بينا هو في شاغل من هذه النجوى راى الجاني يهوي الى طريق الخزانة مصدر المخاوف والاهوال . فجرى وراءها على وميض

الهجوم الى ان بلغ منها مسافة عندما وقفت بالباب تعالج فتحه فانفتح امامها وقبل ان تقفلهُ وراءها كان سارتيلي قد جدَّ خلسةً في تقدمه نحوها فوثب عليها وثبة الاسد الطاوي فاخذها بتلابيبها وقفل الباب فوقفت المراة ازاءه غير جازعة ولا هيابة وما عتمت ان بداته بهذا السوال

— ما انت ومن انت وما غرضك عندي

فاجابها سارتيلي وقد تلهب قلبهُ غيظًا وكمدًا أ تسالين اسمي وغرضي عندك. فاعلمي انى انا الآخذ منك بثارها وثار اخيها الذي فتك فيهِ انداديك

فاقتصرت المراة عن الجواب بالهزء والسخرية

فاعترضها الفيكونت بقوله — اتصدقين دعواي بسكونك يا شقية

— نعم اصدقها ولا اخشى لائمًا نعم نعم انني اريد ان استأصل شأفة هذه العائلة العائشة في البلاد ولا بد ان تنال حتفها منال اخيها روجه لانني لا اصد ما عشت عن الاخذ بثاري

فهزها سارتيلي كما يهزُّ غصنًا دانيًا وقال — ألا تعلمين انني اريد الفتك بك

— افعل مرادك فلا ابالي وقد حققت امالي

— انني عدلت عن قتلك الى مقاضاتك

— كنت اذًا كمن اراد ان يميط الحجاب عن عيوب حبيبهِ

فحاول سارتيلي الصياح فخانتهُ صوتهُ فعمد الى اجتذابها فلم يقوَ لضعف همتهِ من هول ذلك الموقف وما دار فيهِ من الحديث

ثم اخذتهُ المراة بيدها وساقتهُ الى النافذة فكشفت عن وجهها القناع وقالت: اريد ان تتعرف بي فتعرف انني لا اهابك

فاجم عندما تبينها سارتيلي مغمغمًا . — هي ذات الفرع الذهبي

ثم استانفت المراة حديثها وقالت . — مهلاً يا صاح فالزمان ياتيك بمرادك مني لدى الحكومة وقد رايتني من قبل يوم جئتني بشرذمة من الشقافين

فامهلني ولا تفعل ما لا تستطيع فعله بنفسك ، ولكن متى شئت ان تدعوهم اليك لبسوقوني الى حيث تريد لكنك فقدت منهم عضداً لا تقوى على نحو يضه وهو ذلك الذي قام جاسوساً حول قصر دي نوريف بينما كنت اطردك من داري . واذا خطر لك ان تلقاه فاقصد نهر السان

— اتشير بكلامك الى جوترا

— نعم اشير الى قرينك النشيط فلا تخفاك انني اسعى سعيك في سبيل الانتقام . وما سعيي الآن الا لان شقيق خطيبتك قد فتك بشقيقتي بعد ان جرّعها الذل والعار

— حاشا روجه ان يكون قاتلاً ومعاذ الله ان يصدق فيه حكمك الجائر ان تجسران تعزو اليّ الجور وقد علمت يقيناً بل شهدت مرآى العين راسها مجذوماً وملقى على هذه النمرقة فتعال لاريك آثار الدم ومتى بلغنا موضعها ارسل فادعُو خدم القاتل والثقاف ليقبضوا عليّ

وما اتمت كلامها حتى اندفعت تحت الظلام الى زاوية الخزانة فطرق اذن سارنيلي صوت باب يقفل ثم تلاه قهقهة ضاحك كأنها تشق الجدار . فاسرع وجهة الصوت ونادى فلم يلقَ مجيباً الا نداء الحال يهتف به لقد غابت الجانية . فاستولى عليه عندئذٍ الذهول فانثنى عن البحث والتنقيب في السبيل الذي خرجت منه المراة واشتغل بالاسرار التي احدقت بوجدانه منذ شهر وقبل ان يلج في استجلائها خطر له خاطر يدفعه الى انقاذ حنة من شر السم الذي رسب في الكاس بعد فرار الجاني . فما لبث ان اسرع الى غرفة خطيبته ففتح الباب ودخل متاثراً من الحوادث التي فاجأته فكانت حنة لم تزل راقدة فدنا عندئذٍ سارنيلي يهتز من الفرح الذي نزل في قلبه لنجاة حنة ولما اراد ان ياخذ الكاس بيده المرتجفة ترجرجت على الطاولة الى حد ان بلغت رجرجتها اذن حنة فانتبهت وهذت قائلة :

— ادمون ادمون . . . اللقاء نعيني اللقاء

فهمّ ان يجاوبها سارتيلي لولا ان جوليا اسرعت اليه فاومت لهُ ان يصدف كشحًا عن هذيانها فلا يجيبها الان سرورها بلقياه يعود عليها غمًا . فانقلب راجعًا الى المخدع همسًا وهناك ابتدأته جوليا بهذا الخطاب

— انني ابصرت العين التي كانت ترمقني امس بعد اذ فصلت عني فطار فؤادي هلعًا حتى صرت لا اطيق السهر

— ساغنيك عن السهاد وغدًا تمثل الجانية بالسم لدى الحكومة

— ومن تكون هذه الشقية

— ان يدًا اثيمة تدسّ السم خفيةً في كاس العلاج بينا تفتنك الانكليزية الماكرة بحديثها في هذه الغرفة

— لم تنفرد ابدًا الانكليزية في مضجع سيدتي

— انها لفي غنىً عن الوجود فيهِ ولها قرينة سوء تقوم مقامها في جلب المنية على حنة . وهي ذات الوشاح الوردي

— ذلك الاسم طالما تهذي بهِ سيدتي

— نعم فانها كانت تنسل اليها كالصل في ساعةٍ لا تعلمينها بل ربما جعلوا عليكِ تلك العين رقيبًا او آلة للارهاب

— لقد فطنت الآن الى ما كانت تبديه الانكليزية من الاعذار تحوّلاً عني فتغادرني وحدي وسط الغرفة وما اخالها الاّ عالمة بما في نفسك من الاسرار التي اوجست عليها الحذر والمراقبة

— خلي ذكر الماضي وما كان فيهِ وغدًا نلقى عاقبة مكرها وغدرها اما الليلة فلا تغفلي امرها واياك ان توسعي لها مجال الهزيمة . فاين مضجعها

— انها نازلة في غرفة عليا ولا بد ان تكون قد عادت الآن اليها لانني سمعت حركةً في الرواق الاعلى ساعة توارت تلك العين عن عياني

— لا ريبَ انها تكون قد عادت الآن الى مقصورتها وقد انتهت قرينتها من دس السم فاغنتها عن المراقبة

اما انا فاطلب اليك يا جوليا امرين

— قل ما بدا لك يا سيدي

— اسالك اولاً ان تودعي الكاس موضعًا مقفلاً فتحرصي عليهِ لئلا يدري بهِ الخصم فينتزعه ثم اذهبي فأتني بخادم اجعلهُ خفيرًا على غرفة مس جورجينا

— ارى يا سيدي ان ادعو البواب للقيام في هذه المهمة لان في نفسهِ وقر من الانكليزية خلافًا للخدم فجميعهم رهن اشارتها وطوع امرها لما تحوطهم من المنح وتوليهم من الاحسان

— فاحضري اذًا البواب عجلاً اني في انتظارك

فانحدرت جوليا مسرعة الى البواب وغادرت سارتيلي يقلب الفكر و يضرب الراي في سبيل انقاذ حنة من اخطار تجسمت فبانت لديه حقيقةً لا يشتبه بها الى ان قال في نفسه . — تماهلت فتهاملت بالدفاع عن راحة حنة فما كان اغناني عن الاشتغال بقصص دي نوريف ودي مانسيناك الشيخ وحذري من تعريض شهرة و وجه لدى الحكومة واعلان امر الجانيين اتفاقًا ثم اعترضهُ خاطر من نفسه فقال — ما الذريعة لتسليم الفاتكين فانّي لي اشهارهم ولا اعرف احدًا منهم فلو عرّضت في شكواي بذكر الانكليزية لامسكت عن الاقرار وتركتني في حيرة عظيمة اندب جوترا الثقاف الحاذق الذي فتك بهِ الاشرار احتياطًا

و بينا هو يناجي نفسهُ بامر خلاص حنة سمع حركةً في الرواق كادت تبلغ اذنها فتزعجها فخرج اليهِ ليتحققها فلقيه المرضة والبواب وافدين عليهِ . فما استقرّ بها المقام حتى ابتداه شافرت البواب بهذا الكلام ملهوفًا يا سيدي إن بالباب رجلاً يسعى اليك فيطلب مشافهتك

— من الطارق وما يبغيه الساعة

— يزعم ان لديه امورًا جليلة يريد ان يواضع سيدي الراي فيها وقد اكثر الترداد الى الدار من اجلها

— اين هو قائم الآن

— اضطررت يا مولاي لزيادة الحاجه عليّ ان ادخله الخزانة حيث يرجو لقياك

— احسنت فاني ساوافيه عجلاً لكن افهم الآن ما أُريد ان اودعه سرّك ياشافرت واعلم ان ثقتي بك عظيمة لما تحققته فيك من الامانة والصدق في الخدمة فاسالك اعتمادًا على خلوصك ونشاطك ان تعقد معي على ملاقاة الاخطار المحدقة بنا حالاً

— اني افدي نفسي دون مراد سيدتي حنة فانا بكليتي وقف على ارادتها

— فاصعد اذًا للحال واخفر غرفة مس جورجينا فتم هناك الى ان ادعوك واياك ان تنزاح عن بابها فتدعها تفرّ من مكانها

— وطد امانيك على عزمي وكن متاكدًا نجاحي في كل امرٍ يعود على قهر هذه الانكليزية التي امقتها مقتًا شديدًا

ثم نظر سارتيلي الى جوليا وقال لها . — وانت اسهري بغيرتك على سيدتك الى ان اعود اليك عقيب مقابلة الزائر

وانصرف من عندها الى الخزانة متسائلاً عن الرجل وشأنهِ لديه وقد داهمهٔ الخواطر والظنون على اختلاف ضروبها دون ان يعلق بفائدة يدفع بها الخوف الذي داخلهٔ عند اجتيازه ذلك الرواق الهائل . ان سارتيلي ما كان ليعبأ من قبل بملاقاة الاهوال وقد صار منذ دخل قصر دي مانسيتياك فشهد فيهِ تلك الغرائب حذرًا جبانًا فلما بلغ باب الخزانة فتحهُ ودخل فسر قليلاً لوجود مصباح على الطاولة كان قد اشعلهٔ البواب قبل انصرافهِ منها فلاح لهُ رجل واقف وسط الخزانة لا يبدي حراكًا فدنا منهُ سارتيلي وسالهُ قائلاً .

— من انت يا رجل وما سبب مجيئك الى هذا الموضع

فتقدم الرجل قليلاً من السائل واجاب بكل لطفٍ وتودّد

— أَما عرفتني ايها الفيكونت

— أَأَنت جوترا الثقاف . عجباه فمتى بعثت وكان عهدي بك في عالم

الاموات فداء جهدك وامانتك . وقد نماك اليّ الاشقياء

— لقد حبط سعي الغادرين وخاب امامهم فانقذني الله من ايديهم بعد ان كانوا قد حاولوا الفتك بي فحال دون ...بهم امور لا يسعني الآن سردها تفصيلاً لكنني عندما علمت بعودتك من نورمانديا جئت انذرك بالخطر الذي يتوعدون به حياة خطيبتك حنة

— ومن اعلمك بسفري الى نورمانديا

— انني علمت بكلما جرى لكما في الطريق وعلى الجزيرة فانبئت انكما قد عدتما بثروة حنة التي تغدو مهرًا بين يديك ثم عرفت ان الله كان لكما خير نصير اذ انتقم من دي نوريف فاطبقة الرمل عند الغبيط على سيف البحر

فدهش سارتيلي من كلام الثقاف الى ان ذهل عن مطالبته بالخبر . فاستطرد جوترا كلامة الى ان قال

— لكن أغفلت امرًا واحدًا

فاومى اليه سارتيلي ايماء السائل . — فاجاب الثقاف . —

— لا اعلم اذا كنت قد قدمت الى هنا وفق الساعة التي تمكني من بث حبال الماكرين العاملين على هلاك حنة منذ ثلاثة اشهر لان الخبر بلغني اخيرًا فضلاً عن ذلك لم يكن لدي من سبيل اتوسل به الى المرام دون ساعدك

فاجابه سارتيلي . — حسنت لطبق الامر وقد فزت بحيلة الجانين فحبست على السم المدسوس في المنقع وبذلك نجت حنة من خطر الموت

— فبي يناط اذًا عقابهم وعليك بالقاء القبض عليهم فاودعهم جميعًا ظلمة السجن

— ما اخالك يا جوترا تقوى على جميعهم وقد التقيت هذه الليلة بصاحبة السم فما كدت اوافقها برهة في هذا المكان حتى انفلتت من امامي كالظل تهوي الى هذا الموضع فتوارت عني دون ان اتمكن من توقيفها وهي تتوعدني بكشف النقاب عن فعلات آل دي مانسيناك رشرورهم فاخاف ان تبوح باسرار

وخيبة العاقبة

— لا يشغلنك من امر الاسرار التي توعدتك باشهارها فان المراة هي من اشباع الشقي الذي شهدت قتلة وقد انتحلت اسمة فسعت سعيه دون ان تكون على شيء من العلم باحوال آل دي مانسيناك

— صدقت يا جوترا فياضياع الفرصة التي بها تمكنت من اعتقالها

— وعدتك يا سيدي بالقاء القبض على الجانين ولا اخلف بالمعاد فثق بي واعلم ان ذات الوشاح الوردي التي توارت عنك بجفنة الاشباح لا بد ان تنتشر من كمينها لان من أَلِف الحرب بالسم لا يستطيع الخفاء وانا اعلم بنفر اشباع دي نوريف وانداده الاشقياء . تيقن يا سيدي انني لا ابقي على احد منهم وفي نفسي من شرهم حزازات فقد القوني على فراش العذاب باختطاف ولدي زهاء تسع عشرة سنة فلا انثنى عن السعي وراءهم او اقبض عليهم فيكفرون عن جرائمهم وقد جئت اليك خصوصاً للقبض على ندهم الكامن في هذا القصر

— أَ تشير بذلك الى الانكليزية وقد تقدمتهم الى السجن اذ عقلت عليها في غرفتها

ـ اسأ لك يا سيدي عن حدتي لديك عذراً لانني ما جئت للغضب والحنق بل لاقضي واجباً اشهدت عليَّ في قضائه رب الفلق واملي ان افوز غداً بالمرام فابث في ديارك الراحة والسلام . اما الليلة فلا اقتضي منك الاَّ الثقة بي واحضار جورجينا امامي فاشافهها برهة

ـ أ أحضرها الى هذا المقام

ـ نعم نعم الى هنا ولا تخشى فرارها لاني اعلم بحبل الاشباح وشعوذتهم فلا تدهشني

— لك ما تريد. واذا كنت تفكر حضوري اثناء الحديث فاني اقيم جانباً حتى اذا اقتضت الحال الى مساعدتي لبيت نداك عاجلاً

— انني لا اطيل الوقوف معها لضيق الوقت وحذر فوات الفرصة التي

تمكنني من نجاح المسعى في محل آخر بعد استطلاع طلع جورجينا الشقية

فانطلق سارتيلي بنفذ رغبة الثقاف الذي راح يخطر في المجال خطران السهم لشدة وطأة الحزن التي كانت تنقسم فؤاده فيهذي هذيان العليل اذا دهمة عارض من الحمى فيقول . ـ ولدي هلا التاك فتقر عيني بمرآك مثري اين استقر بك النوى . وما نابك من غدر الاشقياء . .

وكان احيانًا يقف وقوف الحائر اذا تنازعته الخواطر وتألبت عليه الهواجس و بينا هو من همومه بين رائح وغادٍ سمع وقع اقدام في الرواق المؤدي الى الخزانة فمال اليه متقدمًا ناحية المصباح ليتبين جيدًا وجه الانكليزية الغادرة واذا بها قد دخلت رافعة راسها ثابتة الجأش فقصدت توًا وجهة النور دون ان يزعجها من اسباب الدعوة مزعج ولما مثلت لدى الرجل ابتداته بهذا السوال بصوت عنيف :

ـ ما السبب الذي حملك على دعوتي اليك

فاستخف بسوالها جوترا فاهتز كما تهتز الاعضاء اذا مستها شرارة الكهرباء فهوى اليها ليتبين هيئتها جيدًا فما تاملها حتى صاح مدهوشًا متعجبًا من تلك اللقيا ففاه للحال باسمها قائلاً . ـ سوزان سوزان ؟

فارتدت الانكليزية الى الوراء وهي تدع الثقاف بالحائط ثاقبة لتنبيهه

فاعترضها جوترا بقوله . ـ لقد تحققت نتيجة السعي بلقياك

ـ خلي عنك الهذيان فان عيني لم تعجمك من قبل ولا ارب لي في سؤالك عن الاسباب التي قضت بعجبك وانذهالك عند مقابلتي

فولته ظهرها تريد جهة الباب . فقال لها الثقاف . ـ

ـ اني اذكرك بما كان منك قديمًا يوم هجرتني في الهافر في الرابع والعشرين من ايار عام ١٨٣٠

فاثرت هذه العبارة في الانكليزية اشد تاثير فالوت اليه كما يلوي الاسد المجروح ودنت منه فتاملته عن كثب وقالت بصوت ضعيف يكاد ان

يبلغ اذن المخاطب القريب ٠ - أ انت لويس أ تنشر الاموات وتبعث الرفات البااليات

- لاغروّ ان انكرتني بعد غيبة طويلة فعرفتك للحال لان اثار جرائمك تدل عليك

- كلا فاني قد عرفتك جيداً واسمك لويس جوترا وزوجي ايام النكبة فما مرادك مني

فامسك جوترا برهةً عن الحديث بحكم الحزن الذي نابهُ عند لقاء من بدلت حبهُ بالبغضاء وقضت عليهِ بالشقاء بعد النعماء ثم قال ٠ -

- ان مرادي ليس غير القاء القبض على ند تلك الماكرة التي تدس السم في المنقع «وعاء صغير من خزف» وقد علمت انها قد نزلت في هذه الدار عضداً لتلك الباغية وساعداً لكنها الاثيمة الجانية وكلتاهما رسل عصابةٍ عاثت في البلاد فلم تدع طريقًا للفساد الا واخذت بهِ الى كل ناد

وكانت جورجينا شاخصة فيهِ لا تبدي حراكًا الى ان اعلن لها اسم طابخة السم فتهزأت اعضاؤها واختلجت

فاطرد جوترا حديثهُ بكل سكينة الى ان قال - لم يفتني شيءٌ مما هو جار الآن ولكن ما كنت اعلم ان التي ساومت في شرفها قديمًا بالوكس هي التي تسعى اليوم مأجورة في تنفيذ مآرب البغاة

فتضاحكت جورجينا ساخرة من كلامهِ

فاستانف جوترا الكلام وقال ٠ - لم تساوم فقط في شرفها بل في ولدي الوحيد

- لا يسوغ لك ان تقول ولدي لان هنري لا يعرف الا والدته

- انتِ تقرّين باختطاف ابني وتنكرين عليّ ارجاعه

- اقرُّ بهِ وانكره عليك

- انتِ تؤثرين بذلك الموت

- ان شئت فافعل فهنري ياخذ بدمي

فلما سمع جوترا اسم ولده حتى استهل من عينيه الدمع فخمد نيران وجد فقال —

— سوزان عودي عليّ بولدي غفر الله عيوبك وذنوبك

— لا يغنيني عن ذلك شيء

— عودي به فانقذك من النطع

— فمن تكون لتقضي عليّ به

— اني رجل الحكومة والقائم على رعاية الامن والراحة فكفى بكلمة من فمي لبتّ اوصالك

فاضطربت عند هذا الكلام جورجينا واكفهرّ وجهها لكن أبت الا ان تعاود اللهجة الاولى فتستر بها ضعفها فقالت هزءا وسخرية . — انسألني ارجاع هنري حقًا . فذلك لا يكون لان هنري يأبى ان ينسب لرجل اتخذ التجسس مهنةً فبلغ من ذلها الى ما بلغ

— اذا انكرت اجابة سؤلي عجلاً قبضت عليك دون امهال

— لا بد لك من حجة تقدمها بين يديك للقبض عليّ

— ان بينتي اوضح من ان ازيدها بيانًا وصراحة ولولا انك سمحت لي باكمال القصة . لاغنيتك عن الانكار والسوال عن الدليل . فان الرجل الذي ابتاعك في المافر كان يدعى دي نوريف وما استغواك الا مطامع الغنى والترف والتره والقصف الى غير ذلك من اسباب الغواية فانحزت اليه وسلكت تحت لوائه طرق البغي والفساد

— لا علم لي بشيء مما ذكرت

— مهلاً فسوف تعلمين متى اماطت اللثام عن جبين الحقيقة فسردت القصة بوجوهها . وهي انه كان لذلك الرجل الرومي صديق يدعى الجنرال دي مانسينياك تقرّب من ايام الثورة فاحتال عليه الرومي فسلبهُ اوراقًا ورسائل وعت شيئًا من اسرار الحزب الملكي الذي كان ثمّ يناوىء حزب الحكومة فدفعها

الى الشرط

فقاطعتهُ الانكليزية الكلام بقولها . ـ ان آثارك المفيدة في بابها لا طائل لها في ما تدّعي بهِ عليّ فاقتصر

— دعني أكمل البيان الى النتيجة فتبدو لك العلاقة التي تاخذ باسباب الحال التي انتهينا اليها . ـ فلما استولى دي نوريف على تلك الاوراق تولّى على ثروة وحسب الجنرال بما اتخذه لديه من الحيل والذرائع . منها ان الشرط لا بد ان تعلن خيانتك لدى الحزب الذي تعزى اليهِ فتشايعه فبادر اذًا الى صده عن ذلك بالمال . فآلى على نفسهِ ان يستنبط كل ما ملكت يد الجنرال وعملاً بما نوى جعل في خدمة آل دي مانسيناك امرأتين . .

فاستخفت سوزان بكلامه وقالت . ـ لو صحّ ما تقول وتدعي

فاكمل جوترا حديثه ولم يبالِ قائلاً : ـ ان احداهما كانت تدعى لودميلا لودلوف وقد اتى بها من ريكا حيث كانت تشبُّ بين سلاسل العبودية فانحلها زوجةً لهُ . وكانت تلك المراة بديعة الجمال . فدفعها دي نوريف تسعى في خلب لبّ الجنرال وسلبهِ . فعند وفاة الجنرال دنت منهُ تلك الفاتنة واخذت عليهِ عهودًا تجحف بثروتهِ ومال عيالهِ

ـ أأصدق كل ما تعني بقصهِ الآن

— اما الثانية فكانت اذل وادنى . لان نوريف لما اعوزه تجسس قصر دي مانسيناك وكان قد ملّ القيام مع تلك الشقية التي كان اشتراها في الهافر دفعها الى الجنرال باسم جورجينا فاسيت فاقامت عنده وما زالت منذ سبع عشرة سنة تسير في القصر سيرة الخداع والخيانة

— ما اصلّ دليلك في الدعوى اذا وقف بك عند الخيانة

— لم انتهِ بعد من تقديم البينات التي تسوقك الى القطع ـ فلا يخفاكِ ان دي نوريف ساق الابن مساق الاب فلما تأكد فناء ثروتهِ عمد الى الفتك بحياتهِ وحياة شقيقتهِ حنة . فسعى اولاً في تلف روجه فبعث اليهِ شقيقة لودميلا

لودلوف تستهويه وكان اسمها «ڤاندا» تعلقت بهذه الفتاة وكلفت بحبها حتى التلف فساء دي نوريف صدق هواها لزوجه واخلاصها فحكم عليها بالهلاك وكان طوبيا سائق الفيكونت دي سارنيلي الذي ادخلته الخزانة منذ ذلك الحكم العنيف حكم الجور والاعتساف

ـ كذبت في ما قلت عن طوبيا فانه دخل الخزانة وحده

ـ فها انك تقرين بحصول الجناية وقد كنت تنكرين

ـ كلا . . . ثم كلا . . . .

ـ أتريدين ان اطلعك على آثار الدم الراسخة على النمرقة . اترغبين في ان افتح لك الباب الذي به طوبيا جذم راس فاندا فاحتمله خادم دي نوريف الى سان كلو حيث كان سيده بانتظاره . اتودين ان اذهب بك الى الدياس حيث وئد روجه « دفن حيًّا » فادلك على الطريق الذي تاخذ به طابخة السم كل ليلة

ـ ذلك تمويه وبهتان فان شئت اثبات دعواك عليَّ بمقارنة الاشقياء فما لك لا تسعى في احضارهم

ـ قد مات منهم اثنان . قضى دي نوريف في الغبيط وراح خادمه مجندلاً تلك الليلة التي قصد فيها بمعاونتك اختطاف حنة. اما لودميلا لودلوف وطوبيا وطابخة السم والقاتل فهم الآن في منزل على رصيف « بيلي » حيث ينتظرونك

فحاولت سوزان الكلام فخانها صوتها فاستطرد جوترا الخطاب الى ان قال . ـ

ـ وقد احاط الحفراء بذلك العرين حتى تعذر على من فيه سبيل الفرار فعرفت مخارجه ومداخله يوم ساقني دي نوريف اليه على عزم الايقاع بي . فسيلقى عليهم القبض غدًا فيلقون شر ما جنت ايديهم . فاحذري اذًا غضبي وتيقني ان القضاء بفمي نعم بفمي فبكلمة مني ادفعك الى السجن ومنه الى منقع الدم . فاعلميني اذًا بمقر ولدي او عودي به عليَّ . ـ

فتصرّمت شفتا سوزان عندئذٍ من الكيد وقالت . ـ اتريد ان تعرف

ولدك

ـ اعلميني بمقره فاعاهدك على النجاة

ـ انهُ مقيمٌ في منزل رصيف « بيلي » وهذه الليلة يلقى القبض عليهِ لانه يدعى طوبيا قاتل فاندا

فصاح جوترا وقد تميز من الغيظ وقال

ـ كذبت يا ماكرة

ـ ما قلت الا صدقًا واذا كنت في ريب من صدق مقالي فاذهب معي الى ذلك المنزل وهناك اعلمك بانني انا ام طوبيا

فتلعثم جوترا للحال واضطربت اعضاؤُه اذ انس من لهجتها الحقيقة فقابلها بعهد الحوادث التي مرت بهِ حتى تاكد بيانها· وماطال بهِ السكوت الى ان خاطبها بصوت خنقته الحسرات .ـ

ـ أ الى هذه الغاية بلغت بتثقيف ولدك وولدي حتى دفعتهِ الى ايدي الاشقياء فخنتهِ وانتهكت حرمتك

ـ هل كنت تؤْثر ان تنشئهُ على ما نشات عليهِ فتنظمهُ في سلك الدواسيس

فاضرب جوترا عن هزئها وقال . ـ انك استلمتهِ في سن النزاهة والطهارة فرعيتهِ بعين الخيانة الى ان شب فالحمت قلبه بالعار والحقتهِ الجناية

ـ لا اندم على ما فعلت وافعلهُ

ـ ويحك يا شقية

ـ فلم تتقاعد عن اجراء مرادك فقد القيت ولدك بين مخالب الدواسيس اقرانك فعجل ايضًا باعتقال الام

ان هذه الام الشقية اخذت تلهج في حديثها مع زوجها لهج الفحة والجراءة اعتمادًا على ما لاح لها في حديثهِ من آثار الحنان الى ولده فنشطت من عقال الاضطراب والقلق وعمدت الى الكلام معهُ بكل سكينة وطمانينة

اما جوترا فادرك سرّ محنتها والحامل عليها فدفع عن نفسهِ الغم والحزن اللذين كانا يتقسمانها من جرّاء الحال التي وقف عليها ولده موضوع حسراته ولهفاته فقال لها

— لا امل لك بالنجاة من شر ما جنيت لان الولد الذي دربته على الفتك والسلب ليس بابني

فغضت سوزان طرفها عند هذا الكلام كما يغض المحتضر اجفانه ففاتها ان جوترا لم ينكر هنري الا بفمهِ وقد حدثتهُ نفسه بوسائل انقاذه من الكمين الذي زجّ فيهِ

ثم اطرد حديثهُ فقال · — انت مذ الآن في معقل داخل هذا القصر الى ان ابعث غدًا من يلقي القبض عليك · وقد فسحت باجلك الى آخر هذا الليل عسى ان تكفري عن معرتك

فخطر لسوزان اثناء هذا الحديث ان تكفر عن اثامها بالانتحار ولكن قبل ان تثبت عزمها عليهِ رات ان تعاود الجدال في دفع ما رسخ في ذهنهِ من حقائق امرها معهُ فقالت · —

— لا دليل عندك ولا برهان فاين السم الذي تدعي عليّ بطبخه ودسهِ في المنقع

ففتح جوترا باب الخزانة وقال · — سآتيك بالبرهان الساعة فدعا اليهِ سارتيلي وقال له · — ان مناظرتي مع هذه الفتاة اكدت لي تواطؤها مع اخرين على العبث في هذا القصر فعليك باعتقالها عندك الى ان ابعث غدًا بطلبها حسب النظام

فاجابهُ سارتيلي · — اني اقوم بنفسي عليها خفيرًا

— اسمح لي ان اسأ لك حاجة اخرى وهي · هل امسكت على السم في المنقع

— اودعتهُ كف جوليا المرضة فلن يمسهُ احد

— فلا بد اذًا من عرضهِ لدى الحكومة لتعلم بمقدار السم المنقوع · فحسبي

الآن ما وعيت من العلم باحوال الاشقياء الذين عمدوا الى قتل حنة دي مانسينياك حد شرورهم وغايتها

— فاعترضتهُ الانكليزية قائلة · فدعني الآن انصرف الى غرفتي فاكفى سفاسف القول والهذيان اذ ليس من شأني الجواب الليلة على ما تدعيهِ عليَّ فدونا غداً الحكومة

فدعا سارتيلي البواب ليسوقها الى المقر حيث تاكدت سوزان ان لامناص لها منهُ ولا مفرّ

ثم نظر سارتيلي الى جوترا وقال له · — اسمح لي يا سيدي ان انقب في غرفة الانكليزية فاكون على بينة من حالها قياماً بالعهود التي أُخذت عليَّ

فسألهُ سارتيلي بصوت منخفض قائلاً · — هل ترى ان يلقى القبض الليلة على طوبيا وحليلة دي نوريف

— لا يغني عنا كتمان الامر مسمع المراة فلتعلم ان طابخة السم وطوبيا قد لجأا الى منزل جماعة دي نوريف مستودع الشر وهناك اودع الجلد السابع وفيهِ اشرفت على الموت وعنهُ يصدر القوم أسرى حتى ذلك النوتي المنتحل الذي جاء بطوبيا على قاربهِ من سان ميشال

فلما سمعتهُ الانكليزية يعلن عزمهُ بكلام وطيد تمثل في عينيها الهلاك فطلبت اليهِ ان تشافه جوليا بحاجةٍ لها عندها قبل ان يعقل عليها قائلة لها — وما اخالكما تنكران عليَّ مقابلتها اذ ليست في جملة المتهمين

— لكِ ذلك بحضرة شهود

فقال سارتيلي — ان جوليا لم تزل في المخدع فلنعطف عليها في طريقنا الى غرفة مس جورجينا

فاجابت الانكليزية وقد استضاءت عيناها كأن بها جذوة نار . — هلموا بنا اليها

ثم خرجت من الخزانة ثابتة القدم رابطة الجاش يتقدمها سارتيلي والبواب

وجوترا من ورائها فما زالوا بها الى ان دخلت باب المخدع حيث كانت جوليا تشتغل حتى تلك الساعة الى جانب طاولة عليها مصباح فلما دخلت الانكليزية وهي على الحال التي ذكرنا ارتاعت جوليا فوقفت للحال واخذت ترتد الى الوراء حتى بلغت اقصى زوايا الغرفة وكان جوترا قد نظر الى عواقب هذه اللقيا فخاف ان يبغي الحسد على جوليا فتقدم وقبل ان يبلغ الى وسط الغرفة كانت الانكليزية قد قفزت الى الصوان حيث استنقعت السم في المنقع فاخذته بيدها قائلة — لن تلقي غداً عليّ القبض لاني اكون في عالم الخفاء
– فماتت به سمّاً

الفصل السابع عشر

المنزل السرّي

كان في قنن هضاب رصيف يلي طريق كوّود يدعى بيزات قد عبدّه الجهد ومهده ليتيسر للعربات الوصول الى المنازل الحقيرة التي قامت على جوانبه . وكان في جملة تلك المنازل بناء قديم العهد قفر تحيط به حديقة فسيحة الارجاء فيومهُ بستاني لشذب اشجار الحديقة وحراثتها فلا يعرف من اصحابه او ممن يناط به النظر فيه الاَّ مسجلاً كان يقصده اخر كل شهر ليستنض منهُ جعالته

ولما كان ذلك البناء خاليًا من عهد قديم تناسى اهل الحي قصته وغرب عنها ما كان من آثار اصحابه وفي تلك الجهة والسبب الذي من اجله هجر ولمقام طويلاً . لكن بعض شيوخ الحي كان يروون عنه قصصاً متضاربة منها ان عصبة من الثائرين كانت قد اتخذته ناديًا تتألب اليه عام ١٨٤٧ فعلمت بها الحكومة فمزّقت شملها ومنذ ذاك الحين لم يروا لها اثرًا

فلما كان فجر الليلة التي شهدنا فيها سوء عاقبة الانكليزية وما صارت اليه خطر ازاء حديقة البناء رجل مضطرب البال لا يستقر على حال من القلق والبلبال آونة يتقدم الى شبكة باب الحديقة فيحدج القصر بانظاره البراقة وآونة يرتد عنه ارتداد الطرف اذا اعترضته اشعة الشمس. وكان ذلك الرجل «جوترا» وقد اتصل بالقارىء ما اظهره هذا الثقاف من الاقدام والهمة في التنقيب سعياً وراء دي نوريف واشياعه وما قضى من الليالي سهرًا حول قصر الرومي يدس جوانبه فيرقب حركات الداخل اليه والبارز منه . فلما بلغه خبر حياة ولده وتلقى من فم سوزان زوجته حقيقة ما انتهى اليه في سيرته معها مستنه الشفقة عليه وطالبة الحنان الوالدي بالرحمة والحلم فما أبى الارتياح اليها واغفل ما كان قد عوّل عليه وابطل ما حاكه من الحيل دون الوصول الى الاشقياء رحمة بولده وضناً ببقائه فتوجس في نفسه ان ينفذ طوبيا من اسر الاشقياء فيتزح به بعيدًا حيث يقوم معه على رغد العيش ونعيمه . ولذلك رأيناه حيال القصر يحاول الدخول عملاً بما ارتآه ونواه . واذ كان لا يقوى من نفسه على تنفيذه رأى ان ينحاز الى فئة من اقرانه في المهنة قديمًا فتعصب معهم على افتتاح القصر والفوز بسكانه على غير علم من الحكومة لاسباب ضربت على بيانها ولعله كان قد كتمها سعيه ونجحه قبل ان يأتي بالنتيجة المرغوبة منه في القاء القبض على العائثين في جيرة غاب بولينا . ولم يتجنب اعوانه بعيدًا من دار الحكومة الا ليسهل عليه نجاة طوبيا والفرار به دون باعث

فتوفرت لدى جوترا كل اسباب الوصول الى باطن القصر والتنقيب فيه

دون رقيب لكنهُ تعذر عليهِ وجه اقناع طوبيا على الانفصال عن فئتهِ والانضمام الى رجل وقع في نفسهِ الحذر منهُ وامتنع عليهِ السكون الى رأيهِ ومشورته . فحار جونزا في امره لا يدري كيف ياخذ بهِ . فقال في ذاتهِ

ان كشفت لهُ نفسي بحضرة أية (ارملة) دي نوريف وانبت لهُ حقيقة شأنه القوى عليَّ القصد وهو يبت بشرٍ عظيم ترى فبأية ذريعة اتوسل الى اجتذابهِ واقناعه. تلك المشكلة التي كان يتدبرها جونزا ويتحرى حلها خاطرًا جيئة وذهابًا عند سور حديقة البناء الخالي في محلة شاليو

وبينا كان في حيرة من امره بدا لهُ وجه اشار عن اعتماده عليهِ بما فعل اذ اولج يده في شبيكة الباب فغمز اللولب حتى انفتح وكان قد تصرَّم الشفق شيئًا فدخل الحديقة يتخطى طرقها بين السرو النابت على الجانبين فاذكره ما مرَّ بهِ من الحوادث المفجعة يوم اختطفهُ دي نوريف وغلمانه وتبين لهُ جليًا الموضع الذي ترجل فيهِ ليوثقوه ويعصبوا على عينيه لكنهُ رأى بونًا بين المسافة الكائنة من باب الحديقة الى البيت وتلك التي طواها من قبل في الظلام الى اخر الحديقة . فقال في سرّه لا بد من وجود دهليز يتخطى منهُ الى السرداب . فتوغل في السير الى ان بلغ البناء فطاف بهِ مدققًا النظر في ما كان حولهُ واذا ببناء آخر حقير قائم في آخر الحديقة قد لاح لعينيه فرأى اذ ذاك فيهِ مدخل السرداب والدرج الذي انحدر عليها محمولاً على اكف خدمة الروسي فقال متسائلاً

— ترى اين كمن الاشقياء ومن يعلمني بمقرهم الآن . هل استقروا في المنزل ام في السرداب

وعقيب ان أطال الفكرة في هذا المعنى راى لجهل السكان هيئته ان يطرق باب المنزل اولاً فيعلم بمن يأوي اليهِ حتى اذا رآه قفرًا عاد الى السرداب وعملاً بهذا الراي صعد الدرج عند الرتاج وطرق الباب مرارًا فدوى صوت المطرقة يفيد الطارق خلو المكان من السكان فما زال يعيد الطرق الى ان

سمع حركةً خفيفة في اعالي الباب من داخل فارسل انظاره ليحققها فلم يبصر احدًا فعمد الى المطرقة بريد تكرار التنبيه وقبل ان يطرق فتحت نافذة في الطبقة العليا وبان من خلال خشبها فوهة غدارة فلم يخطر ببال جوترا دنو الخطر منهُ لكنما الله يهدي الانسان احيانًا طرق شتى سبيل النجاة من الهلكة وكأن بهِ تعالى عز وجل قد اوحى في تلك الساعة الى جوترا ان يقف على العتبة مما يلي مصراع الباب ليقيه غدر الماكرين . وفي اثناء ذلك اطلقت الغدارة فاصابت كتف جوترا بدل صدره فاسقطته لضيق الموقف على الارض فلم تفتهُ فرصة النظر الى الخصم اذ ابصر وجه طوبيا من تفارج الشباك فصاح من قلب جريح

– تبت يدا قاتل ابيهِ

فضحك الشقي حتى استلقى وكان قرنائهِ قد جعلوهُ في طليعتهم اثناء قيامهم في السرداب وما رمى جوترا بالرصاص يريد قتلهُ الا عن علمٍ بهِ لانهُ كان قد عرفهُ عند سارتيلي ساعة قام بالباب يختلس الحديث

عقيب ان منيت عصابة الاشقياء بموت زعيمها دي نوريف عولت على السفر وتهيأت لهُ فكانت لود. يلا لودلوف قد جمعت ما كان احرزه زميلها من القراطيس المالية لتفرَّ بها قبل ان يصيبها اللصوص او تدري بها الحكومة لكنها رات ان تجهز على قلب حنة فتاخذ منها بثارها عن آل دي مانسيناك فانتظرت نتيجة الحيلة التي اتخذتها لقتل خطيبة سارتيلي سمًا ولما كان القدر نزرًا ضعف اثره وطالت حياة حنة الى ان تعطلت الحيلة ودُحِرَا المحتال

وكان في تلك الاثناء قد بلغ دوي الرصاص اذان اقران جوترا فهولوا من مكامنهم يسرعون الى الجهة التي صعد منها الدوي فمنهم من دخل الباب ومنهم من تسلق الجدار فابصرهم جوترا وكان يريد ان يصدهم عن التعرض خوفًا على طوبيا من العقاب فخانتهُ القوة وجفاه العزم من شدة الالم فاغمي عليهِ . اما طوبيا فعقيب ان رمى بالرصاص اسرع الى رفاقهِ في السرداب يريد انذارهم وبينا هو خارج من الباب الذي يلي البناء لجهة مدخل السرداب ابصره

اعوان جوترا الذين كانوا قد استووا على الجدار فانحدروا مجدين في اثر فقرّ طوبيا من امامهم كالسهم الخاطر فتبعة الرقباء وقد انضمّ اليهم الاخرون اذ راوا من الحكمة اقتصاص اثر الجاني والقبض عليهِ علمًا منهم بان جوترا يود النشاط والهمة في اجراء المهمة لا سيما في مهمة كانت نتائجها لخيره . فما بلغ الرقباء باب الدهليز حتى تغلل طوبيا فيهِ فلحقوه وقد كادوا يدركوه عندما دخل السرداب فاقفل الباب فخطر لاحدهم ان يدعو لنجدتهم خفراء النهر فنفر . فخاب اذ ذاك امل طوبيا من الدفاع فتخلى عن الباب الذي كان يعده لضعفهِ وفسح للاخصام مجال المصادرة فدخلوا جميعًا مدهوشين حائرين دون ان يبصروا احدًا بل سمعوا وقع اقدام سارٍ يعدو في ظلمة ذلك السرداب فما زالوا يطاردونهُ متبعين حركة القدم الى ان وقفوا حيث سكنت فكبر عليهم الامر فقال احدهم

— ارى ان نعود فنسأل زعيمنا الراي في هذه المشكلة

— انخالهُ يقوى الآن على ارشادنا فما لنا وازعاجه فلناتي من انفسنا اسباب الفوز فان الابواب موصدة والحديقة مرصدة وليس للخصم من سبيل للهزيمة . فلنجد الان في طلبهم الى ان ندركهم

فاتفق ان قد بلغ الدواسيس من الدهليز الطويل درج السرداب فاشعل احدهم المصباح وقال . فانحدر عليهِ الى اسفل

ونقدمهم نحو عشرين درجة فراى باحة صغيرة تطن من رجرجة الساري فمال الى اقرانهِ وقال

— اخواني وما اراها الا سائرين على ظاهر سرداب عميق وبدأ ينقب باحثًا عن حقيقة الموضع الذي وقف فيهِ فهوى الى الارض واخذ المصباح بيده يستقرئ سطحه فلاح لعينيهِ ثقب صغير فصوّب اليهِ عينهُ فرأى ما يليهِ مشهدًا غريبًا انهُ ابصر امراة تجالس رجلين وقد احدقت بهم اهبة السفر مؤلفة من اسفاط وعكم وصناديق وفي زاوية السرداب مما يلي الجدار ثلاثة فناطيس (براميل) مفتوحة فعقيب ان راى الرقيب ما راه مال باذنهِ الى الثقب

فطرق سمعهُ ما كانت تقوله المراة وهو — عجباه ما الذي ابطأ الزورق عنا حتى الساعة

— فاجاب اكبر الرجلين سنًا . — انه يبدو الينا قريبًا فما نحتاج الى اكثر من بضع دقائق لشحن متاعنا

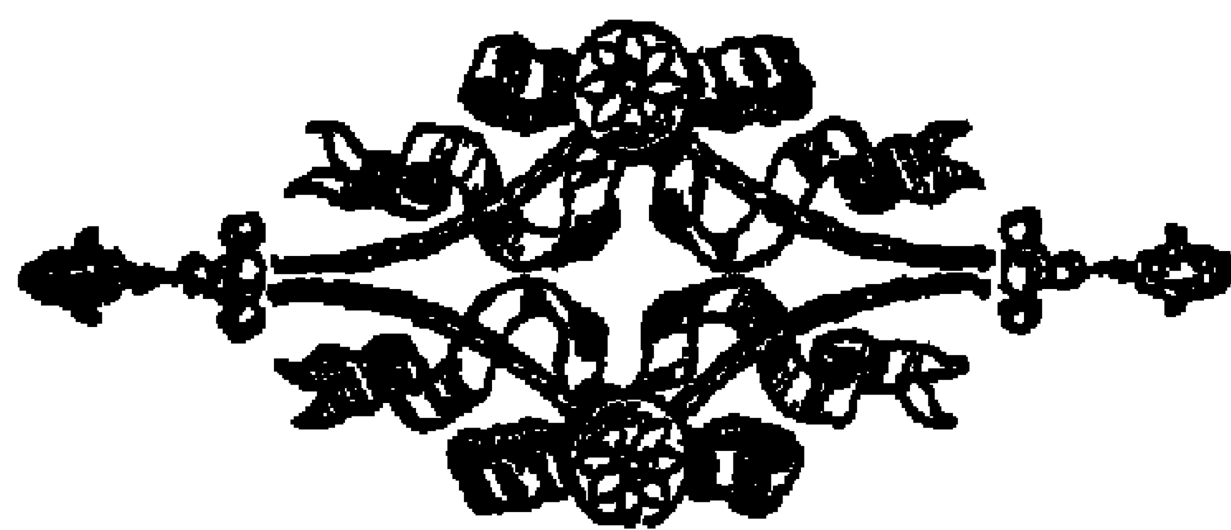
ثم تلاطوبيا قائلاً . — اننا ستقلع من هنا قبل ان يبلغ باخصامنا الطيش والخفة الى مدخل الدهليز

فرأى الرقيب ان يعترضهُ فقال — اني انصح لك بالتسليم

فعمد اذ ذاك طوبيا الى غدارتهِ يريد ان يرميه بها فصدتهُ المراة عن ذلك فانتزعتها من يده والقتها جانب الفناطيس المفتوحة

ولما كان النفر قد بلغ اذن خفراء النهر اقبلوا بزورقهم ناحية الثغرة وصاحوا . التسليم والاذعان

فعندئذٍ اخذت المراة الغدارة بيدها وقالت . أُخبر لي ان اموت فانتقم لنفسي من اخصامها واطلقت الغدارة فدوت منها تلك الارجاء ومادت الارض كانما قد زلزل زلزالها فتوارى كل ما كان في ذلك لموضع تحت غيوم الدخان الكثيفة



الفصل الثامن عشر

الايضاح

ان الفاجعة التي حدثت في محلة بيلي مرّ خبرها باسماع الباريسيين على غير سبب واضح اذ لم تبق الا على جوترا الذي افاق من اغمائه بقوة الدوي فنهض للحال يعدو على ضعفه الى خارج الحديقة ثم ركب العربة وجرى قاصداً منزل صديقه سارتيلي فراراً من غوائل الامر الغريب

فاخذ الناس يسندون اقاويلهم عنها الى اسباب متضاربة حتى وقفوا من بحثهم وتنقيبهم عند هذا السبب . وهو ان الانفجار الذي حصل كان عن بقية من البارود الذي جلبة البروسيا و بون عام ١٨١٥ لنسف مجاز يانا

وقد فات الحكومة ايضاً معرفة اسبابها لتغيب المتهمين كلهم تحت ظلام الموت ثم انها كانت قد نظرت من قبل في انتحار مس جورجينا او موتها سماً نظراً ضعيفاً فقالت فيه حتف انفها على اثر علة تدهم المزاج الانكليزي خاصة . اما دي نو ريف اذ كان قد خرج من قصره علناً على قصد الشخوص الى روسيا لم يخطر بسال الباحثين عن اسباب الحادثة استقراء حاله والعلم بمكانه

فانحصرت على ما راينا اسرار ما جرى في صدر ثلاثة رجال

فعقيب هذه الفاجعة بثلاثة ايام جلس هولاء الثلاثة صباح يوم من ايام الربيع في ردهة منزل في محلة استورج يتفكهون بالحديث فيتنقلون بالكلام من

القديم منهُ الى الحديث. الى ان اخار الملازم شاتوبرن ببال سارتيلي ذكر ما جرى عليهم في ضحضاح مون سان ميشال واغرق في التفصيل الى ان تبسم جوترا جهدًا الان فوءادهُ كان ينفطر حزنًا وقد زاده الجرح الذي اصابهُ فبرح المًا على الم

ثم قال لقد لقيت امس جزاء جهدي فيهِ فانلت الجندي رفيقنا في تلك الرحلة شارة جلاء في الجندية

— انني اشكرك على صنيعك عنده وانا ايضًا قد اجزت نوالهُ فاستوفى امس حظًا منهُ

— انهُ لجديرٌ بالنوال لما بذل دون هدايتنا في تلك السبل الوعرة من الحذاقة والهمة

— فضلاً عن كل ذلك انهُ هو الذي اتانا بالصندوق الذي وعى مال روجه واعلم يا اخي ان للمظلوم نصيرًا لا يكرى . لئن يهل الظالمين في الدنيا طالبهم في الاخرى . فويل لهم اذا لم تنفع الذكرى . وما اخال صديقنا جوترا ينكر عليَّ ايماني

— فانا نهِ الثقاف التصديق بالاشارة

فاستطرد سارتيلي كلامهُ الى ان قال . — ان الله قد احرمنا روجه فقطعهُ عنا قبل ان يذوق لذة الهنا الذي اغبطنا بهِ

فاجابهُ الملازم . — انني غدوت في جملة الذين يرتاحون الى التطير فاخاف ان يعقب نعمتنا شقاء وراحتنا عناء . وقد قيل الدهر يومان . —

فهز سارتيلي راسهُ وامعن في الافتكار

وبينا هو على هذه الحال نبههُ الثقاف بسوءالهِ قائلاً

— اسمح لي ايها الفيكونت ان اسألك مسئلةً خطرت ببالي

قل ما بدا لك

— اليس الغد موعد تصديقك ميثاق زواجك بحنة دي مانسيناك

— فدهش الفيكونت من سؤالهِ البديهي واجاب . — نعم وقد اشرت الى الموسيو كالمت المعجل ان يتقدمني الى التصر فيتحرى ازالة الاوهام من ذهن حنة واملي ان يفوز بها

فاعترضهُ الملازم قائلاً . — أما توافقتم حتى الآن

— ان حنة تنكر الاستيلاء على المال الذي جئنا به من طومبلان فاطلعتها على ما يفيد كتاب روجه اليَّ سرًّا فابت الاَّ الاعتقاد بحياة اخيها

فاجابهُ جوترا بكل رصانة — لقد صدقت الفتاة

فدهش الملازم والفيكونت من اثباتهِ وبيانهِ الصريح

فاستطرد جوترا الكلام الى ان قال . — كنت قد اخبرتك ايها الفيكونت بما كان منْ امري مع دي نوريف وما قاسيت من الاهوال في ذلك السرب الهائل وقد حان الوقت الذي فيهِ اكشف لك عن ذرائع النجاة منهُ

انني بينا كنت اطوف على الماء كئيبًا ضعيف القوى لطمت لطمة اذهلتني فاغمي عليَّ ثم انتبهت من غفلتي فالفيت نفسي ملقى على فراش من الهشيم والى جانبي فتى وسيم كأن بهِ قائمًا لديَّ برعاني الى ان افيق . فلم اكن اعرفهُ لولا ان صباحة وجهه ورقة حديثهِ دلتني عليهِ فلاطفني ملاطفة أحيت في فوادي البأس وازالت من نفسي اليأس . وكان يعلوني قبةٌ يكاد لا يلمّ بها النظر لسموها وقد تدلى وسطها مصباح لم يشق نوره حجاب تلك الظلماء التي بثت في اكنافها . فكنت اسير الدياميس المنعقدة تحت هضبة « التروكاديرو » فدفعتني العناية الالهية الى روجه الرجل الوحيد الذي اخذ بناصري

فاخذت الحيرة سارتيلي فصاح عجبًا . — ما تقول يا جوترا . اتصدقنا الرواية . هل رايت روجه على ما تفيد

— نعم نعم وقولي سديد . انني رايت المركيز روجه دي مانسيناك الذي ما زال ينظر الى شقيقتهِ وصديقهِ من كبد ذلك السرب حيث اعتقل عليهِ اعداؤهُ

– اذن لم يزل روجه حيًا

– ولكن الى من تعزى تلك الفعلة التي رسخ اثرها في الخزانة

– لقد نال الجاني جزاء ما جنت يداه ودونك الآن ايضاح سر الليلة الثالثة عشرة من شهر شباط

– ان المركيز كان قد هام بشقيقة تلك المراة التي كانت قد انتحلت اسم دي نوريف وهامت به فرغبت اليه ان يبعد بها من مواضع الاشقياء فيحجبها عنهم حذر الفتك بها . فراى روجه ان يتركها اياما معدودة في تلك الدياميس التي كان قد توهم معرفة سر الدخول اليها دون غيره

وكان ينحدر اليها من الباب الحديد الخفي في اخر الخزانة فيقفل بآلة مفتعلة خاصة . فكان دي نو ريف قد ابتلى السر من قبل فقام يتربص بالمركيز وخليلته شرًا . فاختار طوبيا العامل في المكيدة التي رام نصبها . ففي اثناء الليلة التي قضيتها في المرقص دخل طوبيا القصر خلسةً واختبأ في زاوية الخزانة تحت حجاب الظلماء . فلما بلغ المركيز بخليلته باب الدياس فتح الباب ونقدمها منحدرًا على الدرج فقبل ان نقفل الباب وراها نادى طوبيا روجه همسًا بصوت ضعيف فالوت فابدا راسها لتنظر المنادي فغمز طوبيا زر اللولب فاقفل الباب يحز راسها حزًا الى ان جذم . . . ذلك بيان السر اكمالا لما عندك من فائدة الخبر التي اصبتها

فاحتدم سارتيلي غيظًا واستخف الخطب الملازم هولاً فنهضا يتأوهان ويتاسفان حسرةً وكمدًا

ثم استطرد جوترا بيانه الى ان قال – ان الاشقياء اشياع دي نوريف لم يكن من نيتهم الايقاع بقاندا بل بروجه فطاردوه وجدوا في اثره فدخلوا ذلك الدياس من جهة رصيف بيلي ما يلي دارهم فلم يصادفوا الا جثة الفتاة ملقاة على الارض مضرجة بالدم . ان روجه فاذ كان عارفًا بزوايا الدياس وخباياه انتبذ فيه مكانًا قصيًا لم يدر به احد ولم تجهره اقدام الذين يأوون اليه . فاقام

فيه مدة تغيبهم يقتات بما كان جمعهُ من الزاد كفاه فاندا الى ان ملَّ الاعداء البحث عنهُ وكلوا عن اقتصاص اثره

ففي الليلة التي اسعدني الله على النجاة من ظلمة السرب فدفعني التوفيق مغيمًا عليَّ الى ذلك المستنقع كان روجه قد عوّل على الفرار من كمينهِ فخرج يقصد النجاة سباحة فقدّر ان القيت على يديه قبل ان يخوض في العباب فاثر نقاذي على الفوز بنفسهِ فجزاه الله عني كل خير ووقاه من كيد اعدائهِ

فهل من حاجة الى ان اتيكما بالتفصيل والا يضاح زيادة عما اتيت . وكان بالكتاب الذي احتملتهُ على ظهري من البيان ما وفق بيني وبين روجه

فاعترضهُ سارتيلي قائلاً . — فاذ كان قد اخلي سبيل روجه على ما اوضحت ووضح طريقه فلمَ لم يأتِ ليسكن قلق شقيقته

انهُ كان يتعذر عليهِ التعرض لكثرة العيون التي بثت حولنا وقد ناب روجه عارض من الحمى كاد يجرعه كاس المنون لولا انني قمت ارعاه بكل حماية واهتمام. وما لبثت ان نجوت بالكتاب من شر الكامنين

— ألم تنبيء الحكومة مما كان

انه ألح عليَّ بالكتمان وعاهدني على ان لا ابوح به الا اليك ولذلك اسرعت لجئتك بالكتاب فسلمتهُ للغلام اذ لم يكن يسعني اطالة الوقوف عندك خوفًا على العليل من خطر يفاجئهُ فعدت اليه من ذلك المستنقع واقمت عنده الى ان زال الخطر فخرجت اقتفي اثر الاعداء واسعى في مناصبتهم جهدي لالقي القبض عليهم

— لكن يا صاح قد تلف العدو وتبددت العيون فلا يرجى عود روجه اليها . . .

— ان روجه عاقدني على ان لا ازيد ما اوضحت حرفًا

فقاطعها الملازم بقولهِ . — لقد ادركت الان غاية روجه فانهُ لم يزل كامنًا يريد ان يباغتنا بظهوره يوم العقد فيجعل نخلصة من ربق الاسر على مثال

تخلص رواة اليونان في كل مأساة ودعجاء

فضحك جونرا دون ان يحر جوابًا وارتاج ساردبلي الى تأ و يل زميلو

الفصل التاسع عشر

عود المفقود

في يوم تلألأت انوار شمس ربيعو الزاهرة في خزانة قصر دي مانسيناك كما تتلألأ الزهر في الافلاك فابتسمت ارجاؤها ابتسام المكروب بعد زوال كربهِ • وازدهت انحاؤها كما يزهو جبين الاسير عند انفراج ازمتهِ • جلست حنة الى الطاولة وسط غرفتها وعليها من آثار ماضيها حلة سوداء تزيد جبينها ضياء و وجهها رواء • وكان الى جانبها ساردبلي ينظر اليها فرحًا مستبشرًا • بكاسره الملازم والمبجل كالمت لينفاسا معهُ الافراح فيجلوا بانس تلك الساعة ما عرا فؤادهما من الغموم والاتراح

وكان على تلك الطاولة رزم من صكوك وقراطيس مالية قد لوّحها الزمان لشدة ما تقلب عليها من العوارض والاخطار في البر والبحار يشتغل المبجل في عدها ليفي ما لزم ذمة آل دي مانسيناك من الديون و يسعى بما يبقى لرفع شان تلك العائلة وتاييد مكانتها في البلاد • قارئًا على مسامع الجميع موثقةً لم تنفه حنة عبارتها الشرعية حتى اذا فرغ كالمت من مهنتو بدائة حنة

بهذا الكلام . —

— انني اشكرك على ما استنفدت من الوسع دون اعلاء شان عايلتي وحفظ مكانتها بيد انه لا يسعني توقيع الوثيقة التي قرايتها على مسمعي

فاجابها المجل — انني لا ارى يا سيدتي مانعاً يمنع من اجابة السوءل

— لا يسعني ان اقبل الثروة التي قدمت لانني اريد ان اوءيد بنفسي شرف آلي وعزتي

فقال لها سارتيلي متعطفاً . — بالله يا حنة

فاجابته الفتاة بالحاظ تفيد ما معناه :

— ان المال الذي جئت به ليس بمالي بل مال اخي فلا اقبل به واخي لم يزل حياً

— نعم ان روجه لم يزل حياً ونحن الان بانتظاره فياليته كان حاضراً ليبلغك ما انطوى عليه هذا الكتاب الذي كتبه بيده وكشف فيه عن سرائره فاوحى اليّ ان احرص على هذا المال من اجلك وهو لك حق ثابت لا يعارضك فيه معارض ولا ينازعك فيه منازع . وهو الذي امرني ان اتيك به على رغم الاهوال والاخطار التي اعترضت دون مسعاي وجهدي . ولم يدخره في ذلك الديماس الا ليمنعه عن عيون الطامعين به من انسبائه . اتنكرين يا حنة امتلاكه ونجاتك من الذل والفاقة . اترضين عن قبوله ببيع القصر مسقط راسك ومهد صباك . هي ان تلك الثروة هي تقدمة مني افتنكرين اخذها عربون حبي الصادق وولائي الاكيد

فتاثرت حنة من كلام سارتيلي وقالت . — ان اخي يتقاضاني

فاعترضها سارتيلي بقوله . — واذا طال عوده عليك

— فالاولى بي ان انتظره

— أترجئين عقد الزواج بي فتوثرين سكنى هذه الدار الخالية وما يتراآى لك فيها من عجائب الزمان على مساكنتي والتنعم بداري مع الاحباب

والخلان

— ما حياتي يا اخي وقد تاه رشدي

واذا بصوت قد صعد من آخر الخزانة يصيح بها — لن يتيه رشدك يا شقيقتاه وانا لك بعد الله خير نصير واكرم عضد وظهير

فاستفز الصوت الحضور واخذتهم الرعدة كما تاخذ الجسم اذا زلزلت الارض زلزالها فوضعت حنة كفها على صدرها تسكن خفقانه من تلك المفاجاة

وبينا هم على تلك الحال من الدهشة والحيرة طلع عليهم من اخر تلك الخزانة رجل عرفوه بطلعته وهيبته . فصاحوا جميعاً . اهلاً بالحبيب روجه ومرحباً بقدومه

اهلاً بفرع آل دي مانسيناك وباني عزهم ورافع مجدهم . اهلاً بالاخي الوفاء ومحقق الرجاء ومعيد النعيم بعد الشقاء

ثم استهلت دموع الفرح من المحاجر . وتلألأ البشر على جبينهم يتلو حمداً لله في الاول والاخر فارتمى روجه على عنق شقيقته يعانقها دون ان يتكلما . لان شدة الفرح من تلك المفاجاة كانت قد لجمت لسانه واحرمته بيانه فلبثا برهة على هذه الحال . والدموع تترجم بينهما ما اغنى عن المقال . ثم نهض كل من حضر فصافح روجه مصافحة الاخوان . وانعطف عليه انعطاف الام على ولدها اذا عاد بعد الهجران . وعقيب ذلك بشهر اي في اثناء شهر ايار صباحاً ذاع في باريس كما ضاع [illegible] الخزامى خبر زواج الفيكونت دي سارتيلي بالفتاة حنة دي مانسينا[illegible] و[illegible]حتفل بالقوم في كنيسة سان فيليب دي رول احتفاء بذلك ال[illegible]عهد[illegible] العقد وكان قد قام في جملة ذلك الحشد الملازم شات[illegible]ن سا[illegible] على العقد [illegible]حلته المطرفة ناظراً الى المركيز روجه نظر الحب[illegible] وكان خبر[illegible] [illegible]اه هذا الملازم قد دار على السنة الباريسيين فادارها بالثناء [illegible] [illegible]ه و[illegible]ايته وحكمته يتسالون عنه في مكان كان حتى صار يشار اليه بالبنان

وكان جوترا جالساً في زاوية الكنيسة يذرف الدمع لسوء حاله وخيبة آماله . فما لبث هذا الرجل في خدمته ان استقال فانقطع الى منزله وفرض على نفسه زيارة صديقه سارتيلي والجلوس على مائدته مرة في الاسبوع الى ان دعوا ذلك اليوم يوم اجتماع الخلان . والعبرة بعاديات الزمان

انتهى

